المجلس الأعلى للثقافة
لجنة التاريخ

العلاقات المصرية الإيرانية في التاريخ الحديث والمعاصر

تحرير : السيد فليفل

المجلس الأعلى للثقافة
لجنة التاريخ

العلاقات المصرية الإيرانية
فى التاريخ الحديث والمعاصر

(مجموعة أبحاث)

تحرير: السيد فليفل



٢٠٠٩

المجلس الأعلى للثقافة

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

ندوة العلاقات المصرية الإيرانية فى التاريخ الحديث والمعاصر
(مجموعة أبحاث)
تحرير : السيد فليفل
القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ، ط ١ ، ٢٠٠٨
٢٩٢ ص ، ٢٠ سم .
١ - مصر - العلاقات الخارجية - إيران - مؤتمرات وندوات
٢ - إيران - العلاقات الخارجية - مصر - مؤتمرات وندوات
(أ)فليفل ، السيد (محرر)
(ب) العنوان : ٣٢٧,٦٢

رقم الإيداع ٢٠٠٨/٢٣٧٧٤
الترقيم الدولى 4 - 993 - 437 - 977
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٢٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٢٧٣٥٨٠٨٤
El Gabalaya St.. Opera House, El Gezira, Cairo
Tel. : 27352396 Fax : 27358084

المحتويات

كلمة الدكتور / السيد فليفل

مقــرر اللجنة

تدل مؤشرات شتى على أن تحركات تتجمع فى إقليمنا العربى توحى بأن أمره خرج عن سيطرة أهله ، وتفرض فى مناخه سحابات غيرت مجالات الرؤية ، وصبغتها بألوان ليس لها من قوس قزح نصيب ، بل هى من الريح العاصفة المدمرة القاصفة التى أخذت بغداد قلعة الأسود وعاصمة الرشيد . سقطت الدرع الشرقية ، ومرقت من باب العباسيين جيوش تحالف دولى مزعوم صار غطاءً لاحتلال بشع يعيد تجربة استعمار القرن التاسع عشر إلى أذهان المؤرخين .

كانت تلك رياح السموم الأمريكية تعلن تدشين إمبراطورية العم سام ، لكنها لم تكن وحدها ، بل كانت معها رياح جانبية أخرى ، فإذا دبابات العم سام تدلف معها عمامات آيات اللّه ، تسبقها مدافعهم ، ليستيقظ فى إقليمنا العربى مارد ظنناه نائمًا ، فانبرت فى بغداد تجمعات ميليشيات شيعية ، ذات فيالق عسكرية حسنة التدريب ، تعلم ما تريد ، وتقصد من فورها متحف العراق ، فرموزه القومية والسنية ،

لتحليل البلاد إلى قاع صفصف ، حتى غدت حضارتها أعجاز نخل خاوية .

لم يستوِ الطرفان الأمريكي والإيراني وحدهما على ظهر العراق ، بل أُثْقل التاريخ التليد بأفاعي بني صهيون يتخفَّون في زي الشركات عابرة القوميات ، يعملون لمصلحة قوة إقليمية ثالثة هي إسرائيل ، فإذا هي تستكمل سعي الطرفين ، الإمبراطورية الأمريكية العولمية الجديدة ، والإمبراطورية الفارسية التليدة ، لإعادة بلد الرشيد إلى عصر التتار . وأحال ثلاثتهم بلاد النهرين إلى لون الدم الأحمر القاني يجري في الميادين والحارات ، فإذا بقوس النار والرماد على أرض بلاد النهرين لا يُبْقِي ولا يذر .

نحن إذن أمام مرحلة جديدة من دورة تاريخية خبرتها بلاد الرافدين ونحن معها من قبل طويلاً ، إننا بصدد قمبيز وقورش وإسماعيل الصفوي ، ومعهم رجال الغرب مرة أخرى ، نحن بصدد هولاكو مزدوج أحدهما غربي يحمل على عاتقه أسلحة الدمار الشامل كلها ، وهو أول من استخدمها في تاريخ البشرية ، ولكنه صار اليوم يحتل ديارنا بحجة امتلاك العراق لها ، بينما هو يغض الطرف عن شريكه الصغير (إسرائيل) وهي يعلن لأول مرة امتلاكها لهذه الأسلحة النووية بعد عهد طويل من الغموض المقصود ، لإمرار استراتيجية الردع بالتخويف إلى عقول بعض العرب .

وهولاكو الآخر يبعث الإمبراطورية الفارسية معتمرة عمائم آيات الله الشيعية ، ويسعى هو الآخر للانتقام من هزيمة أوقعها به نظام صدام البعثى القومى ، بعد حرب ضروس لثمانى سنوات ، ويريد أن يضمن عراقًا بائسًا ممزقًا تهيمن عليه الشيعة ، وكانوا بالأمس القريب ٦٠٪ من رجال البعث والممسكين فى دولة صدام بآليات الإعلام والتشريع والشرطة السرية .

تتعقد فى نفس الوقت قيادة المقاومة فى لبنان لرجل دين شيعى بليغ ووسيم ، يملك خطابًا حماسيًا يستند إلى نقطة توازن دقيق بين محددات ثلاثة : دين الإسلام ، ومذهب الشيعة ، والتوجه القومى العربى ، فأعطى لإيران مبتغاها فى جذب التركيز إلى لبنان بعيداً عن مخطط إيران النووى تحت المراقبة الدولية والغربية ، وأعطى الإسلاميين مرادهم بالحديث عن الجهاد ، كما أعطى القوميين العرب ودعاة المقاومة للهجمة الأمريكية والصهيونية ما يطلبون . وقد نجح فى وقف جيش إسرائيل ومنع تقدمه فى الجنوب اللبنانى ، مما عده الصهاينة أنفسهم كارثة عسكرية للجيش الإسرائيلى .

وامتلأت سماواتنا برسالة شيعية بدأت تظهر مؤشراتها على أرض مصر عبر عشرات الفضائيات . وتتدافع الآن فى نفوس البعض رغبة مكبوتة فى تحبيذ أن توجه الولايات المتحدة سهامها إلى إيران ، وكفى الله المؤمنين القتال ، حتى نتخلص نحن من المد الإيرانى فى هلالنا

الخصيب من العراق إلى الضاحية الجنوبية فى بيروت . ويا دار العرب ما دخلك شر .

وتعلو أصوات تستثير فينا هذه المرة الخوف على المذهب السنى ، وتدعونا إلى محور ضد إيران مع إسرائيل والولايات المتحدة .

يقتضى العقل أن نثير أسئلة تقف اندفاعنا ، ويحاول الباحثون فى هذه الندوة أن يجيبوا عنها :

١ - أليس هذا هو العالم الإيرانى الذى أشار إليه العلامة توينبى ، إذ تبعث القومية الفارسية ، فإنها تتمدد إلى مناطق التأثير الثقافى القديم ، حيث يوجد المذهب الشيعى ، وحيث توجد الحرف الفارسية الحضارية الإسلامية ، وذلك رغم أنف اللغة التركية المنتشرة فى وسط آسيا ، واللغة العربية المنتشرة فى ساحل الخليج العربى ؟ إن العالم الإيرانى يُبْعَث مجدداً أيها السادة فى أرض متأهبة لاستقباله ، والمذهب الشيعى إذن هو أداته الروحية .

٢ - والداعون إلى التصدى للمذهب الشيعى : هل نسوا أن صدَّام قُدِّم على المذبح الأمريكى والإيرانى سهلاً رخيصًا دون أن يرتفع صوت سُنِّى يستنكر ؟ هل تذكرنا الآن فقط أنه كان سُنِّيًا ، أم هى الألاعيب والمبررات السياسية ؟

٣ - وأصحاب الواقعية من دعاة التحالف السنى مع الصهيونية فى إسرائيل ومع اليمين المسيحى الأمريكى ، هل يهزلون ؟ هل يظنون

عاقلاً وطنياً حراً عربيًا إنسانيًا يضع يديه وهو برىء نقى أبىّ فى أيدى قتلة أسرانا وسجانى جوانتانامو وأبى غريب ؟

٤ – والمؤرخون وأساتذة الحضارات الشرقية : أليست هذه البلاد الفارسية هى شريكنا فى الحضارة الإسلامية ؟ فلماذا كشرت لنا عن أنياب قورش ومارست فعل هولاكو ؟ هل أخطأ شعبها لما ثار على الشاه ومخابرات السافاك ؟ أكنا نرضى لهم الذل والهوان ؟ أليس هؤلاء من أصهرنا إليهم ؟ أليس هؤلاء من أصدرنا الفتاوى معترفين بصحة التعبد بمذهبهم الإثنا عشرى ؟ أليس هؤلاء من قطعوا العلاقات مع قتلة أسرانا ، وكان ذلك أملاً لنا يومًا ما ؟ هل خذلناهم ؟

٥ – وما تلك القضايا المسماة بالمعلقة بيننا وبينهم : جزر الإمارات، تصدير الثورة ، شارع الإسلامبولى ، إخلاء الشرق الأوسط من أسلحة الدمار الشامل ؟ فلماذا يتزاور الإيرانيون والإماراتيون ؟ هل نحن إماراتيون أكثر من إخواننا هؤلاء ؟ لِمَ يتواصل الإيرانيون والسعوديون رغم تصدير الثورة ؟ وما نتائج هذا التصدير فى شرق المملكة ؟ أليس ذلك وهمًا كبيراً نرهن به علاقاتنا مع إيران لمن يتصرف كقوة إقليمية فى غيبتنا ؟

٦ – ولما دخل الإيرانيون مع الأمريكان إلى بغداد ، لماذا لم نَلُم الطرفين ؟ أم أن صمتنا على أحد الطرفين اقتضى الصمت على الآخر ؟

٧ – وإذا سلمنا بالخشية من برنامج إيران النووى أن ينتقل إلى

الجانب العسكرى فى غضون سنوات أهو يستهدفنا ؟ ولماذا لم نحمل على البرنامج الإسرائيلى ، وثم خطر حال يلوث مياهنا الجوفية وسماءنا ويهدد حياة شعبنا ؟ أليس السلاح النووى هو السبب المباشر فى قبولنا وقف إطلاق النار مخافة استعماله فى حرب ١٩٧٣ ؟ فهو يشكل إذن خطرًا داهمًا ، فلماذا نغضب عندما تسعى إيران لمواجهته ؟ وكيف نفرض عليها خياراتنا ؟

٨ – ثلاثة مشروعات أمريكية وإسرائيلية وإيرانية تخترق أرضنا ، فأين مشروعنا ؟ الولايات المتحدة الأمريكية أخرجت العراق من الكويت باسم الشرعية الدولية ، فلماذا لم تخرج إيران فى ذات الوقت من جزر الإمارات الثلاث ؟

٩ – ويبقى السؤال الكبير من بعد كل هذه الأسئلة جميعًا ، وهو لماذا يُخْترق عالمنا العربى بالمشروع الأمريكى والمشروع الإسرائيلى والمشروع الإيرانى ؟ والجواب واضح : لأننا بتنا عالمًا فارغًا من مشروع عربى .

أليس الأجدر بنا أن نحدد ماذا نريد ، وما مصالحنا ، وبخاصة ونحن نشهد المقاومة العراقية توشك أن تحدد موعدًا لانسحاب الجيش الأمريكى من العراق ولبدء العد التنازلى لإعلان فشل الإمبراطورية الأمريكية ، ولإعادة صياغة نظام عالمى جديد متعدد الأقطاب أكثر عدلاً ، أو على الأقل أقل ظلمًا ؟

وأما المشروع الصهيونى فلم يعد يمتلك قادة كباراً ، ودخل فى يوليو من عام ٢٠٠٦ نهاية ثلث قرن من الهزائم المتوالية بدأت فى عام ١٩٧٣م ، فأفيقوا للحقائق ودعكم من اليأس .

أليس من المنطقى أن تقود مصر حواراً مع إيران ليجتمع رأساً العالم الإسلامى ، سنة وشيعة ، على كلمة سواء فى عصر صراع الحضارات وصدام الثقافات ، والرسوم المسيئة إلى الرسول الكريم ﷺ ؟ ألسنا بالحوار الحضارى مع إيران أَوْلى ؟

ألسنا بحاجة إلى حوار استراتيجى جادّ مع إيران ، يبعث هويتنا إلى الحياة ، ويمد وجودنا بنسيم الاحترام ، بدلاً من الذوبان فى صمت الاحتراق والاختراق ؟ أعلنوا لأصحاب المشاريع الثلاثة كلمة سواء : اخرجوا جميعاً من أرضنا ، فأرض العرب للعرب .

هذه كلها أسئلة سعت للإجابة عليها بحوث الفرسان الأعزاء ، لتكون مرشداً وهادياً لنا إلى طريق الصواب والمراجعة لموقفنا على أساس من العلم والبحث التاريخى والسياسى والثقافى .

من أجل ذلك كله اقتضت الإجابة على الأسئلة آنفة الذكر عقد هذه الندوة ، ذات الجلسات الثلاث : التاريخية ، والسياسية ، والثقافية .

وبعد ، فلا بد من تحية واجبة لزملائى وأساتذتى فى لجنة التاريخ ، وأخص بالشكر المرحوم الأستاذ الدكتور عبد العظيم رمضان الذى تابع

العمل بهذه الندوة رغم متاعبه الصحية ، رحمه اللّه رحمة واسعة . وأحيِّى السادة الكرام أعضاء اللجنة من النجوم الزاهرة فى سماء القاهرة .

كما أحيِّى الرعاية الكريمة من المجلس الأعلى للثقافة ، رئيسًا وأمينًا وخبراء وزملاء ، متمنيًا لهم دوام التوفيق فى حمل رسالة مصر الثقافية إلى الدوائر الأرحب فى الفضاءات المترقبة لها والمستقبلة بشغف لعطائها ، الفضاء العربى ، الفضاء الإفريقى ، الفضاء الإسلامى .

* * *

مصر وبلاد فارس فى العصر الحديث

دراسة فى الصلات ومشكلاتها حتى أوائل القرن التاسع عشر

د . محمد صبرى الدالى

غريبٌ هو أمر الصلات بين مصر وبلاد فارس (١) فى العصر الحديث وقبله (٢) حتى يبدو وكأنها " كُتب " عليها أن تعيش حالة من الجزر شبه المستمر ، خصوصًا من الناحية الرسمية . وتسعى الدراسة للتعامل مع قضيتين رئيسيتين : الأولى هى البحث عن الأسباب التى حالت دون قيام " علاقات طبيعية " بين الطرفين وسيطرة حالة من " العداء " بينهما ، والثانية هى العرض لبعض أوجه الصلات المتبادلة .

أولاً : الأسباب السياسية لسوء (العلاقات) :

ونعنى بها تعدد الكيانات هنا وهناك واختلاف أهدافها وقيام الصراعات بينها ، لا سيما مع استغلال قوى أوروبية لها . ورغم التأثير السلبى للخلافات المذهبية بين الجانبين فإننا نعتقد فى أهمية وأسبقية العوامل السياسية وأنها استغلت الخلافات المذهبية ، بشكل مقصود فى الغالب . ونستطيع القول بوجود ثلاث مراحل للخلافات ، وهى كما يلى :

١- **الخلافات المملوكية الصفوية** : بينما كانت الدولة المملوكية تعيش سنواتها الأخيرة وتعانى العديد من الأزمات .. ظهرت الدولة الصفوية فى بلاد فارس كقوة جديدة واستطاعت ، بعد العديد من التطورات ، إقامة دولة فتيَّة وقوية بوصول إسماعيل بن حيدر (ت ١٥٢٤م) إلى العرش وتأسيسه الدولة الصفوية عام ١٥٠٢ وهو ما كان حدثًا تاريخيًا مُهمًا لبلاد فارس وجيرانها ، بل ولأوروبا [٣] ، ورغم المحاولات الاسترضائية الأولى من "الشاه" ظهر الصفويون باعتبارهم خطرًا حقيقيًا على الدولة المملوكية بسبب توسعهم نحو الغرب والذى كان يؤدى بالضرورة إلى احتكاكات مع الدولة المملوكية فى شمال الشام ، خصوصًا حول السيطرة على الممرات الاستراتيجية " للبلاد الحلبية " [٤] .

كان ارتقاء إسماعيل العرش لا يعنى توقف طموحاته ، خصوصًا وقد فرض عليه سير الأمور الصدام مع القوى المحيطة إما لتطويعها وإما لإخضاعها ، كما كان عليه - إلى جانب الوصول إلى حدود آمنة - إشباع حماسته الدينية على حساب القوى المناهضة للمذهب الشيعى. ونظرًا إلى ما سبق ولأنه كان يرى أن القوة السياسية يجب أن تعتمد على قوة عسكرية تربطها به وشائج عَقَديَّة متينة تجعلها مُستعدة للاستماتة فى الدفاع عن معتقداتها .. فإنه بعد أن قضى على " أعدائه الصغار" اتجه منذ ١٥٠٦م للتوسع غربيًا . وهكذا فبعد "انتزاعه المُلك" من الآق قوينلو فى ديار بكر بعد حرب تداعت بسببها دولتهم وهروب آخر أمرائهم "مراد" إلى العراق .. اتجه لتصفية إمارة إلبستان "ذى القدر"

شمال الشام ، المهمة رغم صغرها ، والتى كانت ضمن أراضى الآق قوينلو وللدولة المملوكية عليها سيادة اسمية ، فانتزعها من علاء الدولة عام ١٥٠٧ . وفى ١٥٠٨ استولى على بغداد ثم كربلاء والنجف (٥) .

فى هذا الإطار بدأ العداء بين الدولتين الصفوية والمملوكية منذ عام ١٥٠٢م بسبب " تحرك " الشاه على بلاد حليفة للمماليك أو تابعة لهم . ورغم مجيء الأخبار عن تراجعه (٦) بل واحتمال قيام تحالف بين المماليك والصفويين (٧) ، فإن الشاه ، وبعد نحو خمس سنوات ،" تحرك على بلاد السلطان ووصل أوائل عسكره إلى ملطية " مما استدعى من الغورى الإعداد ثانية لمجابهته . وإذا كانت الاستعدادات توقفت – على ما قيل – لقدرة حاكم إلبستان علاء الدولة "ابن دولات" على صد الصفويين – وهو ما لم يكن صحيحًا – فما نلاحظه أن الاستعداد لإرسال تجريدة ضد " الصوفى " كان يتم على مرأى من" قاصد" السلطان العثمانى ، وبما يعنى أن الاعتداءات الصفوية تسببت فى التقارب بين المماليك والعثمانيين وفى تنمية التعاون بينهم ، حتى لقد أُتبع السفير العثمانى الأول بسفير ثانٍ(٨) .

والواقع أن الاستيلاء على إلبستان كان منعطفًا مهمًا فى الصراع الصفوى المملوكى . فرغم التبعية الاسمية لحاكمها للدولة المملوكية واستقلاله الواسع فى شئونه الداخلية وتوجه طموحاته المبكرة نحو الشام ، فإنه كان من أعداء الشاه ، خصوصاً وقد اتجهت طموحاته الرئيسية نحو الشرق لاسترجاع أراضيه ، وإن أدى فشل محاولاته

إلى تعرضه لإغارات صفوية أقواها عام ١٥٠٧ . وإذا كانت هزيمة علاء الدولة أدت إلى تشرذم قواته وعبورها الحدود المملوكية والعثمانية ، بل وإلى هروب علاء نفسه إلى الجبال على الحدود العثمانية .. فإن انتصار الشاه أدى أيضاً إلى تحطيم الترتيبات الدفاعية المملوكية التقليدية على طول الحدود الشمالية والتى كانت إلبستان حجر الأساس فيها لسيطرتها على الممرات الاستراتيجية . وفى الوقت الذى لم يستطع فيه المماليك الرد بعمل عسكرى قوى ومباشر بعد أن لم يتحمسوا للتورط فى العداء بين علاء الدولة والشاه ، فإن سقوط ذى القدر جعل الشاه يتمادى فى طلبه حتى طلب من القاهرة تنازلاً رسمياً عن معظم "البلاد الحلبية" بل وطمع فى الحجاز ومصر نفسها (٩) .

ورغم ما سبق ، وفى ظل التقارب مع العثمانيين ، خُيِّل إلى الغورى أن المشكلات مع الصفويين انتهت ، خصوصاً وقد وصل سفير صفوى إلى القاهرة فى يناير ١٥٠٨ يحمل رسالة ذكر الشاه فيها " أن الذى وقع من عسكره" بدخولهم أطراف الأراضى المملوكية " لم يكن عن إذنه " وأن تحركاته فى إلبستان لم تكن إلا " احتياطات أمنية " . أكرم الغورى رسول الشاه " وأوكب له بالحوش موكباً حافلاً " وحاول أن يُظهر أمامه قوة ومهارة عسكر مصر . بيد أن الشاه لم تتوقف أطماعه وهاجم فى العام نفسه بغداد التى سارع "صاحبها" مراد خان بالهرب ، بعد هزيمته ، إلى أراضى الدولة المملوكية وأرسل يطلب من القاهرة بعض القوات "حتى يحارب الصوفى " . ورغم ذلك وأن

"الإشاعات قويت بزحف الصوفى" .. لم يستعد الغورى ولم يستجب لنداء مراد بالمساعدة ، بل اكتفى بإجراء الاستعراضات العسكرية . ويبدو أنه فى هذه المرة آثر التفاوض مع الصفويين خوفًا منهم ومُسلِّمًا باستيلائهم على العراق . وهكذا ففى يونيو ١٥١٠ " خرج الأمير تمرباى – وقد عينه السلطان قاصداً – إلى إسماعيل.. مُتملك العراق " [١٠] .

على أن سياسة الغورى السلمية سرعان ما اتضح عدم جدواها لأمرين : الأول علمه بالاتصالات بين الشاه وبعض الدول الأوربية ضد المماليك والعثمانيين[١١] ، وهو ما يحدونا للقول بأن السياسة الأوروبية لعبت دورًا مهمًا فى سوء العلاقة بين الطرفين ، لا سيما وأن الدولة الصفوية تبادلت الممثلين مع دول لم تكن لها روابط معها من قبل[١٢]. أما الثانى فتمثل فى وصول أخبار عن عدوان الشاه على بلاد محمد خان الشيبانى " أُزبك خان" واحتمال أن يشجعه ذلك على الاعتداء على الأراضى المملوكية ، وهو الأمر الذى لم يَطُل انتظاره . ففى إطار العجز المملوكى الذى اعتمد على الآق قوينلو ووعى الشاه بذلك وبقوة دولته ، بدأت قواته منذ ١٥١٠م فى العمل من ديار بكر فى توسيع أنشطتها الحربية شمال الشام للحصول على التنازلات التى طلبها من قبل . وفى ١٥١١ حاول الشاه إرسال رُسل عبر الأراضى المملوكية مع كسوة الكعبة، وهو ما كان يمثل تحديًا للمماليك وسيطرتهم على الأراضى المقدسة . على أن الازدراء للحكم المملوكى وصل إلى ذروته عام ١٥١٢ عندما وصل مبعوثا الشاه

إلى القاهرة حاملَيْن ادعاءاته بانتمائه إلى أهل البيت ، وأحقيته فى حكم مكة والشام ومصر (١٣) .

اكتملت سياسة الشاه العدائية عام ١٥١٢م حين استولى على كردستان وأرسل " قاصداً" جديداً للغورى حاملاً رأس حاكمها محمد الشيبانى " أزبك خان" وبيتين من الشعر " ليهدد أهل مصر" خصوصاً وقد " أُشيع فى بلاد الصوفى بأن السلطان اشتغل بما أنشأه فى الميدان من غرس الأشجار وشتول أنواع الأزهار .. فقصدوا ينكتون عليه بذلك وهذا نوع من التهكم " . ورغم ذلك وأن ما فعله الشاه كان تلميحاً لتحرك مستقبلىٍّ آخَرَ ضد الدولة المملوكية .. أكرم الغورى مبعوثه ، وإن حاول مرة أخرى ! إظهار القوة باستعراضاته العسكرية ، كما عهد بـ "القاصد" إلى " جماعة من الخاصكية يمنعون من يدخل إليه من الناس قاطبة ولا يُمكِّنون أحداً من جماعة القاصد يخرج إلى الأسواق ولا يجتمع بأحد " . وفى النهاية " خلع " الغورى عليه " وأذن له بالعود إلى بلاده .. ولم يعلم ما أجابه به السلطان عن جواب البيتين اللذين تقدم ذكرهما .. ولم يكتب له شيئاً مما أجابوا به الشعراء " (١٤) .

لم تتوقف الأمور عند ذلك ، ففى مارس ١٥١٢ ، وبينما كان الغورى مهموماً بالإعداد للقضاء على تمرد عربان البحيرة ، وردت عليه الأخبار بوصول " أوائل عسكر إسماعيل " إلى البيرة ، وهو ما أربك أموره " بين أمر العربان .. والصوفى " . وقد تأكدت الأخبار بعد ذلك لمرات ، أولها بعد شهرين عندما " أرسل نائب سيس .. عشرة رءوس

وعليها طراطير حُمر وزعموا أنهم من عسكر الصوفى كانوا يفسدون فى الأرض فقبض عليهم .. وحز رءوسهم .. وقويت الإشاعات بأن الصوفى متحرك على البلاد ". وثانيها فى آخر يونيو حين عاد مبعوث الغورى من عند الشاه فى حالة يرثى لها ، بل وفى صحبته سفير صفوى يحمل رسالة فيها " ألفاظ يابسة " حيث حاول الغورى– للمرة الأخيرة – إظهار العظمة والقوة أمامه بل وأخذ فى مبادلة الشاه إهانة بإهانة. ففى يوليو "جلس فى الميدان وأحضر قُصَّاد الصوفى .. ودفع إليهم جواب كتابهم .. وكان الصوفى أرسل إلى السلطان فى كتابه ألفاظًا فاحشة فأجابه بمثل ذلك وزيادة وهذا أول ابتداء وقوع الوحشة ". وفى الشهر نفسه " أنعم على تمرباى الهندى الذى توجه قاصداً إلى الصوفى بإمرة طبلخاناه". ومن الواضح أن تحركات الشاه أحدثت حراكًا سياسيًا حتى اجتمع بالقاهرة فى يونيو ١٥١٢ نحو أربعة عشر سفيراً . وإذا كان الغورى راهن على تحالفه مع العثمانيين فإن وفاة أبى يزيد كانت نذير سوء ، وهو ما يعكسه حزنه عليه ومحاولته مد جسور الصداقة مع ابنه "سليم" حيث أرسل إليه أقباى الطويل سفيراً " ليهنئه بالمُلك وينسج مودة بينهما "(١٥) .

بدأت الأخبار الجيدة تصل الغورى ، ففى يونيو ١٥١٣ علم بأن الشاه " خرجت " عليه أعداؤه من " ملوك التتر " وأنه " قُتل من عسكره نحو ثلاثين ألفًا وأن الصوفى جُرح وفُقد .. فلما سمع هذا الخبر سُرَّ به". على أن عام ١٥١٤ حمل للغورى مفاجآت جديدة ، ففى أبريل

"حضر قاصد من عند سليم .. وأُشيع بين الناس أن ابن عثمان يقصد أن يمشي على شاه إسماعيل" ويبغى أن يكون مع الغورى" أمراً واحداً وقولاً جازماً ". بيد أن هذا الطلب أثار هواجس الغورى ! وبعد يومين من عودة مبعوثه" أقباى" من إستانبول فى مايو ومعه "جملة تقادم عظيمة".. عقد اجتماعًا مع الأمراء وتقرر ذهاب جزء من الجيش إلى حلب " حتى يظهر ما يكون بين ابن عثمان والصوفى من الفتن وأن العسكر لا يدخل بين الفريقين حتى يبدو من أحدهما الغدر إلى عسكر مصر" . وبعدها بأسبوع سمح بمغادرة المبعوث العثماني وعيًّن صحبته "إينال باى" على أن يُرسل إليه سريعًا " الأخبار الصحيحة عن مشى ابن عثمان على الصوفى ". وفى الوقت نفسه أخذ فى إعداد "تجريدة كبيرة" لتُقيم فى حلب " حتى يروا ما يكون من أمر ابن عثمان والصوفى"، كما تابع إجراء الاستعدادات العسكرية . ومن الملاحَظ أنه بينما كان سليم يرسل المبعوث تلو الآخر من كبار رجاله إلى مصر طالبًا مساعدتها له ضد الشاه الذى استغل ذلك للتجسس على مصر ، كان الغورى لا يهتم إلا بوقوف جيشه على الحياد فى حلب والترحيب بالمبعوثين العثمانيين وإكرامهم وتقديم معسول القول لهم وإجراء الاستعراضات أمامهم (١٦) .

وبعيداً عن " انطباعاته " الأولى فور علمه بانتصار العثمانيين فى چالديران عام ١٥١٤ .. كان الانتصار نذير خطر للغورى ، ربما بسبب ما قيل عن تشجيعه لعلاء الدولة ضد العثمانيين فى حربهم ضد

الصفويين [١٧] . وهكذا فمع أن الغورى أمر بأن " تُقرأ عدة ختمات " فور علمه بانتصار العثمانيين .. فإنه أجَّل " دق الكوسات " حتى وصول " الأخبار الصحيحة " ولم يوافق على عودة " القاصد " العثمانى إلا بعد عودة قاصده إينال . بدأت معالم الخطر العثمانى فى " التعاظم " الذى أبداه سليم فى رسالته " بكثرة عسكره وشدة بأسه " مما جعل الغورى لا يُبدى سعادته عندما تأكدت له أخبار الانتصار ، ومن ثم أخذ الأمراء "حذرهم من ابن عثمان وخشوا سطوته.. لما يحدث منه بعد ذلك إلى جهة بلاد السلطان". وعندما وصل مبعوث عثمانى ببشارة النصر " لم يرسم بدق الكوسات بالقلعة ولم يناد بالزينة ". ومع أن الغورى وسليم تبادلا الرسائل بعدها وبدا ظاهراً وكأن الأمور تتجه للهدوء حتى أرسل الغورى يطلب من قواته العودة من حلب.. فإن قضية على دولات وشاه سوار وضعت المماليك أمام مأزق جديد وجادٍ فى علاقتهم بالعثمانيين بعد أن أيَّد سليم إعطاء سوار بلاد دولات رغم أنف الغورى ، بل وكرر خطابه المُتعالى [١٨] . وفى تلك الظروف تجددت محاولات الغورى للاتصال بالشاه[١٩] خصوصاً وأن القاهرة وتبريز أصبحتا بعد چالديران فى حاجة إلى تحالف ضد الخطر العثمانى الذى هدد الوجود المملوكى بالشام وأظهر للصفويين ضعف موقفهم . وهكذا فإن تقارباً مؤقتًا بدأ فى الوجود على حساب ميراث الصراع وعدم الثقة. وبعد أربعة شهور من الهزيمة وصل مبعوثا الشاه إلى القاهرة للبدء فى إعادة بناء علاقات مع المماليك لمواجهة الخطر العثمانى . ورغم الدفء الجزئى فى العلاقات

الدبلوماسية ، ثبت عدم جدوى المفاوضات فى عقد تحالف استراتيجى بسبب الخلافات السياسية والمذهبية ، وهو ما علم به السلطان سليم من خلال جواسيسه الموجودين فى البلاط المملوكى (٢٠) .

فى تلك الظروف فقط بدأ الغورى الاستعداد الجاد فعقد مجلساً للمشورة " فى أمر ابن عثمان وعلى دولات " وأخذ فى إرسال القوات إلى حلب كما أمر بعدم عودة الموجودين بها . ومنذ ذلك الحين تنامى العداء بين العثمانيين والمماليك الذين ارتبكت حساباتهم حول استعدادات سليم : هل هى ضد الصفويين من جديد أم ضدهم؟ وزاد الأمورَ تعقيداً تقاربُ على دولات مع الصفويين بعد استيلاء العثمانيين على إمارته . لقد ارتبكت الأمور وتحولت المخاوف إلى أخطار حقيقية حتى إن الغورى فشل فى إرسال مبعوث جديد إلى سليم حيث "لم يطاوعه أحد.. وقالوا : هذا رجل جاهل سفاك للدماء وكل من تَوَجَّه إليه بهذا الجواب قتله ". لقد فرضت التطورات على الغورى ضرورة الإعداد الجدى خصوصاً وقد دهمته أخبار أخرى سيئة بأن حرباً وشيكةً الوقوع بين العثمانيين والصفويين. وهنا " اجتمع بالأمراء .. وأقاموا فى ضرب مشورة " وانتهى الأمر بأن قال : " أنا أخرج بنفسى وأقعد فى حلب حتى نرى ما يكون من أمر الصوفى وابن عثمان ، فإن كل من انتصر منهما على غريمه لا بد أن يزحف على بلادنا " (٢١) . ونعتقد أن سياسة الغورى غير الحاسمة أوقعته بين الخطرين الصفوى والعثمانى . ورغم خروجه إلى الشام تحسُّباً للموقف فإن سليم استمر فى طمأنته بأن توجهه ضد الصفويين

"والأمر خلاف ذلك". ويبدو أن الغورى كان يريد تصديق ذلك حتى أرسل مغلباى الدوادار "وعلى يده مطالعة .. تتضمن الصلح". على أن سليم أساء للغاية معاملة مغلباى" ووضعه فى الحديد .. وقصد شنقه" وأرسل يطلب الحرب. وفى هذا الإطار "اضطربت أحواله [الغورى] وأحوال الناس الذين معه". وفى النهاية كانت "الكاينة العظيمة التى طمَّت وعمَّت وزُلزلت لها الأقطار" (٢٢) حتى اعتبرها البعض بمثابة "الحرب العالمية" فى القرن ١٦(٢٣) حين هُزم الجيش المملوكى وقُتل الغورى فى مرج دابق وبعدها تم احتلال الشام ثم مصر عامَىْ ١٥١٧/١٦. ويحق لنا أن نتساءل: هل ضيَّع الغورى فرصة إقامة علاقات طيبة مع الدولة الصفوية لأن سياسته المضطربة راوحت مكانها عندما كان بإمكانه أن يُقيم علاقات جيدة معها ضد العثمانيين، وفى الوقت نفسه ظل متمسكًا بالأمل فى إقامة علاقات مع العثمانيين، وهو الأمر الذى لم يستطعه وبالأحرى لم يسمح له سليم به ؟! وعلى كل فإننا مع الرأى القائل بأن سليم مدين بنجاحاته الشرقية – بالإضافة إلى عوامل أخرى – لفشل المماليك والصفويين فى الاتحاد ضده.

٢– مصر والصراعات العثمانية الصفوية حتى أواخر القرن الثامن عشر: كان الصدام بين القوتين الفتيتين – الصفوية والعثمانية – حتميًا لتناقض مصالحهما الاستراتيجية وأطماعهما. ومع أن الصفويين حسموا النزاع فى أذربيجان لمصلحتهم .. بقى جنوب شرق الأناضول منطقة الصراع الأهم. وإذا كانت الأنشطة الصفوية بداية القرن ١٦

هددت الدولة المملوكية هناك فإن تهديدها للدولة العثمانية كان الأخطر لأنها طالت "قلبها الاستراتيجى" وسط الأناضول الذى رأى العثمانيون ضرورة دعمه بالامتداد إلى " البلاد الحلبية ". ومن ثم كان من المحتم أن تنتهى الأمور بالصدام لا سيما وقد أثبت المماليك عجزهم عن القيام بدورهم وأثبت الصفويون رغبتهم فى الوصول إلى ساحل المتوسط للتحالف مع قوى غربية . وبقدر ما أدى ذلك إلى نزاع مع المماليك حين ضم إسماعيل معظم إمارة إلبستان ، فإنه أدى إلى الصدام مع العثمانين الذين استقبلت عاصمتهم العديد من مناوئى الشاه طلبًا للمساعدة بعد أن فشلوا فى الحصول عليها من القاهرة . على أن محاولات العثمانيين للتحالف مع المماليك وإلبستان أفضت إلى اعتمادهم على أنفسهم ، بل وإلى احتلال الإمارة عام ١٥١٥م فى أثناء عودة سليم من حرب الصفويين(٢٤). وعلى كل فالصراع العثمانى الصفوى الذى كان سياسيًا / استراتيجيًا فى الأساس استُخدمت فيه القضايا المذهبية وتحول إلى صراعات قاسية وكانت "چالديران" أول ذُراه العسكرية (٢٥) . وإذا كان سليم بعد چالديران ، ولأسباب عديدة ، لم يشأ التوغل فى قلب الدولة الصفوية واكتفى بالانتصار عليها وهز حكمها بعنف فى بغداد التى أعلنت ولاءها للعثمانيين ، فإن كون الهزيمة قاسية ولكنها غير قاتلة وأن الحكم الصفوى قام على أساس مذهبى.. مكَّن الشاه من استعادة كيانه والاستعداد لمناوشات جديدة ، وساعده العثمانيون عليها بإقحامهم أنفسهم سريعًا فى حرب ضد الدولة المملوكية (٢٦) .

ويبدو أن الغياب الطويل لسليم في مصر شجع الشاه على التحرك. لقد وصلته في مصر رسالة من الشاه " فلما قرأها تنكَّد " وعجّل بالعودة إلى إستانبول التى لم يستقر بها سوى ستة أيام " وقيل بلغ الخندكار أن شاه إسماعيل .. طرد عسكر ابن عثمان عن البلاد التى كان ملكها ". فلما بلغه ذلك " خرج من إستانبول مُسرعًا وأقام بأدرنة حتى يرى ما يكون من أمر الشاه " (٢٧) الذى استمر فى تلقّى مساعدات البرتغاليين(٢٨) ، وفى محاولاته للتحالف معهم ضد العثمانيين مُضحيًا بهرمز ، على أمل ضم الإحساء (٢٩) ، وهنا نُعيد التأكيد على خطورة التدخل الأوروبى فى الصراع الذى أدار فيه سليم ظهره للدول الأوروبية واتجه لمحاربة الصفويين حتى أكسب ذلك فارس أهمية فى نظر أوروبا باعتبارها أحد الموانع المهمة أمام المد العثمانى وسَعَتْ بحماسة لإقامة علاقات صداقة معها(٣٠) . وفى هذا الإطار بدأت الأخبار تتوالى على مصر عن جهود العثمانيين ضد الصفويين والتجسس المُتبادل (٣١) واحتمال تجدد الحرب بينهم ، حتى أرسل سليم عام ١٥١٨ فى طلب معونة مصر، وهى المعونة التى لم تصل إلى عصيان العسكر على خاير بك . وبعدها بأربع سنوات وفى إطار تحفز العثمانيين ضد الصفويين ، استعرض خاير بك العسكر فى يونيو١٥٢٢ " وعيَّن منهم جماعة كثيرة من المماليك الجراكسة نحو ألف وخمسمائة مملوك وقال كونوا على يرق إن طلبكم السلطان من البحر توجهوا إليه وإن طلبكم من البر توجهوا إليه"(٣٢) .

ويبدو أن الصفويين حاولوا الكيد للعثمانيين بالتعاون مع بعض المماليك [٣٣]، على أن العثمانيين أحاطوا بتلك المحاولات بل وأظهروها وكأنها لتحويل مصر إلى التشيُّع، وهو ما ظهر واضحًا في المحاولة "الفتنة" التي قام بها أحمد باشا " الطاغية / الخائن " عام ١٥٢٤ للاستقلال عن الدولة وتلقُّبه بلقب " السلطان أحمد ". لقد أخذت المحاولة بُعدًا مذهبيًا واتُّهم فيها ظهير الدين الأردبيلي بأنه أغرى الباشا " من اعتقاد أهل السنة إلى اعتقاد .. مذهب الإمامية"، وانتهى الأمر بأن "انكشف أمر أحمد باشا بأنه داعية لإسماعيل شاه في سفارة قاضي زاده وتسويله، ووجدوا تاجًا عنده من شعار الصوفي، واستُفيض أنه استحلَّ قتل أهل السُّنة وسلب أموالهم، وعزم على تقديم الاثنى عشر إمامًا على اعتقاد الرافضة وإظهار ذلك على المنابر وغير ذلك". وهكذا "ركب القضاة الأربعة في محفل عظيم والتاج على رمح والمنادي ينادي أمامهم .. أن أحمد باشا ثبت كفره .. فعليكم بالجهاد فيه وأن يُقاتل كل إنسان عن نفسه وعن عياله ومن لم يخرج بنفسه أعطى دراهم للبدل عنه". وانتهى الأمر بقتل الباشا والأردبيلي عام ١٥٢٤ وتعليق رأسه على باب زويله "وفرج عن الناس كرب كثير" لأن الأردبيلي استماله "إلى اعتقاد إسماعيل .. وعزم على إظهار شعار الرفض واعتقاد الإمامية على المنابر حتى قال إن مدح الصحابة على المنبر ليس بفرض ولا يخل بالخطبة". وترتب على ذلك أيضًا أن أخذ العثمانيون حذرهم من المتصوفة العجم في مصر[٢٤] بل ومن بعض العجم الذين التحقوا بخدمة الدولة

العثمانية " لبذر بذور الضعف فيها "[٢٥] ، وعلى كلٍّ كان فشل محاولة أحمد باشا الاستقلالية يمثل انقطاعًا جديداً وحاسمًا لـ " العلاقات" السياسية بين مصر وبلاد فارس ، خصوصًا وأنها كولاية لم تعُد مركزًا من مراكز الصراع بل مجرد طرف ثانوى عليه السير فى ركاب الدولة العثمانية صاحبة السيادة. وفى إطار هذه التبعية كان على مصر فقط الإسهام بقوات عسكرية ضد الدولة الصفوية عندما تتطلب الضرورة وتطلب منها إستانبول ذلك . على أنه مِن الواضح أن الدولة العثمانية لم تُلِحَّ فى طلب تلك المساعدات من مصر حتى أوائل القرن ١٧ .

ففى عهد طهمسب ٢٤ – ١٥٧٦ استولى الصفويون على العراق (١٥٣٠م) ليستعيده العثمانيون بعد أربع سنوات ولتنتهى هذه الفترة من الصراع بتوقيع اتفاقية أماسيا (١٥٥٤) التى حاولت حل المشكلات الرئيسية بين الطرفين حتى رفض الشاه عرض البندقية للتحالف ضد العثمانيين ولم يحتفِ بالتاجر أنتونى جنكسن مع أنه كان يحمل توصية من الملكة إليزابيث ، كما استطاع القانونى استرجاع ابنه بايزيد بعد أن فر إلى فارس عام ١٥٥٩ . ورغم استمرار الهدوء فى العلاقات فى عهد إسماعيل الثانى ٧٦ – ١٥٧٨ فإن الحرب الأهلية فى فارس عند نهاية حكمه كانت فرصة انتهزها العثمانيون للاستيلاء على تبريز وتفليس وداغستان . وإذا كان عباس الأول ١٥٨٧– ١٦٢٩رضخ فى البداية للتوسعات العثمانية وآثر أن يعقد معهم صلحًا فى عام ١٥٩٠م مُتنازلاً عن مساحات شاسعة شمال فارس والتزم بمنع لعن الخلفاء الأوائل ..

فإنه بعد أن أعاد ترتيب أمور بلاده وقضى على خطر الأوزبك وأرسل السفارات إلى بعض الدول الأوروبية .. استعد للمجابهة مُستغلاً تمرد فخر الدين المعنى(*) ومُستعيناً بجهود بعض الضباط الإنجليز فى إطار بدء تحالف فارسى إنجليزى.

بدأ الشاه بمهاجمة العثمانيين فى فارس واسترد تبريز ١٦٠٣ ثم أريفان وشيروان وقارص . وفى ١٦٢١ استولى على بغداد منتهزاً تمرد بعض الإنكشارية والثورة الجلالية فى الأناضول. على أن وفاة عباس وصعود حكام ضعاف مثل صفى ٢٩- ١٦٤٢ أدى إلى شن مراد الرابع حملة عثمانية استردّت بغداد عام ١٦٣٨ وليتوصل الطرفان إلى معاهدة زهاب ١٦٣٩ (٣٦) .

فى إطار تلك الحروب طلبت الدولة العثمانية مساعدات عسكرية من مصر ، ففى يناير ١٦١٦ أرسل السلطان أحمد الأول ١٦٠٣- ١٦١٧ " أخذ عسكراً من مصر نحو الألف نفس" (٣٧) حيث "ورد إلى مصر أربعة خطوط .. بتجهيز أربع سفرات : واحدة للعجم .. فجهزها [أحمد باشا] ستين يوماً " (*). وفى ولاية جرجى أحمد باشا ٣٣ - ١٦٣٥ "ورد أمر.. بطلب ثلاثة آلاف وأن يكون صارى عسكرهم دليور بك "وكان سفرهم من مصر إلى بغداد فى يونيو ١٦٣٥ . وفى ولاية محمد باشا ٣٧ - ١٦٤٠ " ورد فرمان بطلب ثانى سفرة - ألف وخمسمائة - إلى بغداد .. فبمجرد ما قُرئ الأمر ألبس الوزير قفطان السفرة إلى رضوان بك ". وهكذا " كُتب من الأكابر والأمرا والأعيان فوق المائة ، وبقيت ألف وخمسماية من العسكر القادرين"

وخرجوا فى يونيو ١٦٣٨ " ولم يحصل لأحد من رعايا مصر وغيرهم ضرر كما كان يحصل فى غيرها .. وكانوا فى العدد ألف وخمسمائة ، ويخدمهم وأتباعهم نحو الخمسة آلاف" [٣٨] ، ومع أن ذلك كان يعنى مشاركة مصر بفاعلية فى الصراع بأبعاده العسكرية ، فمن الواضح أن بعض الباشوات استغل إخراج "التجاريد" ضد "العجم" لجمع الأموال لأنفسهم [٣٩] .

ورغم الضعف الذى ألمَّ بالدولة الصفوية فى عهد عباس الثانى ١٦٤٢-١٦٦٧ وسليمان الأول ١٦٦٧-١٦٩٤ وحسين الأول ١٦٩٤-١٧٢٢م ، فإن حروبها لم تتوقف ضد الدولة العثمانية التى حصلت دائمًا على مساعدات عسكرية من مصر . ففى ولاية إسماعيل باشا ٩٥- ١٦٩٧ " أتى خبر من حسن باشا بغداد بطلب نجدة من السلطان لأن العجم زحفوا عليه ومرادهم يحاصروا بغداد ليأخذوها " ، وهنا أرسل السلطان "خطًا " إلى إسماعيل باشا " بأن يكون سر عسكر على الستة باشاوات ، نجدة إلى بغداد ". قام الباشا بـ" عمل حسابه" ورحل عن مصر ومعه لوازم الحرب ، لكن الغريب أنه فر بعدها إلى فارس بعد أن علم بوجود أمر من السلطان بقتله. وفى عام ١٧١٦ " ورد أغا من الديار الرومية وبصحبته خط شريف بطلب ثلاثة آلاف عسكرى إلى قلعة بنى أغراض ، يُقرى بالديوان العالى فأجابوا بالسمع والطاعة " حيث ذهب محمد بك جركس على رأس العسكر[٤٠] .

مع أن حكم الدولة الصفوية تلقّى ضربة قاصمة عام ١٧٢٢ باستيلاء " مير محمود " الأفغاني على السلطة .. فإن الأخير سرعان ما واجه أطماعًا عثمانية وروسية لاقتسام أجزاء من الأراضي الفارسية، خصوصًا مع عدم شرعية حكمه وعجزه عن إدارة البلاد التي اشتعلت بالثورات ضده ومُطالبة طهمسب الثاني بالعرش ، واستعانة الأفغان في النهاية بمير أشرف ليتسلم الحكم بدلاً منه عام ١٧٢٥ . وفي هذا الإطار، وفي مقابل الاعتراف به شاهًا على بلاد فارس .. تنازل طهمسب عن مساحات واسعة من الأراضي للدولة العثمانية وروسيا. اتجه العثمانيون لوضع أيديهم على"نصيبهم" وتقدموا في عام ١٧٢٥ حتى تخجوان ، بل واقتربوا من أصفهان، وإن تبادل الطرفان الانتصارات والهزائم لا سيما مع قدرة أشرف العسكرية(٤١) ، ومرة أخرى استوجبت تلك الصراعات الحصول على مساعدة مصر . وهكذا ففي يناير ١٧٢٤ " ورد أغا من الديار الرومية وبصحبته خطَّان .. بطلب ثلاثة آلاف من عسكر مصر إلى بلاد العجم ، وهي روان " . وبعد اختلافات كثيرة بين المماليك حول قيادة الحملة واستخدام الأمر للتربُّح ، وهو ما أثبت مرة أخرى أن الحرب ضد فارس لم تعد لها أهميتها المذهبية وربما السياسية ، لا سيما في ظل سيطرة المماليك على الأوجاقات في مصر.. تم اختيار حمزه بك للسفر على رأس الحملة التي نظرًا إلى أهميتها لأنها جاءت في مرحلة جديدة من الصراع مع فارس في عهد " مير محمود " السُّني ، فقد أولاها أحمد شلبي أهمية خاصة حتى مدح مير محمود لما قام به ضد

الشيعة ، وبشكل يشي بأنه اعتقد ذهاب العسكر المصرى لمساعدته ضد الشيعة [٤٢] ، على أن عسكر مصر لم يصلوا ساحة المعركة مباشرة وشهدت الأمور بعض التعقيدات ، خصوصًا عندما لم تعد هناك حاجة إليهم. وفى نوفمبر ١٧٢٤ ورد غليون " فيه عسكر السفر الذى كانوا فى العجم وجاءهم الإذن برواحهم إلى مصر" [٤٣] .

بيد أن مير أشرف أشعل مع العثمانيين حربًا جديدة انتهت بمعاهدة ١٧٢٧ التى تضمنت حماية العثمانيين لقوافل الحج ، وعدم تدخل أى طرف فى شئون الآخر مع استبقاء الدولة العثمانية لما تحت يدها ، واعتراف أشرف بالسلطان خليفة للمسلمين واعتراف السلطان بأشرف شاهًا[٤٤]. وقد شاركت مصر فى هذا الدور ، ففى فبراير ١٧٢٧ ورد خط " بالسفر إلى قندهار العجم إلى أشرف .. وأن السفر عليه وأن يجهزوا ثلاثة آلاف عسكرى". ومع أن "الخط" حدد أسماء قادة الحملة من رؤساء الأوجاقات والمماليك ، وأن هؤلاء " أجابوا بالسمع والطاعة".. فإنهم انقسموا بعدها وبما يثبت أن السفر للحرب ضد فارس لم يعد من الأمور التى يُقبِل عليها عسكر مصر . لقد طلب هؤلاء عدم الاعتداد بالأسماء التى وردت بالخط خصوصًا وأنه "لم يكن من السلطان وإنما من عند الوزير" ، وقد أُجبر الباشا على القبول برأيهم خوفًا من العزل . وفى النهاية سافر العسكر فى أواخر مارس ١٧٢٧م قاصدين "أصبهان" [٤٥] .

شـهـدت بلاد فـارس فى الفـتـرة ١٧٣٠– ١٧٤٧ مـجـمـوعـة من التغييرات أهمها وصول نادر خان إلى العرش ، ودخوله فى حرب شرسة ضد الدولة العثمانية انتهت بتوقيع صلح عام ١٧٤٦ (٤٦) . وتعتبر هذه الفترة من الصراع من أكثر الفترات التى استعانت فيها الدولة العثمانية بمصر . ففى فبراير ١٧٣١ "ورد أغا من الديار الرومية بخط.. يطلب ثلاثة آلاف عسكرى إلى العجم" ، وفى الشـهـر التـالى سـافـرت الحملة " ولم يحصل من العسكر تعب " . وفى فـبـراير ١٧٣٣ "ورد أغـا.. بطلب ثلاثة آلاف عسكرى إلى بغداد فأجابوا بالسمع والطاعة "وإن تكررت مشكلة قيادة القوات وانتهى الأمر باختيار على بك أمير الحاج لـ" أيوب كاشف الصنجقية " ليكون بديلاً عنه فى القيادة . وفى هذه المرة تم التعجيل بالسفر " لأن الأرفاض ملكوا من روان إلى أن أخذوا من حكم بغداد ثمانية عشر يوماً وأنهم أسروا بعض باشوات وأنهم محاصرون بغداد". ومع أنه فى نوفمبر ١٧٣٣ "ورد أغا وبصحبته خطوط قروا بالديوان أحدهما بعمايل شنك ثلاثة أيام بنصرة السلطان بأخذ ثلاثة قلاع من قلاع العجم من جملتها قندهار ".. فإنه فى مايو ١٧٣٧ ووسط حالة من هياج الرعية بسبب العملة والأسعار مما أدى إلى أن " صارت الناس فى غلبة وحصر شديد .. إذا بأغا ورد من الديار الرومية وبصحبته خط.. بطلب ثلاثة آلاف عسكرى إلى محافظة بغداد لأن العجم زحفت على بلاد الإسلام ". على أن توقيت طلب العسكر أثار القلق لأنه جاء فى غير أوانه " لأن من عادة طلب العسكر أن يأتى فى طوبة أو كيهك ..

والعسكر المطلوب من مصر فى عشرين برمودة ، فصار الفرق مائة وعشرين يوماً". ومن ثم "زاد الناس غماً على غمهم " خصوصاً وقد تضمن الطلب " أنكم لا تكتبوا صاحب عثمانى بل من عشرة وطالع ، ولا تكتبوا من الخمس الأوجاقات الخيالة لا من عسكر القليوبية ولا من عسكر الجيزة ، ولا من عسكر شرقى أطفيح بل من عسكر الغربية والبحيرة والمنوفية وشرقية المنصورة ، لأن البلاد فيها غلا زايد ويكون الصنجق قادراً والعسكر قادرين". وعلى كلٍ تمت الاستجابة للطلب وسافر مصطفى بك الدفتردار على رأس العسكر ، حيث مات هناك. وفى عهد أحمد باشا اليدكجى ورد خط فى عام ١٧٤٤م " بطلب ثلاثة آلاف عسكرى وسرادرة وأصحاب أدراك " ومرة أخرى تمت الاستجابة (٤٧) .

على أنه رغم انتصارات نادر شاه ، تعرضت فارس فى نهاية عهده للمشكلات الاقتصادية والإدارية والتنظيمية ، بل ووقعت البلاد فى فوضى الإرهاب والتمردات والاضطراب الاجتماعى ، لينتهى الأمر بقتل نادر عام ١٧٤٧م على يد ابن أخيه عادل شاه الذى بقيت البلاد فى عهده على حالة عدم الاستقرار حتى سيطرة كريم خان الزندى (الكردى) على السلطة ١٧٥٠-١٧٧٩ وتأسيسه الأسرة الزندية ١٧٥٠-١٧٩٤م ، ولتتجدد العوامل التى قادته لمحاولة الاستيلاء على العراق(٤٨) . وفى كل تلك الظروف طلبت الدولة العثمانية المساعدة الأخيرة من مصر فى القرن الثامن عشر . وهكذا ففى مارس ١٧٧٨م " ورد أغا بطلب عساكر لسفر العجم ، فاجتمع الأمراء وتشاوروا فى ذلك ، فاتفق رأيهم على

إحضار إبراهيم بك طنان من المحلة وقلدوه إمارة ذلك " [٤٩] . ولعل ما سبق كله يوضح أن مصر (الولاية) لم يعُد دورها فى القرنين السابع عشر والثامن عشر يتعدى إرسال بعض القوات المحدودة لمساعدة الدولة العثمانية فى حروبها ضد فارس ، حيث أصبحت الضرورة تستدعى ذلك دائمًا بسبب تراجع قوة الدولة العثمانية ، وهى مساعدات اعتادت مصر تقديمها فى معظم حروب الدولة ضد أعدائها .

٣- مصر والصراع العثمانى الفارسى أوائل القرن التاسع عشر :

كان نجاح محمد على فى الاستمرار بالحكم يعنى قدرة مصر على مُمارسة دور سياسى - إقليمى ودولى - أكثر نشاطًا واستقلالاً وفاعلية مُقارنة بما كان من قبل ، رغم بقائها من الناحية الرسمية بمثابة ولاية تابعة للدولة العثمانية. وما بين التبعية الرسمية للدولة والاستقلال النسبى الفعلى.. بدأت "العلاقات" بين مصر وبلاد فارس فى استعادة بعض النشاط . فبعد وفاة كريم خان وقعت سلسلة من الصراعات حتى أسس محمد قاجار الأسرة القاجارية عام ١٧٧٩ . ورغم أن الفوضى دبت فى البلاد بعد مصرع مؤسِّس الأسرة ، وأن عهد فتح على شاه للعرش ١٧٩٧-١٨٣٤ شهد تنافسًا أوروبيًا على فارس حتى حصلت روسيا فى معاهدتَىْ جلستان ١٨١٣ وتركمان تشاى ١٨٢٨ على مساحات شاسعة من أراضى الدولة القاجارية .. استمر العراق غاية من غايات الفرس وسببًا للحروب ، وتركزت الخلافات حول المشكلة الكردية والهجرات الموسمية من فارس إلى العراق لأهداف دينية واقتصادية . وشجع

القـاجـاريين على ذلك ضـعفُ باشـوات العـراق ، وأن الشـاه لم ينس مهاجمة الوهابيين لكربلاء عام ١٨٠١ .. بالإضافة إلى فشل المفاوضات بين الجانبين لحل الخلافات ، وأن روسيا ، بعد زيادة نفوذها ، شجعت فارس للاستيلاء على العراق . وهكذا هاجم الفرس بغداد عام ١٨٢٠ فى وقت كانت فيه الجبهة الداخلية مفكَّكة . انتصرت القوات الفارسية على جيش داود باشا الذى طلب المساعدة من السلطان . ونظرًا إلى انهماك الدولة العثمانية آنذاك فى حرب مع فارس فى الأناضول ، وفى المورة بسبب ثورتها ، ومن ثم عدم قدرتها إمداده بجيش كبير.. فقد طلبت العون من محمد على القوى والذى أصبح مُسامتًا للبصرة بعد وصول قواته بالجزيرة العربية (٥٠) .

ويبدو أن الشاه ، إدراكًا منه لوضع مصر الجديد ، حاول أن يُقصى محمد على عن مساعدة الدولة ضده ، لا سيما مع وجود علاقات بينهما . وفى هذا الإطار فإن " محمد شريف الحسنى " المُنتدب فى "مأمورية" للدولة العثمانية فى الهند .. حمل فى عام ١٨١٨ " مكاتبة من الشاه إلى جنابه العالى وأخرى إلى نجله ". وفى يوليو ١٨١٩ كتب الجبرتى عن أنه " حضر أشخاص من بلاد العجم وصحبتهم هدية إلى الباشا وفيها خيول " (٥١) . أما الوثائق فأشارت فى الشهر نفسه إلى زيارة مندوب ولى عهد الشاه لمصر حيث فوض الباشا كتخداه " فى مقابلة حيدر على خان الوارد من طرف عباس ميرزا ولىّ عهد ملك العجم وأخذ المكاتبات التى معه والسماح له بتقديم الهدايا .. ثم إكرامه ..

ومساعدته في السفر إلى الحجاز " (٥٢) ، وفي أكتوبر ١٨٢٠ أرسل محمد على " مُكاتبة ودية " مع حيدر خان إلى " القائمقام الصدر للدولة الإيرانية وناظر ممالك أذربيجان عيسى الحسيني .. رداً على المكاتبة الواردة منه .. وشكره على هدية الكساء " (٥٣) . وإذا كانت تلك الرسائل الودية المُتبادَلة تعلقت في الأساس بالحجاج ، فمن الوارد أن تكون قد طالت أموراً أخرى في " العلاقات " خصوصاً الوجود الإنجليزي في الخليج (٥٤) .

تدرجت مطالب الدولة من محمد على ، ففي نوفمبر ١٨٢١ وصلته رسالة من السلطان بأنه " نظراً إلى تجاوز العجم حدودهم ونقض عهودهم " فعليه ضبط المرور في أراضيه بإعطاء " تذاكر للعابرين " لمنع دخول أشخاص يُخشى منهم " والتجسس على العجم " بكل الوسائل المُمكنة " (٥٥) . ويمكن القول بأن الباشا قام بدوره خدمةً لنفسه وللدولة ، ففي أوائل ديسمبر ١٨٢١ أرسل إلى محافظ المدينة " بالتيقظ " للعجم " الذين يحضرون إلى تلك البلاد " والتجسس على مراسلاتهم " والوقوف بقدر الإمكان على حركاتهم بجهات بغداد بواسطة الواردين والمترددين إلى المدينة " (٥٦) . وفي اليوم التالي أرسل للمحافظ لتحذيره " من أن يدس العجم دسائس " عن طريق رجال يرسلونهم من الدرعية إلى المدينة وما حولها " وأن يلزم التدقيق والانتباه إلى أدنى حركة تصدر منهم توجب إخلال الأمن " وأن " يتجسس أحوالهم وما يفعلونه في بغداد بواسطة من له علاقة من أهل المدينة ببغداد " (٥٧) . وأواخر مارس ١٨٢٢

أرسل إليه عن وصول " المكاتبات .. المقدَّمة من بعض تجار من جهات البصرة وبغداد فى ما يتعلق بحركات العجم ، ويؤكد عليه بدوام التبصُّر " (٥٨). وفى الإطار نفسه أحاط الكَتْخُدا بحضور " إبراهيم أفندى الذى قدم إلى مصر لأجل الحج والزيارة .. وله معرفة على أحوال حدود العجم وثغور الشرق وبلاد الكرد ومطلوبنا أن تجلبوه بصفة خاصة وتسألوه عن تلك الجهات وتفيدونا بما يخبركم به " على أن يتم الاحتفاء بالرجل ورفيقه "وإعطاؤهما ما يلزمهما من المصاريف". وفى أواخر أبريل أعرب الباشا لـ "حاجو أغا " عن سروره من الأخبار التى أرسلها أخوه ، وطلب منه ضرورة أن يكتب إليه من جديد " بأن يرسل ما يسمع من أخبار بلاد العجم " وأن يحملها بنفسه " بشرط أن ينوب عنه أخوه إبراهيم أغا فى إرسال المكاتبات " (٥٩) . وأواخر يونيو طلب من محافظ المدينة " التحرى عن الحوادث المختصة بتعديات العجم على بغداد " وضرورة التحقق من تطورات الأوضاع " بوساطة أمانة تُعَيَّن من طرفه لأجل ذلك وإفادته بوجه السرعة عن جليَّة الأمر " . وبعدها طلب منه " تجسس الأخبار الموثوق بها عن العجم فى بغداد وما حولها بواسطة هجانة متمرنة على تجسس الأخبار " . وفى منتصف أبريل ١٨٢٣ أرسل إلى أمين جمرك جدة عن سروره بما أبلغه به عن " عزم قنصل الإنجليز الإستيلاء على مخا وعن أخبار العجم " وطلب منه الاستمرار فى إخباره بتفصيلات الأحداث التى يقف عليها (٦٠) .

وإذا كان محمد على قام بدوره فى التجسس على الفرس وتكهّن بأن الدولة ستطلب مساعدته لها ، فقد كان عليه أن يحدد الخطر الذى يتهدد العراق ومدى تقدم الفرس ومَن الحليف ومَن العدو . ومن وراء هذا كله كان يرمى إلى حماية البلاد الواقعة تحت حكمه من المؤامرات التى قد يدبرها له الفرس باعتباره عضواً فى قوة الدفاع العثمانية (٦١) . وهكذا فإنه شعر ، قبل تكليف السلطان له، بأنه على وشك أن يُكلَّف بمساعدة داود ، وهو ما يتضح فى ما كتبه لإبراهيم باشا أواخر نوفمبر ١٨٢١ عن أن "عباس ميرزا نقض العهد " وأن سير الأمور يوضح أنه " نفخ فى بوق الحرب ضد العجم .. وأنه بهذه الصورة قد هبَّت علينا ريح العمل فى سبيل الدولة والملَّة " إما فى المورة أو العراق وإما فيهما معًا ، وأن إنجاز ذلك يتوقف على " وجود العساكر الوفيرة ". ومن الضرورى " أخذ الاحتياط اللازم بالنسبة إلى تعدِّى شاه العجم بقوة عسكرية على حدود الدولة العلية ". وبعدها بأيام كتب إلى إسماعيل باشا سر عسكر السودان بأن " العجم نكثوا العهد وتحركوا ضد الدولة " ومن المُتوقع طلب بعض " الخدمات" (٦٢) .

صدقت نبوءة الباشا وطلب السلطان إرسال قوة بقيادة إبراهيم لمساندة والى بغداد . وافق الباشا بشرط إعطائه الوقت الكافى من أجل " تجهيز القوة الكافية ". وبما أنه مُنهمك " فى تسكين فتنة كريد ومأموريات الحجاز واليمن " فإنه يطلب مُهلة لمدة عام " لتجهيز المُتطلبات الحربية ، وبعدها " يتوجه بنفسه فى العام القابل لتنكيل العجم

وتأديبهم " [٦٣] . فهل أراد الباشا بذلك التملص من المهمة خصوصاً وأن وجوده فى الحجاز وعسير لم يكن مستقراً ومن ثم لم يكن باستطاعته فتح جبهة جديدة ؟ وفى كل الأحوال تابع الباشا نشاطه التجسُّسىّ على فارس بما يوحى بأنه كان يُجْرِى استعداداته لحربها. ففى منتصف مايو ١٨٢٣ كتب إلى والى الشام عن نيته قيادة قواته ضد فارس فى العام القادم " بعد تجهيز القوة الكافية ". ولهذا ولقرب والى الشام من بغداد ، والحاجة إلى الوقوف على حقيقة الأحداث " يرجوه إعطاء مُفصّلات ما يحدث من الحركات وحركات العدو أولاً بأول ". وفى يونيو أرسل يشكره على " مكاتبته المختصة بحوادث الشرق .. ويلتمس بَذْلَ الهمّة ". وفى سبتمبر أرسل إلى والى صيدا عن اضطراره " للوقوف على حوادث وحركات العجم " ومن ثم طلب منه تعيين بعض مشايخ العربان الذين يوثق فيهم " للاستحصال على أحوال وحركات الأعجام وبغداد وإرسالها" [٦٤] . على أن السلام حل بين فارس والدولة العثمانية ، لتنتهى المفاوضات بمعاهدة أرضروم الأولى فى أغسطس ١٨٢٣ [٦٥] . وفى هذا الإطار طلبت الدولة مساعدة محمد على للقضاء على ثورة المورة ، وكانت موافقته تعنى عدم تخليه عنها فى الحرب تجاه فارس من قبل ، خصوصًا وأنه قدم المساعدات للدولة فى هذه المرة [٦٦] واستمر فى التجسُّس على فارس ، وتقرب من والى ديار بكر وشارك الدولة فى موقفها من داود باشا [٦٧] .

والواقع أن التطورات السابقة كانت هى الأولى من نوعها من عدة نواحٍ ، فمن ناحية لم تطلب الدولة العثمانية من مصر مُساعدة عسكرية ضئيلة كما كان فى السابق ، بل طلبت حملة ضخمة . ومن ناحية ثانية فإن مصر ، وبشكل سياسى واضح ، لم ترفض تقديم المساعدة ولم تقدمها . ومن ناحية ثالثة لم يكن عدم تقديم مصر المساعدة مما أغضب الدولة العثمانية أو فارس . والحقيقة أن تصرف الباشا إنما يعكس فى النهاية موقفًا سياسيًا جديداً تجاه بلاد فارس ، ربما بحث فيه عن علاقات مختلفة معها .

ثانياً : الأسباب المذهبية لسوء العلاقات بين مصر وبلاد فارس :

رغم انقسام المسلمين إلى نحو ثلاث وسبعين فرقة ، كان الخلاف الرئيسى بين السنة والشيعة ، وجاءت فى الدرجة الثانية الخلافات حول قضايا فقهية كالجبر والاختيار وخلق القرآن . ورغم نقاط الاتفاق .. اختلف السنة والشيعة فى أمور الحديث والفقه والاجتهاد وبخاصة فى قضايا الخلافة والإمامة (٦٨) ، وهى أمور رغم قدمها(٦٩) استمرت أواخر العصر المملوكى(٧٠) وتفاقمت فى العصر العثمانى(٧١) . ومع أننا لا نقلل من خطورة الخلافات المذهبية ، فإننا فى المقابل نرى أنها لم تكن تُحتِّم الصراع(٧٢) لولا توافر أمور منها تراث الصراع فى فارس نفسها بين السنة والشيعة حتى القرن الخامس عشر والمحاولات العديدة لإقامة دولة شيعية هناك(٧٣) ، وقد ترك ذلك تأثيره على العلاقات الفارسية العثمانية

لا سيما وقد تعاصر الصراع السياسى مع فترة من فترات مد " غُلاة الشيعة " فى الأناضول وفارس المُتداخلة جغرافيًا ، ومنها الحروفية التى جذبت ذوى الميول الشيعية والإمامية وتركت تأثيراتها على القزلباشية فى فارس والبكتاشية فى الأناضول ، وكان لها وجودها القوى فى الدولة العثمانية حتى بعد القضاء عليها فى فارس [٧٤] .

كان ارتقاء الشاه إسماعيل عرش فارس يختلف عن ارتقاء مَنْ سبقوه من الإيلخانيين والجلائريين وزعماء القره والآق قوينلو ، لاتخاذه المذهب الإثنا عشرى مذهبًا رسميًا للدولة ، وجمعه بين صفة الشاه والمرشد الأكبر لدعاة المذهب ، واتخاذه السيف والقلم لتحقيق أهدافه. ورغم وقوفه ضد "غُلاة الهويزة" الذين نادوا بألوهية على .. فإنه ارتكب فظائع لا حد لها مع السنة لا سيما علمائهم وشعرائهم. وحين قيل له إن ثلثى سكان تبريز من السُّنة ويُحتمل ثورتهم بسبب نشر رسوم التشيع ولعن الخلفاء الثلاثة الأول ، كان رده : " رب العالمين والأئمة المعصومين معى ولا أخشى أحداً .. ولو تحدثت الرعية بكلمة أشهر سيفى ولا أدع أحداً حيًا ". وهو لم يكتف بذلك بل أمر بقتل كل من يسمع لعن الخلفاء الراشدين الثلاثة الأوائل ولم يهتف (عاش الشاه ولاهان) [٧٥] . وقد ذكر فارتيما أنه " يجوس خلال المنطقة ويحرق كل شيء ويقتل ، بخاصة ، كل من يعتقد فى صحة خلافة أبى بكر وعمر وعثمان" [٧٦] .

ومع أن الشاه اعتبر نفسه قُطبًا صوفيًا وملكًا أسس للشيعة مجداً لم يؤسس أحد مثله من قبل ، فإنه استعان بعلى الكركى الذى أحكم له

دعائم السياسة والمُلك وأجازه فى الجلوس على العرش باسم " الولاية العامة" ، ومن ثم أصبحت الدولة الصفوية من الناحية النظرية هى الحكومة الروحية لعالم الشيعة ، وكان الشاه يمثل السلطتين السياسية والدينية ويُعَدُّ خليفة للنبى ﷺ وعلىٍّ رضي الله عنه ورئيسًا روحيًا للشيعة الإمامية وخليفة مؤقتًا للإمام الغائب . وطوال العصر الصفوى كان العمل جادًا على نشر المذهب الشيعى الإمامى مذهبًا للدولة من إدخال الشهادة الثالثة فى الأذان والتوسع فى الاحتفالات الشيعية . على أن نشر فكرة لعن الخلفاء الثلاثة كان أكثر الأعمال إهانة وتحقيرًا للسُّنَّة الذين تعرضوا فى فارس للإيذاء ، بل والإبادة ، مما كان سببًا فى تخريب العلاقات مع العثمانيين . وقد أدت الخصومات منذ القرن السادس عشر إلى ارتكاب الفريقين أعمالاً وحشية ، مما زاد من النفور والكراهية بين الجانبين . وإذا كان المذهب الشيعى قد راج فى آسيا الصغرى منذ القرن الثالث عشر الميلادى واتخذ شكل العقيدة والدين للطبقات الدنيا واتخذ شكل المعارضة السياسية .. فقد وجدت الدعوة الشيعية هناك آذانًا صاغية وأتباعًا فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديَّيْن . وطبقًا لما أورده سفير البندقية عام ١٥١٤م فإن أربعة أخماس سكان آسيا الصغرى كانوا من الشيعة. وفى هذا الإطار يمكن البحث عن أحد الأسباب المهمة للصراع الصفوى العثمانى آنذاك . ومع أن سليم قام بعملية إبادة جماعية لشيعة آسيا الصغرى وأعلن الحرب

على الشاه وأنزل الهزيمة بجيوشه في چالديران .. فقد استمرت هناك الثورات المتدثرة بدثار التشيُّع حتى النصف الأول من القرن السابع عشر (٧٧) .

من ناحيته كان سليم شديد الاهتمام بتوحيد البلاد السنِّية سياسيًا ويروم أن يغدو ليس فقط سلطان أكبر البلاد الإسلامية وأقواها بل وحاكمًا لكل العالم الإسلامي ، ومن ثم جاءت أهمية الحصول على الخلافة باعتبارها "الغطاء الشرعي" لأهدافه السياسية. ومع أن استيلاءه على مكة والمدينة وأخْذه لقب الخلافة كان مقدمة لتحقيق حلمه ، فإن وجود الشاه كان عثرة في طريقه لرفضه الاعتراف بخلافته وإقراره المذهب الشيعي سدًا عظيمًا بين السنة في مشرق العالم الإسلامي ومغربه . وقد رد سليم وغيره من السلاطين ، بأن اعتبر الصفويين "زنادقة وملاحدة" و" أرباب الضلال " و" الطائفة الباغية " . وفي إحدى رسائله إلى الشاه ادعى بايزيد الخلافة ونسب إلى إسماعيل الكفر والرِّدَّة ودعاه إلى التوبة والقبول بأن تكون فارس ضمن البلاد العثمانية(٧٨) . ونظرًا إلى ما سبق ولتشبُّث كل طرف بمذهبه دون احترامٍ لمذهب الآخر ، والاستخدام السياسي للخلاف المذهبي دون اعتبار يُذكر بأن الإسلام يجمع الطرفين .. غدت القضية المذهبية أحد عوامل الخلاف وضعف العلاقات بين الدولتين (٧٩) .

والواقع أن العثمانيين أجادوا استغلال الخلافات المذهبية ضد الصفويين ، وبما يدعم أهدافهم السياسية ، حتى قبل غزوهم مصر . يتضح ذلك من رسالة سليم إلى الغوري عن حربه للصفويين

فى چالديران . فبعد الاستهلال وحمد الله "على الفتح الأكبر " أوضح أن حربه ضد "الطاغى" إسماعيل وصحبه من " الملاحدة وأحزاب الشيطان " هى لاعتداءاته على جيرانه وتخطيه الحدود الشرعية مما أوجب "الجهاد" ضدهم على كل مسلم . وفى هذا الإطار ترادفت العبارات ذات البُعد الدينى ضد الشاه لتوضح ضرورة قهره بناءً على فتوى العلماء وآيات القرآن ، وأن الحرب كانت بين " أهل الحق " الذين يقاتلون فى سبيل الله وبين " الطائفة الكافرة الفاجرة " حيث " بات الإسلام للكفر مقابلاً والرشد للرفض مقاتلاً والهدى للضلالة مراقبًا والحق للباطل مجاريًا وهيأت دركات النيران وهنأت درجات الجنان " . وهو ينتهى إلى أنه " كان الإسلام شاكرنا والله عز وجل ناصرنا " وإلى إبراز النتائج " الدينية والمذهبية " لهذا " الصراع السياسى" . وعندما التقى " قُصَّاد " سليم بالغورى عام ١٥١٦م كان مما حملوه معهم " فتاوى عن علماء بلادهم .. بقتل شاه إسماعيل وأن قتاله جائز فى الشرع " (٨٠) . والطريف أن هذا البُعد الدينى استمر بعد الغزو العثمانى لمصر ، وإن أُضيفت إليه أسباب أخرى مثل ما قيل عن منع الغورى لقوافل العثمانيين من الذهاب بالإمدادات إلى الجيش فى حربه ضد الصفويين (٨١) .

من ناحيتهم أيضًا أجاد الصفويون استخدام الدين ، ومع أن الشاه إسماعيل كان شيعيًا فى قرارة نفسه وبحكم نشأته .. فإن إعطاء الصفة الشيعية الخالصة لفارس كان يهمُّ النظام الجديد كثيرًا ، فالحروب ضد العثمانيين ، وإن كانت فى حقيقتها حروبًا إقليمية لها

جذورها الماضية ، فإن الاستمرار فيها كان يصطدم بفكرة حُرمة حرب المسلم للمسلم وقتله ، الأمر الذى كان يلاقى معارضة فى بلاد فارس ، وكانت فكرة الانضمام إلى الخلافة العثمانية والرضوخ لأمر الخليفة "أمير المؤمنين" أمراً له أنصاره. ولكن المذهب الجديد الذى أملاه الشاه أعطى تماسكًا قويًا للدولة وقضى على كل الآمال التى كانت تراود " الخليفة " العثمانى لضم فارس إلى خلافته (٨٢) .

ولقد أجهض العداء السياسى بعض محاولات إنهاء العداء المذهبى بين الطرفين ، فعندما تولى مير أشرف عرش فارس عام ١٧٢٥ .. فإنه حارب العثمانيين وأعلن أنه " خليفة الشرق والسلطان العثمانى خليفة الغرب" وهو ما لم يقبله السلاطين. ومع أن الجنود العثمانيين كانوا يكرهون حرب الأفغان لأنهم سُنَّة وأزاحوا الشيعة من العرش .. فإن العلماء أوجبوا الحرب بذريعة أن تشتيت الخلافة يضر بالإسلام . ومع أن والد مير محمود نفسه سبق له أن استعان بفتوى علماء السُّنَّة فى مكة للثورة على حكم " الروافض".. فإنه انقلب على هؤلاء لأسباب سياسية"(٨٣) ، بل لقد حالت الخلافات السياسية دون حدوث التقارب المذهبى . وعندما أراد نادر بعد جلوسه على عرش فارس عام ١٧٣٦ أن يقلل من الخلاف المذهبى بينها وبين غيرها من الدول السُّنية ، فإنه فشل . لقد حاول الإقدام على تغييرات مذهبية جذرية وكان يعتقد أن المذهب الشيعى مسئول إلى حد كبير عن تدهور البلاد وعزلتها . لكن "الانقلاب" المذهبى كان عسيراً لأنه سيضعه فى مصافٍ الزعامات

السُّنِّية ، فضلاً عن أنه يثير الشيعة عليه . اتجه نادر إلى حل وسط وهو إعلان المذهب الجعفري مذهباً سُنِّيًا خامساً لا سيما وأن لجعفر الصادق منزلة كبيرة في قلوب المجتهدين الشيعة وأن إعلانه مذهبه قد يُنسي الناس تراث الصفويين المذهبي ويجعله قادراً على كسب العراق. ورغم موافقة رجالات فارس على الفكرة فإن المحاولة فشلت ، بل ورفضت الدولة العثمانية الاعتراف بالمذهب الجعفري مذهباً سُنِّيًا وصدرت فتوى باعتبار أتباعه مارقين ، وبذلك أصبح موقف نادر صعباً للغاية ، حيث كرهه السُّنَّة وكان من العسير على الشيعة الأخذ بفكرته (٨٤) .

انعكست الخلافات على كتابات الشيعة التي امتزج فيها التاريخ بالعقيدة ، خصوصاً في ما يتصل بالإمامة حين سعوا لإثبات أن الرسول ﷺ كان مائلاً إلى أن يخلف عليًا بعده وأن أبا بكر وعمر وعثمان غصبوه هذا الحق ، وأن الأئمة أولاده هم اثنا عشر فقط . ورغم توزع موضوعات الكتابات الفارسية كان السُّنَّة موضع الهجوم في أي رسالة تحدثت عن أصول العقيدة . ورغم تسامح الشاه عباس إزاء أوروبا فإنه كان متشبثًا بالمذهب الإثنا عشري ، بل وتحول تفكيره المذهبي إلى نوع من الإقليمية حين جعل مدينة مشهد ، وبها ضريح الإمام الرضا ، المزار الأول والأقدس للشيعة بما في ذلك من دوافع اقتصادية وسياسية (٨٥). ومن الكتب الضخمة التي وُضعت في فارس بالعربية آنذاك "بحار الأنوار" لمحمد باقر المجلسي (ت ١٦٩٩) الذي كان شيخًا للإسلام وخصص شطراً كبيراً فيه للحديث بشكل مُغالٍ فيه عن

معجزات الأئمة الشيعة ، وفى الطعن على الخلفاء الراشدين والتجريح فيهم . ولا شك أن عصر المجلسى وتأييد النظام الحاكم للمذهب الشيعى وعلمائه كان من أهم عوامل تأليف الكتاب (٨٦) .

تركت الخلافات السابقة تأثيرها على الموقف فى مصر من الفرس . ورغم خطورة إسقاط الخلافات المذهبية على الصراعات السياسية واستخدام السَّاسة لها لخدمة أهدافهم .. فإن ذلك حدث وظهر فى العديد من المؤلفات ، فمن ناحية طال ذلك كتابات المؤرخين المصريين الذين عكست كتاباتهم البُعد السياسى / المذهبى مثلهم فى ذلك مثل غيرهم من العرب (٨٧) . يتضح ذلك من أول حديث لابن إياس عن الصفويين عام ١٥٠٢ حين كتب عن مجىء الأخبار بأن " خارجياً تحرك على البلاد يُقال له شاه إسماعيل " . وحين كتب عن أول " قاصد" صفوى يصل القاهرة وصفه بأنه "هو وجماعته فى غاية الفلاسة .. ليس عليهم رونق بخلاف قُصَّاد ابن عثمان " . وعندما أرسل الشاه إلى الغورى ببيتَى الشعر السابق ذكرهما وانتشر خبرهما وخبر البيتين اللذين أرسل بهما إلى سليم .. نشطت قرائح المصريين للرد عليها " ونظم فى هذا المعنى .. فوق المائتى إنسان " . وفى ظل شكوك الغورى تجاه الشاه عام ١٥١٢م وصل إلى مصر قاصد صفوى حيث " رسم السلطان لأزدمر المهمندار بأن يأخذ قاصد الصوفى وجماعته ويتوجه بهم إلى جامع السلطان .. فيصلُّوا الجمعة " . وهناك " اجتمع به القضاة الأربعة وأعيان الناس وجماعة من الأمراء فخرج قاضى القضاة المالكى يحيى بن الدميرى ..

فصعد المنبر وهو لابس السواد ، وخطب خطبة بليغة وذكر فيها مناقب الإمام أبى بكر الصديق .. فكان بالجامع يوم مشهود " (٨٨) .

وبعد الغزو العثمانى لمصر ، وفى أوائل يونيو ١٥١٨ "رسم ملك الأمراء لقضاة القضاة بأن يتوجهوا إلى مقام الإمام الشافعى .. ويقرأوا هناك ختمة ويدعوا اللّه تعالى بالنصر للسلطان سليم .. على الصوفى". وفى منتصف يونيو "رسم ملك الأمراء بقراءة ثمانى ختمات" فى مقامات الإمام الشافعى والإمام الليث والسيدة نفيسة وعمر ابن الفارض وأبى الحسن الدينورى وأبى الخير الكليباتى وكذلك فى المقياس والأزهر"، ورسم بأن يُهْدُوا ثواب ذلك إلى السلطان .. فإنه خرج إلى ملاقاة إسماعيل" (٨٩). ومن الواضح أن هذا العمل يُظهر من يقرأون الختمات من المصريين فى موقف "سياسى" مُناهض للصفويين وعلى أساس مذهبى ، رغم أنه بتوجيه من السُّلطة . والواقع أن البُعد المذهبى إنما تلقَّى دعماً من مصادر أخرى ، منها أولئك الذين قطنوا بلاد فارس لبعض الوقت وتلقوا فيها جزءاً من تعليمهم قبل أن تجبرهم التحولات السياسية والمذهبية فى العهد الصفوى على الرحيل منها إلى بلاد الدولة العثمانية (٩٠) .

استمر الموقف العدائى من المصريين تجاه الفرس من منطلق سياسى/ مذهبى رغم أن الصراع كان سياسياً وعسكرياً فى الأساس . وها هو مرعى الحنبلى (ت ١٦٢٣م) وقد كتب : " وانظر إلى عقايد ملوك العجم وشاه عباس الآن وأجداده .. استولى على ساير ملوك العجم وقتل

عساكرهم .. وقتل العلماء وأحرق كتبهم ومصاحفهم ونبش قبور المشايخ من أهل السُّنة وأخرق عظامهم وأحرقها وأظهر مذهب الرفض والإلحاد بأرض العجم إلى يومنا ". كما اتهمهم بـ" سب الشيخين وتعطيل الجمعة والجماعات واستحلال المحرمات والمجاهرة بالفجور في المساجد وتعطيلها.. ولو رأيت أهل هذه البلاد من أهل السُّنة والجماعة وما هم فيه من الذل والهوان لتتابعت منك عليهم الزفرات والأحزان، ويا ليتهم عندهم بمنزلة أهل الذمة عندنا" (٩١). أما البكَرى (ت بعد ١٦٦١م) فكتب أنه فى عهد السلطان بايزيد" ظهر إسماعيل شاه .. وكان له ظهور عجيب وسفك للدماء وأظهر البدع ومذهب الرافضة. وشَرْح ذلك يحتاج إلى تاريخ مستقل". وفى ترجمته لسليم كتب أنه "شرع رحمه الله فى قهر أعدائه وأخذ الممالك من الملوك ، فبدأ بقتل شاه إسماعيل". كما مدح فى أحمد الأول رفضه الصلح مع الصفويين ، "وقد سأله سلطان العجم فى الصلح كذا كذا مرة ، فلم يقبل ذلك رحمه الله لما يعلم من مكرهم وخداعهم ، وقال لا بد من قتالهم ، لو صرفت فى ذلك جميع خزانتى ولو بعت الثياب التى علىّ ، فجزاه الله عن الإسلام خيراً ، وعوَّضه فى ذلك الجنة بغير سابقة محنة " (٩٢) . أما الملوانى فكتب عند تجدد الصراع العثمانى الصفوى (٣٣ - ١٥٣٤) حول العراق مُظهِراً مدى قوة الجانب العثمانى حيث " وصل صاحب الشرق يطلب الصلح فلم يلتفت السلطان إلى كلامه واستمر سايراً إلى تبريز " التى دخلها فى يوليو ١٥٣٥ " فأتاه رسول شاه طهمسب بالمكاتيب يريد الصلح ويتضرع ويدعو ويسأل العفو عنه

والرحمة للرعايا وعلى أن البلاد التى أخذها تكون له وعلى أن لا يخونه فيها . فلما تحقق منه الأمر نادى فى العساكر بالعود". كما كتب عن "تديُّن" سليمان القانونى الذى استولى على بغداد من "الروافض" حيث "دخل العسكر بغداد ونصبوا على بروجها الرايات ثم توجه لزيارة الإمام أبى حنيفة .. وبنى عليه مشهداً عظيماً وتكية وقلعة حصينة . وزار مشهد الإمام علىّ وابنه الحسين وموسى الكاظم وعبد القادر الكيلانى". وعندما تجددت الحرب عام ١٥٥٣م كتب عن خروج السلطان " عازماً على غزو بلاد الشرق .. ولما وصل إلى أذربيجان أرسل إلى الشاه يدعوه إلى المقاتلة ويعيِّره على ترك الحرب والاختفاء". وهكذا دخل بقواته عدة مدن فارسية حتى بلغ "نخجوان مقر سلطان العجم وفيها داره وأولاده ، وفى أثناء ذلك ورد رسول الشاه ومعه مكتوب مضمونه أنه ندم على ما أظهر من العداوة ، وأظهر التذلل وطلب الصلح ". كما كرر الحديث عن تديُّن العثمانيين إبان تناوله لتجدد الحرب بين الطرفين عام ١٥٧٨م فى عهد مراد الثالث الذى "بنى قلعة فارس" بعد أن وجد فيها " المساجد والجوامع ومزارات الأولياء قد خربها الكفار " ! وعند تجدد الصراع فى عهد عباس الأول كتب عن ذلك وبقدر من الميل إلى العثمانيين أيضاً. ومن ذلك ما كتبه عن أحمد الأول ١٦٠٣ – ١٦١٧ الذى " شرع فى قطع دابر الخارجين من البغاة أيام والده " لأنهم "كانوا تغلبوا على غالب البلاد". وعندما تجددت الحروب بين الطرفين عام ١٦٣٨ كتب أن مراد الرابع رفض مفاوضات الصلح حيث " كان فى يده فى ذلك الوقت مصحف

شريف فتفاءل به فخرجت له هذه الآية : ﴿ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾ فأبى الصلح وشدد فى محاصرة بغداد إلى أن يسر الله فتحها .. وصرف السلطان همَّته لإزالة ما ابتدعه الرفض فى مشهد الإمام الأعظم والشيخ عبد القادر الكيلانى ، وأمر بتجديده وبنى ما تهدم من سور القلعة وشحنها بالعساكر المنصورة " (٩٣). ولعل البُعد "المذهبى" للصراع يظهر فى ما كتبه أحمد شلبى عن (مير) محمود الأفغانى السُّنِّى الذى رغم كونه أصبح ملكًا على فارس ، فإنه ظهر فى صورة مختلفة وجيِّدة ، لأنه كان سُنِّيًا وأُشيع عنه اتخاذ موقف رافض لموقف الشيعة من الخلفاء الثلاثة الأوائل (٩٤) .

فى هذا الإطار شهدت مصر ظهور المؤلفات المؤيدة للدولة العثمانية ضد الدولة الصفوية ومنها " تحقيق الفرج والأمان والفرح لأهل الإيمان بدولة السلطان سليم خان " لعلى بن الجزار (ت ١٥٧٦م) و"قلائد العقيان فى فضائل آل عثمان " لمرعى الحنبلى و" المنح الرحمانية فى الدولة العثمانية " لمحمد بن أبى السرور البكرى . كما ظهرت المؤلفات التى دافعت عن أهل السُنَّة ضد الشيعة وعن العرب ضد العجم ومنها "تأبيد المنَّة بتأبيد أهل السُنة " لمحمد البكرى (ت بعد ١٥٥٥) ، و" الروض الأنيق فى فضل أبى بكر الصديق " و" غاية الطُّلب فى فضل العرب " لمحمد بن أبى الحسن البكرى ، و" الفرق المؤذن بالطرب فى الفرق بين العجم والعرب" لمصطفى البكرى ، و"سلسلة الذهب المتصلة بخبر العجم والعرب" لعبد الرحمن العيدروسى ، و" مبلغ الأرب فى فضل العرب "

لأحمد بن حجر (ت ١٥٦٦) و" خلاصة الذهب فى فضل العرب" لعبد القادر الجزيرى (ت١٥٧٠) ، و"غاية الطلب فى إثبات كُفر من سبَّ العرب " لعلى الرشيدى (ت بعد ١٦٥٩) و" السطوة العدلية فى الفرقة الإسماعيلية " لخليل الفيومى (ت ١٧٤٨) ، و" غاية الطلب فى إثبات كفر من سب العرب بغير سبب " لعلى الرشيدى (ت ١٧٧٧٢) . بل وظهرت منذ البداية الآراء التى تجعل أصل آل عثمان "من صميم عرب الحجاز" من ذرية عثمان بن عفان أو من وادى الصفراء بالقرب من المدينة المنورة ، قبل أن يهاجر جدهم الأعلى إلى بلاد قرمان (٩٥) ، كما ظهرت المؤلفات التى تُقرِّبُ بين التُّرك والعرب ومنها "كمال الأرب بأُخوة التُرك والعرب" لعبد الرحمن بن عليش المالكى (٩٦) .

ومن نماذج تلك الكتابات " الصواعق المُحرقة فى الرد على أهل البدع والزندقة " لابن حجر الصوفى الأزهرى (ت ١٥٦٦) والذى كتبه دفاعًا عن أبى بكر وعمر رضى اللّه عنهما وَرَدًا على "الرافضة" (٩٧) على اعتبار أن ذلك واجب العالم عند ظهور الفتن والبدع. وهكذا أورد : " اعلم أن الحامل الداعى لى على التأليف .. أنه ﷺ قال : إذا ظهرت الفتن أو قال البدع وسُبَّ أصحابى فليُظْهِر العالم علمه فمن لم يفعل ذلك فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين .. وسنتلو عليك ما تعلم منه علمًا قطعيًا أن الرافضة والشيعة ونحوهما من أكابر أهل البدعة". وفى هذا الإطار أورد الأحاديث التى تنهى عن سب الصحابة وضرورة قتال من يفعلون ذلك لأنهم "مُشرِكون" (٩٨) كما دلل على" كذب" ما يدعيه الشيعة

وحذَّر السُّنة من اتباعهم (٩٩) ، وإذا كان قد تناول فى " المقدمة الثانية " إجماع الصحابة على وجوب نصب " الإمام " بعد " انقراض زمن النبوة " وهو ما يتفق عليه أهل السُّنة ، فقد استكمله فى " المقدمة الثالثة " التى جاءت بعنوان " الإمامة تثبت إما بنص من الإمام على استخلاف واحد من أهلها وإما بعقدها من أهل الحل والعقد لمن عُقدت له من أهلها ، وإما بغير ذلك ". كما تناول " جواز نصب المفضول مع وجود الأفضل" على خلاف رأى الشيعة الذين هاجمهم دائمًا. وبعد أن أورد كيفية حصول أبى بكر رضي الله عنه على الخلافة وانعقاد الإجماع على ولايته والنصوص السمعية الدالَّة على خلافته من القرآن والسنة وأنه ﷺ نص "ظاهرًا " على خلافته ، أورد فصلاً " فى ذكر شُبَه الشيعة والرافضة ونحوهما وبيان بطلانها " حيث فند فى ذلك خمس عشرة شُبهة قال بها الشيعة حتى يثبتوا بطلان خلافة أبى بكر. وبعدها أورد فصلاً "فى ما جاء عن أكابر أهل البيت من مزيد الثناء على الشيخين ليعلم براءتهما مما يقول الشيعة والرافضة من عجائب الكذب والافتراء وليعلم بطلان ما زعموه من أن عليًا إنما فعل ما أمر عنه تقية ومُداراة وخوفًا وغير ذلك من قبائحهم ". أما الباب الثالث فجاء فى " أفضلية أبى بكر على سائر هذه الأمة ثم عمر وعثمان وعلى". وهكذا تناول " ذكر أفضليتهم على هذا الترتيب وفي تصريح على بأفضلية الشيخين على سائر الأمة وفى بطلان ما زعمه الرافضة والشيعة من أن ذلك منه قهر وتقية " (١٠٠) .

ومن الواضح أن عداء بعض المصريين طال بعض كبار القضاة ، لأسباب منها أصولهم الأعجمية ، ومن هؤلاء أحمد بن روح الله الرومى (ت ١٥٩٩م) " قاضى القضاة بالشام ومصر وأدرنة وقسطنطينية وولى قضاء العسكرين ". وعندما ولى ولى قضاء مصر هجاه أبو المعالى الطالوى بما يلى :

حمير شروان أتت مصــرنا   وأصبحت بعد الشقا فى دعة

وفارقــت كنــجــة لكنـــهــا   لم يخل منها البعض من بردعه (١٠١)

وما سبق يعنى أن الموقف المذهبى ترك تأثيره على الشعر ، حيث لم يتوانَ العديد من الشعراء المصريين فى مدح الخلفاء ، بما فيهم علىّ ﷺ ، وبشكل لا يتفق وآراء الشيعة. ومن تلك النماذج محمد الدميرى المالكى (ت ١٥٣٦م) الذى كتب فى مدح النبى ﷺ والصحابة (١٠٢) والسلطان سليم ، وفى ذم الصفويين . وعندما كتب فيض الله الرومى الحنفى – وكان قاضى عسكر مصر عام ١٥٩١م – قصيدته "التبريزية" التى نظمها فى معركة تبريز فى عصر السلطان مراد ، قرض عليها مجموعة من المشايخ المصريين ، ومنهم شمس الدين بن المنقار ومحيى الدين الغزى شيخ الأزهر وغيرهم(١٠٣) . وفى هذا الإطار اتخذ البعض فى مصر أحيانًا موقفًا غير إيجابى تجاه بعض من اتُّهم بانتمائه إلى التشيُّع . وهكذا فرغم مدح الجبرتى فى درويش الموصلى (ت ١٨١٥) " النجيب الأريب والنادرة العجيب " الذى " طاف البلاد والنواحى وجال

فى المالك والضواحى واطَّلع على عجائب المخلوقات وعرف الكثير من الألسن واللغات " فقد قال البعض عند موته : " مات رئيس الملحدين " وقال آخر : " انهدم رُكن الزندقة " ، وكان من أسباب ذلك أنه عاش " يعتزى لكل قبيل.. فمرة ينتسب إلى فارس وأخرى إلى بنى مكناس ، ويحفظ كثيراً من الشُّبه والمُدركات العقلية وربما قلَّد كلام المُلحدين وشُكوك المارقين .. فلذلك طعن الناس عليه فى الدين وأخرجوه عن اعتقاد المسلمين .. وصرحوا بعد موته بما كانوا يُخفونه فى حياته لاتقاء شره وسطواته" (١٠٤) . على أن ماشهدته مصر يتضاءل مقارنة بما حدث فى أماكن أخرى (١٠٥) .

بيد أن ما سبق لا ينفى أن تطوراً ما حدث فى نظرة الشيعة والسنة إلى بعضهم . وإذا كان كتاب "عقائد الشيعة" لعلى أصغر (أوائل القرن التاسع عشر) مثالاً على ذلك ، حيث كتب عن " الرد على العقائد الباطلة" ومنها الرد على المُغالين فى حق الأئمة والقائلين بألوهية على (١٠٦) ، فإن ماحدث فى مصر منذ القرن الثامن عشر من عدم الإقبال كالسابق على قتال الفرس ، كان يتواكب مع ما حدث فى فارس . ولسوف ينضج ذلك فى عهد محمد على حين طرحت سياسته فهماً جديداً للشيعة ، فهمًا لا يعتمد على الأبعاد المذهبية بل على المصالح وموازين القوى . وفى هذا الإطار عُومل العجم بشكل جيد فى أيام السلام ، بل وتمَّت معاملتهم بشكل جيِّد فى أوقات الحروب ، باعتبارهم أعداءً من الناحية السياسية فقط (١٠٧).

ثالثاً : فى الصلات بين فارس ومصر وأشكالها :

على الرغم من سوء "العلاقات الرسمية" بين مصر وبلاد فارس فى العصر الحديث بسبب الخلافات السياسية والمذهبية والصراعات العسكرية ، مما حد من الصلات بينهما ، بقيت بعض أشكال الاتصال والتواصل "غير الرسمية" وهو ما يمكن عرضه فى ما يلى :

١- **الصلات التجارية** : يُشار غالبًا إلى العلاقات مصر التجارية مع الشرق (الشام والحجاز واليمن والعراق والهند) (١٠٨) ، ونادرًا ما أُشيرَ إلى صلات تجارية مع بلاد فارس (١٠٩) ، فهل يعود هذا إلى ضآلة الصلات بين الطرفين ، أم إلى اتخاذ السلع طرقًا وسيطه ، أم إلى ضحالة معلوماتنا ؟ وإذ لا نقلل من التأثيرات السلبية للخلافات المذهبية والحروب على التبادل التجارى بين الجانبين ، وهو ما أسهم فيه فقدان مصر لتبعية بلاد الشام والحجاز وأن العراق أصبح مركزًا دفاعيًا أماميًا للعثمانيين ضد الفرس (١١٠) وأن كل طرف حاول أن يستعيض عن ذلك بوسائل منها الاتجار مع الأوروبيين(١١١) ، فإننا نرى أن الصلات التجارية لم تنقطع بين مصر وفارس خصوصاً مع أهمية ما تنتجانه من محاصيل أو يمر بهما من سلع ووقوعهما فى منطقة حتمت التبادل فى ظل أنساق تقليدية للتجارة والملاحة(١١٢) . ويمكن مُلاحظة وجود الصلات بطرق وسيطه ومنذ فترة مبكرة ، مما كتبه فارتيما فى رحلته (١٥٠٣ - ١٥٠٩) عن أن حلب التى " تخضع لسلطان القاهرة " كانت

ممرًا مُهمًا للبضائع " وخصوصًا الفارسية " وطريقًا " للقادمين من بلاد العجم " وأن عدن كانت " ملتقى السفن" التى تأتى من جهات عديدة منها فارس ومصر ، وعن أهمية موسم الحج فى قيام صلات تجارية مع فارس التى كان الاتصال البحرى معها قائمًا (١١٣) ، وأن هرمز قامت بدور فى التبادل بين بلاد فارس ومصر واستقبلت سلع كل جانب وغُصَّت بالتجار الفرس والعرب وغيرهم (١١٤) . بالإضافة إلى ذلك استمرت دمشق وحلب وغيرها من المدن فى لعب دور مهم فى وصول بعض أنواع التجارة الفارسية إلى مصر والعكس لا سيما فى أوقات السلْم بين العثمانيين والفرس (١١٥) .

فى الإطار السابق ومع الغزو العثماني، كان فى مصر وجود لبعض التجار العجم رغم العقبات ، وهو ما تدل عليه على الأقل حادثتان مهمتان : الأولى قتل "الخواجا محمود العجمى التبريزى" التاجر بخان الخليلى لجاريته واستغلال خاير بك ذلك لمصلحته الشخصية (١١٦). والثانية حادثة استيلاء خاير بك أيضًا على أموال تاجر " حضر من بلاد الشرق ومعه متجر بمال له جرم ، فطمع فى ماله ، وزعم أنه جاسوس من عند شاه إسماعيل ، حضر ليكشف عن أخبار مصر وأحوالها ويُطالع الصوفى .. فشنقه ظلمًا واحتاط على جميع أمواله ". وعلى كلٍّ تكررت تلك الذرائع فى ولايات أخرى وأضرت - بالتأكيد - بالصلات التجارية بين مصر وبلاد فارس (١١٧).

ومن الواضح أن التجارة بين فارس ومصر شهدت بعض النشاط منذ أواخر القرن السادس عشر . كان ذلك يعود لأسباب منها الموقف الإيجابي للشاه عباس تجاه التجار السُّنة ، وهو ما جعل المحبي يمدح فيه "إكرام التجار الواردين إلى بلاده من أهل السُّنة " حتى كان له في ذلك " أحوال مُستفيضة شائعة" (١١٨) . ومنها نشاط التجارة الخارجية لمصر عن طريق البحرين الأحمر والمتوسط و"قافلة الحج" مما أدى إلى امتداد نشاط بعض كبار تجار القاهرة مثل إسماعيل أبو طاقية وأحمد الرويعي وعثمان بن يغمور ومحمد داده الشرايبي إلى مناطق خارجية بعيدة كالحجاز واليمن والشام والهند ، حتى استطاع أبو طاقية إدارة أعمال تجارية متعددة الأطراف شملت الشام والحجاز واليمن والهند. وهكذا حمل لقبَ "العجمي" بعضُ تجار مصر ومنهم " الخواجا عبد الرحيم العجمي عين أعيان التجار بخان الخليلي" ومحمد بن على العجمي القزويني (١١٩) . كما كان من الطبيعي أن يتحدث كريستوف هاران النبيل البوهيمي في زيارته للقاهرة عام ١٥٩٨ عن رؤيته لتاجر فارسي يعرض بضاعته ومنها القماش المُطرَّز بالقصب ، وأن يتحدث رحَّالة آخر عن تاجر فارسي استقر في القاهرة لفترة من أجل التجارة ، وخلالها اشترى " العبد الألماني يوهان وايلد " وسافر - الفارسي - إلى الحجاز حيث عقد صفقة فلفل مع تجار هنود ، وبعدها عاد إلى القاهرة حيث باع الفلفل لتجار بنادقة وربح في ذلك ٢٠٠ دوكة . وهكذا كان من الطبيعي أيضًا أن تكون هناك بعض الزيجات بين مصريات

وتجار عجم [١٢٠] ، بل وأن تشير بعض الوثائق إلى وجود نصارى عجم بمصر [١٢١] .

وتؤيد الشواهد بقاء الصلات التجارية بين مصر وفارس فى القرن الثامن عشر، فقد تضمنت تركة خطاب السكندرى "٨٠ محارم عجم" وهو عدد يرجح أنها كانت للتجارة لا للاستخدام الشخصى[١٢٢]. وعند خروج القوات العسكرية إلى " قنبهار العجم " عام ١٧٢٧ خرج صحبتها "خلق كثير من التجار" [١٢٣] . من ناحية أخرى استمرت قافلة الحج فى لعب دور مهم فى وصول السلع الفارسية إلى مصر ، وهو ما أسهم فيه إعفاء الحجاج من الرسوم الجمركية. وتتضح أهمية هذا الدور من أن الحرير الفارسى كان من السلع التى تصل مصر مع قافلة الحج بصورة أوسع من البن [١٢٤]. وفى هذا الإطار حملت قافلة الشام البضائع الفارسية مثل الحرير[١٢٥] واللآلئ والشيلان . وفى عامَىْ ٧٥ و ١٧٧٦ كان من السلع التى سُددت عنها رسوم الجمارك فى بولاق ١٥٧ مقطعًا من الشيلان الفارسية الواردة من دمشق التى استمرت ، كما حلب وبغداد ، تلعب دوراً مهمًا فى نقل التجارة الفارسية إلى مصر[١٢٦] وإن جاءت سلع أخرى بطريق غير مباشر وهو ما تدل عليه القضية التى رُفعت أمام محكمة الإسكندرية عام ١٧٧٩ [١٢٧] .

استمر التبادل التجارى بين فارس ومصر مع أوائل القرن التاسع عشر لا سيما أوقات الحج وبعد سيطرة مصر على الحجاز ، رغم الخلافات [١٢٨] ، وهذا ما يدل عليه ، بشكل غير مباشر ، الفرمان الذى

أرسله السلطان فى أكتوبر ١٨٢١ إلى محمد على وتضمن " أنه كان جاريًا إعطاء براءات إلى تجار الأعجام .. وقيد أسمائهم بدفاتر مخصوصة وتحصيل رسوم من كل شخص ٢٤ قرشًا بصفة جزية من التجار و١٢ قرشًا عن كل شخص من أتباعهم ". على أنه نظرًا إلى تجاوز العجم حدودهم ونقض عهودهم .. دعت الحالة إلى التحقق من تبعية طوائف التجار.. وحبس طوائف الأعجام .. وتقديم الدفتر اللازم بأسمائهم(١٢٩) .

فى هذا الإطار عاش بعض المُحترفين العجم فى مصر ، ففى يناير ١٥١٧ "قُبض على شخص أعجمى كان يصنع السنبوسك فى قناطر السباع فوجدوه عمد إلى كلب أسود سمين فذبحه وسلخه وصنع منه السنبوسك " وهنا ضرب المحتسب " العجمى بالمقارع وأشهره فى القاهرة والكلب معلق فى رقبته .. فطافوا به هو ورفيقه فى المدينة ثم سجنوهما فى المقشرة ". ونعتقد أن تعليق ابن إياس : " ولم تزل الأعاجم يقع منهم هذه الأفعال الشنيعة" .. إنما يعكس وجود نسبة غير قليلة منهم . وفى ١٥٢٠م توفى محمد العجمى الذى " دخل القاهرة بعد فتنة الطاغية إسماعيل" حيث " جلس فى حانوت بقرب خان الخليلى يشتغل فيه الأقماع والكوافى على أسلوب العجم بحسن صناعة وجميل دربة وإتقان صنع " (١٣٠). ورغم ما قام به محمد على من تطوير وتحديث كان لـ" صناعة العجم " وجودها حتى إن ابنته عندما تزوجت عام ١٨١٤.. سكنت إحدى الدور التى أنشأها صاحبها "وزخرفها ونقشها نقشًا بديعًا صناعة صناع العجم " (١٣١) . وفى هذا الإطار وبمناسبة تجدد الصراع

بين العثمانيين والعجم كان من الطبيعي أن يصدر فرمان أكتوبر ١٨٢١ " بضبط وحبس سائر الأعجام المقيمين بمصر .. نظراً لطغيانهم وتجاوزهم الحدود". وعندما تتوقف الحرب نجد الاهتمام ينصبُّ على معاملة الرعايا العجم معاملة جيدة [١٣٢] .

٢- **الصلات الدينية** : وقد لعبت دوراً هاماً في بقاء بعض الصلات بين مصر وفارس رغم العداء ، بل وبسببه. فنتيجة لاتخاذ الدولة الصفوية التشيُّع الإمامي مذهبًا رسميًا ووحيداً وما صاحَبَ ذلك من تداعيات.. رحل بعض أهل بلاد فارس من السُّنة إلى الأراضي العثمانية ومنها مصر كنوع من "المقاومة" ضد الاضطهاد الذي تعرضوا له وللاحتفاظ بمذهبهم . والحقيقة أن الدولة العثمانية فتحت أراضيها للسُّنَّة الفرس [١٣٣] ، بل ولبعض من بقيت لديهم بعض الأفكار الشيعية في نوع من التسامح [١٣٤] النسبي[١٣٥]. ومن العجم السُّنة الذين ماتوا في مصر أو زاروها لأسباب مذهبية : حبيب الله الشيرازي المصري (ت ١٦٠٥م) الذي " خرج من شيراز فاراً بدينه مما كان يطرق سمعه من سبٍّ أكابر الصحابة على رءوس الأشهاد " و " قطن بمصر بجامع الأزهر .. ففهم الفقه مع مشاركة في العلوم". وغياث الدين البلخي الشافعي ت ١٧٦١م "الشريف العالم العارف النقشبندي" الذي " رحل بسبب غزو طهمسب لبلاد الأزبك حيث " أباد نظام هاتيك البلاد وشتت شمل من بها من العباد" فتجول في العديد من البلاد منها مصر [١٣٦] .

على أن الأهم مما سبق هو الدور الذى لعبه التصوف فى الاتصال والتواصل بين مصر وفارس . ومن المعلوم أن البلدين ، ونتيجة لتشابه بعض الأوضاع [137] ، شاركتا بدور بارز فى تاريخ التصوف وعُرفتا باعتبارهما من أهم مراكزه وأنجبتا الكثير من مشاهير شيوخه ، وشهدتا مراحل تطوره الرئيسية بما فيها التصوف الفلسفى والطرقى ، وظهر أو انتشر فيهما العديد من الأفكار [138] والطرق التى وصل بعضها إلى أصول شيعية أو فارسية [139] . بل ولقد تركت فارس تأثيراتها على مصر فى بعض " الأفكار المُغالية " كالحروفية والنسيمية [140] . ورغم ما كتبه ابن إياس عن موقف الغورى من الصفويين.. فإنه كتب فى تقييمه لحكمه : " كان ترفًا فى مأكله ومشربه وملبسه .. ويميل إلى أبناء العجم وربما كان يميل إلى مذهب النسيمية من ميله إلى معاشرة الأعاجم " [141] .

جذبت بلاد فارس بعض صوفية مصر ومنهم دمرداش المحمدى (ت ١٥٢٢) الذى" ساح فى البلاد حتى دخل تبريز فصحب عمر الروشنى بها وأقام عنده مدة " ، وأحمد المنير (ت ١٥٢٤) الذى " صحب الدشطوطى وساح معه إلى بلاد العجم أربعًا وعشرين سنة ، " وشاهين الجركسى الخلوتى (ت ١٥٤٧) الذى "ساح إلى بلاد العجم وغيرها.. وأخذ عن سيدى عمر روشنى بتبريز". ورغم ضعف تيار الرحيل من مصر إلى فارس بعد قيام الدولة الصفوية فإننا لا نعدم وجود بعض الأمثلة ومنهم على القنائى (ت ١٧٨٣) " الشريف الحسنى " الذى يعود نسبه

إلى "عبد الرحيم القناوى "و" تلقن الطريقة .. ثم حُبِّب إليه السياحة " فزار الحرمين والبصرة وبغداد " وزار ما بهما من المشاهد الكرام ثم دخل المشهد فزار أمير المؤمنين علياً .. ثم دخل خراسان " ، وعندما عاد إلى مصر " كانت مدة غيبته نحو عشرين سنة " (١٤٢) .

فى المقابل جذبت مصر العديد من صوفية فارس لا سيما أمام موقف الصفويين السلبى من التصوف ، فبعد أن استندوا على الصوفية (١٤٣) واستفادوا منهم عسكرياً ، بدأوا فى تحويل انتمائهم من انتماء صوفى/ مذهبى إلى انتماء مذهبى/ عسكرى ، وأهملوا التصوف ، بل واضطهدوه(١٤٤) ، وتغيرت الفتوة من" فتوة مُسالمة" إلى" فتوة ثورية" (١٤٥). وفى هذا الإطار رحل بعض الصوفية العجم إلى الولايات العثمانية واستقبلت مصر العديد منهم ، مثل محمد العجمى (ت ١٥١٩) " الأردبيلى الخرقة الحسينى الحنبلى " ومحمد الشماخى (ت ١٥٢٠) الذى "دخل القاهرة بعد فتنة الطاغية إسماعيل"، وظهير الدين الأردبيلى الحنفى (ت ١٥٢٤) الذى "قرأ فى بلاد العجم .. ولما دخل السلطان سليم إلى مدينة تبريز فى قتال شاه إسماعيل .. أخذه معه إلى بلاد الروم وعيَّن له كل يوم ثمانين درهماً لكنه اتُّهم بإغراء أحمد باشا على "الفتنة" وشجعه على الاتصال بالشاه وإظهار التشيُّع فى مصر. وإبراهيم العجمى (ت١٥٣٣) الذى "كان رفيقًا للشيخ دمرداش والشيخ شاهين فى الطريق على عمر روشنى .. ودخل مصر فى دولة ابن عثمان .. فحصل له القبول التامُّ وأخذ عنه خلق كثير من الأعجام والأروام ". ولما زاد " مريدوه

وأتباعه " أخذت السلطة العثمانية حذرها منه لا سيما بعد "قضية" الأردبيلى . وبعد الوشاية به وطلبه إلى إستانبول " رجع إلى مصر وطُرد من كان عنده من المُريدين والأتباع من التُّرك امتثالاً لأمر السلطان ثم بنى له تكية مقابل المؤيَّديَّة". ومن الواضح أن معظم هؤلاء كانوا من السُّنَّة والصوفية وأن الوجود الفارسى كان ملموسًا حتى إن محمد بن عبد الدائم " ربَّى خلائق كثيرة من العجم والمغاربة ، ومدار طريق القوم اليوم فى مصر على تلامذته". وعندما طُعن أحمد السطيحة (ت ١٥٣٥) كان طاعنه "فقيرًا عجميًا". وفى خضم الخوف من وجود جواسيس للشاه فى مصر فى مايو ١٥٢٢ " نُودى فى القاهرة بأن الغريب يعود إلى أهله وأن لا يُقيم بمصر غريب ، وكان سبب ذلك أُشيع أنهم قبضوا على شخصين من الأعجام زعموا أنهم جواسيس من عند إسماعيل". وقد استمر مجيء صوفية عجم إلى مصر بعدها وإن ضعف . ومنهم أبو العباس الموسوى (ت ١٧١٥) الذى وُصف بأنه "الإمام العلامة .. وكان صالحًا معتقدًا " ، وأبو المعز العجمى الوفائى (ت ١٧١٨) "خاتمة المسندين بمصر". وإلياس الكورانى الشافعى (ت ١٧٢٥) الذى تعلم بكوران " وحج ودخل مصر والشام وألقى بها عصا التسيار عاكفًا على قراءة العلوم العقلية والنقلية وكان على غاية من الزهد " (١٤٦) .

ترك التصوف الفارسى أثره فى مصر فى أمور منها سلسلة "الخلافة الروحية" للطرق التى عادت غالبًا إلى أصول فارسية وشيعية ، وفى انتشار الدراويش القلندرية والملامتية الذين بمثل ما انتشروا فى فارس

والأناضول [١٤٧] .. انتشروا فى مصر خلال العصر العثمانى وقبله [١٤٨] وفى التأثير الذى تركه عمر روشنى على المتصوفة المصريين. ونتيجة التأثُّر القديم والكبير للعثمانيين بالفرس [١٤٩] فإنهم كثيرًا ما شجعوا انتشار تلك الفرق الذى اختلط تصوفها بعقائد وحدة الوجود والحروفية والقلندرية والكلشنية والمولوية التى كانت شديدة الصلة بالملامتية وانتمى إليها بعض عِلية القوم أو قَربوا أتباعها ، ومنهم السلطان محمد الفاتح [١٥٠] والصدر الأعظم صوفى محمد باشا الذى تولى حكم مصر ١١- ١٦١٥ ولُقب بالصوفى "لمكوثه مدة طويلة فى تكية المولوية" [١٥١] التى جذبت فى مصر بعض المصريين ومنهم على العسيلى (ت بعد ١٥٦٥) وحسن الشبينى (ت ١٧٦٩)[١٥٢] ، بل إن المولوى سعودى (ت ١٥٩٥) الذى كان " يحذق الفارسية وشرح ديوان حافظ شرحًا متقنًا بارعًا ".. اشتغل بوظيفة " تعليم غلمان سلطان مصر إبراهيم باشا ". أما عبد الوهاب الهمدانى (ت ١٥٤٧) الذى كتب "ثواقب المناقب" بالفارسية مُختصرًا لـ "مناقب العارفين" أحد المصادر المهمَّة للمولوية.. فهاجر إلى مصر ومكث حينًا فى تكية المولوية مع العلم بأن المولوية كانت لها صلاتها مع الرفاعية والأحمدية والوفائية وكذا علاقتها القوية بالتشيُّع فى فارس والعراق ومصر[١٥٣] .

فى هذا الإطار أيضًا من التأثر بالتصوف الفارسى كان من الطبيعى أن نجد فى مصر مَنْ ألَّف فى علم الحروف مثل محمد البهنسى القادرى (ت بعد ١٥٨٥) ومن مؤلفاته " المفتاح بعض أسرار الكريم الفتاح

فى علمَى الخواصِّ والحروف". كذلك وجد فيها بعض الكلشنية مثل علىّ ابن إبراهيم المعروف بصفوتى (ت ١٥٩٧)(١٥٤). أما القلندرية فكانوا كُثُراً ومنهم هاشم الشريف (ت ١٥٤١) الذى "كان يحلق رأسه ولحيته وحواجبه". ومما يدل على وجودهم أن عبد الله الروزنامجى عندما تعرّض لإمكانية القتل على يد الباشا عام ١٧١٩ "وزّع ما يعزُّ عليه، وقصّ ذقنه ولبس لبس قرندلى يولداش، وخرج ملبس أخذه معه وما يحتاج إليه الأمر" حيث سافر إلى الشام. ووجود " الدراويش الأعاجم " الواضح بمصر فى القرن الثامن عشر تعكسه حادثة جركس بك نحو ١٧٢١ (١٥٥). بل إن تكية المولوية " بجوار قصر العينى" التى كانت واحدة من أكبر عشر تكايا فى الدولة العثمانية وعاش فيها أو زارها الكثير من الصوفية الأتراك وكانت "موقوفة على طائفة من الأعجام المعروفين بالبكتاشية" وتعرضت للإهمال حتى أُعيد بناؤها ١٧٨٦ بمساعدة من حسن باشا قبطان .. سُميت بـ " تكية الأعجام " (١٥٦)، وهو ما عبَّر عن نمو التأثير الفارسى" المولوى" فى مصر حتى على يد الأتراك (١٥٧) الذين توافدوا على مصر حتى قبل الغزو(١٥٨). وإذا كان البكرى عبَّر صراحة عن قوة العلاقة بين البكتاشية والإنكشارية، فإنه أشار إلى أنه "انتسب إليها فى زماننا بعض الملاحدة نسبة كاذبة " (١٥٩). أما " لين " فكتب إبان وجوده (٣٣ - ١٨٣٥) عن الوجود الملحوظ فى القاهرة للدراويش العجم الذين ينتمون إلى السُّنة ويرتدون أزياء متميزة ويمارسون التسول فى أثناء صلاة الجمعة، خصوصاً فى رمضان بجامع الحسين حيث " يتوافد إليه

الأتراك والفرس" ، واعتبرهم " تنطبق عليهم صفة الوقاحة أكثر من الدراويش المصريين القليلين". وقد أكد على حضور الصوفية الفُرس في مُحيط مسجد الحسين حين كتب عن الاحتفال بمولده يوم عاشوراء[١٦٠].
وإذا كانت الخلوتية انتشرت بشكل غير مسبوق مع القرن الثامن عشر وانتسب إليها العديد من المشاهير مثل محمد بن سالم الحفناوى (ت ١٧٦٧) وعبد الرحمن الجبرتى .. فعلينا أن لا نغفل أن الطريقة تعود فى نسبها إلى "القزلباشية" وعلى ابن أبى طالب ﷺ [١٦١]. وإذا كانت المولوية عُرفت فى مصر باعتبارها طريقة تنتسب إلى جلال الرومى.. فإننا لا يجب أن نغفل الأصل الفارسى لها ولشيخها وأنها كان لها وجود مهمٌ فى مصر. ومن أتباعها أحمد المولوى (ت ١٧٧٠) " شيخ المولوية بتكية المظفر .. الصالح ". وإذا كان المولوية قد ارتفع شأنهم فى عهد محمد على لا سيما بتأييدهم إياه فى صراعه مع المشايخ ، وتقريبهم إليه فى لحظاته الحزينة [١٦٢] ، فمن الواضح أن وجود بعض "الدراويش" أصبح غير مرغوب فيه آنذاك حتى اتُّهم بعضهم بتزييف العملة فى نوفمبر ١٨٣٧[١٦٣] .

من ناحية أخرى شهدت مصر تعدُّد ظهور من ادعى أنه "المهدى" [١٦٤] .. مما عكس تأثيراً ما للفكر الشيعى من خلال فكرة "المهدوية" الدالة على الخلاص الاجتماعى [١٦٥]. ففى عام ١٥٢١ ظهر شخص "من المشرق" ادَّعى أنه " المهدى المنتظر " وكان فى خدمته نحو خمسين شخصًا " من الأعاجم" [١٦٦] . وفى هذا الإطار تأتى قصة

حسن العراقي (ت نَيِّفًا وعشرين وتسعمائة) " نزيل مصر "ورؤيته للمهدى وخروجه بعدها فى رحلة امتدت لخمسين عامًا زار خلالها بلاد فارس [١٦٧] . وقد استمر ظهور ذلك فى فترات متباعدة حتى اعتبر البعض أن محمداً أبا الأنوار السادات هو " المهدى المنتظر " [١٦٨] . وفى عهد محمد على شهدت أسوان فى عام ١٨٢٣م ظهور " شخص يدّعى النبوة وآخر يدّعى المهدوية [١٦٩]. وقد حظيت القضية ببعض المؤلَّفات ومنها " تنبيه الوسنان إلى أخبار المهدى آخر الزمان " لأحمد النوبى (ت ١٦٢٧) و"القول المُحتضر فى علامات المهدى المنتظر" لرضى الدين الهيتمى (ت ١٦٣١) [١٧٠] .

٣ – **الصلات الثقافية** : تُعتبر الثقافة من وسائل التواصل بين الشعوب رغم العقبات . ورغم اعتقاد البعض بأن الخلافات المذهبية والصراعات السياسية والعسكرية بين بلاد فارس والدولة العثمانية أدت إلى نتائج منها "قطع" الروابط الثقافية [١٧١] .. ففى اعتقادنا أن هذا الرأى غير دقيق . وبعيداً عن إسهامات الفُرس المُهِمَّة فى الفكر الإسلامى إبان ازدهاره وما قيل عن انحطاط الفكر الفارسى فى العصر الصفوى [١٧٢] مثل ما قيل أيضًا عن الفكر المصرى فى العصر العثمانى ، ورغم الخلافات المذهبية وانعكاساتها السلبية .. فما يهمنا هو التأكيد على وجود صلات فكرية بين بلاد فارس والولايات العربية ، خصوصاً فى ظل تشابه نظم التعليم واستمرار الثقافة التقليدية ، والتواصل بين اللغات الفارسية والتركية والعربية. والمُرجَّح أن فارس لم تنعزل عن العرب

والعثمانيين ، وأفادها فى ذلك وضعها الجغرافى ونفوذ أدبها وثقافتها ، وكذا نفوذ اللغة العربية على اللغتين الفارسية والتركية [١٧٣]. وفى الإطار السابق لعبت الهجرة والرحلة دوراً ملحوظًا فى بقاء بعض الصلات بين الجانبين وتعددت أسبابها ومظاهرها ، وإن أصبحت أكثر وضوحًا من بلاد فارس إلى الدولة العثمانية [١٧٤] سواء لتلقِّى العلم أو لأسباب مذهبية ، وهو الأمر الذى شاركت فيه مصر بدور ملحوظ ، حتى كثر بها من كان لقبه " العجمى" [١٧٥] .

ومع أن وجود الفرس فى مصر لتلقى العلم ليس بجديد حيث احتضن الأزهر بعضهم قبل الغزو العثمانى [١٧٦] .. فمن الواضح أن هذا الوجود استمر رغم الخلاف المذهبى ، بل وبسببه . وفى هذا الإطار شهدت بدايات العصر العثمانى تولى بعضهم للوظائف فى مصر . وفى يناير ١٥٢٠ كان " من الحوادث أن ملك الأمراء عزل الشرفى يحيى بن التاج عن مشيخة حضور الجامع المؤيدى واستقر بشخص من أبناء العجم .. وكان ذلك الشخص عارياً عن العلم والفضيلة ليس له شهرة .. فقامت الأشلة على ملك الأمراء من العلماء والفقهاء وأنكروا عليه ذلك" [١٧٧] . وممن قدم مصر من العجم لتلقِّى التعليم إبراهيم الكورانى الشهرزورى (ت ١٦٨٩) وعلى العربى الفارسى المصرى الشهير بالسقاط (ت ١٧٦٩)[١٧٨] وعبد السلام الأزرجانى (ت ١٧٧٨)[١٧٩] . وفى المقابل رحل بعض الأتراك والعرب إلى فارس إما فى سبيل التعلم بخاصة حتى أوائل القرن السادس عشر[١٨٠] ، وإما لنشر المذهب الشيعى الذى واجهت الصفويين

فى البداية مشكلة نُدرة كُتبه وقلة مُعلِّميه ، لذا دعا الشاه إسماعيل بعض العلماء الشيعة من العرب وأغلبهم من البحرين وجبل عامل والعراق، حيث تولى بعضهم مناصب مهمة وتركوا أثرًا كبيرًا ، ومنهم على الكركى العاملى (ت ١٥٣٤م) الذى صار موضع احترام الشاه واهتمامه واشتهر بـ" المُحقق الثانى" وأسس "ولاية الفقيه" وكتب أعمالاً كثيرة ومُؤثرة عن المشكلات التى خلقها للدولة تبنِّى المذهب الشيعى (١٨١) . ومنهم بهاء الدين العاملى (ت ١٦٢٢) (١٨٢) الذى يعتبر من أكبر العلماء الذين بعثوا على جلال الشاه عباس الأول وشوكته وكانت له إسهاماته المُهمة فى العلوم الشرعية وبخاصة كتابه" جامع عباسى" (١٨٣) . وقد زار العاملى مصر ومدحها ومدح أحد أهم شيوخها ، محمد البكرى الصديقى (ت ١٥٨٥) ، بقصيدة تحمل بعض المعانى المهمة فى موضوعنا لا سيما وأنها تعكس فى بعض الأحيان احترامه لأبى بكر ﵁ وذريته (١٨٤) ومن ثم السُّنة . ورحلة العاملى الراغب فى "الفقر والسياحة" (١٨٥) تعكس أيضًا رؤيته لقضايا الوطن . وعنده أن الوطن الذى تحدث عنه الرسول ﷺ ليس مصر أو العراق أو الشام لأن هذه الأوطان كلها من الدنيا. ومن الواضح أن هذه النظرة أملتها عليه أفكاره الدينية المُعتدلة وظروف حياته التى عاش معظمها متنقلاً بين البلاد الإسلامية وكتابته بالعربية والفارسية. ويمكن القول إن سياحته أثرت فى آرائه وأبعدته عن الانغماس فى المذهب وجعلته يتأثر بشكل غير مباشر بآراء أهل السُّنة (١٨٦). على أن

العاملي وجد في مصر من يهجوه [١٨٧] ، بل ولقد أشار العاملي إلى عدم رضاه عن نفسه [١٨٨] .

ويمكن القول بندرةٍ من أتقنوا الفارسية في مصر في العصر المملوكي حتى إن الغوري عندما تسلم رسالة الشاه عام ١٥١١ وكانت "باللغات الأعجمية فأحضروا من قرأها وهو شخص شريف يقال له الشيخ حسين من أبناء العجم" [١٨٩]. وهكذا انتشرت مقولة "اللسان الأعجمي" للإشارة إلى الصوفية الذين يتحدثون لغة غير مفهومة [١٩٠] . على أن العصر العثماني شهد تطوراً ملحوظًا في الأمر ، خصوصاً في ظل وجود بعض الباشوات[١٩١] وكبار الموظفين ممن يتقنون الفارسية [١٩٢] ، بالإضافة إلى وجود بعض العجم ، ومن ثم فمن الوارد أن من عرفوا الفارسية من المصريين زاد حتى أتقنها البعض ومنهم محمد الدروري (ت ١٦٥٦) الذى "كان يُجيد الفارسية والتركية "، وعبد القادر البغدادي المصري (ت ١٦٨٢) الذى كان عارفًا بالآداب التركية والفارسية . بل ولقد ألَّف بعضهم عنها أو كتب بها بعض كتاباته ومنهم يوسف الجابري (ت ١٧٦٦) الذى "قرأ النحو واللغة الفارسية .. ودرس في مدرسة الإسكندرية "[١٩٣] ، ومحمد السكندري (ت ١٧٦٩)" الكاتب الماهر.. العارف بالألسن الثلاثة العربية والفارسية والتركية وكان لديه محاورات ولطائف ، ورسائله في الألسن الثلاثة غاية في الفصاحة مع حسن خط ووفور حظ ، "وروى الجبرتي أنه رأى بخط يده " كتاب بهارستان لمولانا جامي قد أحسنَ في كتابته وأتقنَ في سياقه ومجموعًا فيه النوادر من

أشعار الألسن الثلاثة ". أما حسن الجبرتي (ت ١٧٧٢) "فحفظ اللسان الفارسي والتركي حتى إن كثيراً من الأعاجم والأتراك يعتقدون أن أصله من بلادهم لفصاحته في التكلم بلسانهم ". أما مرتضى الزبيدي (ت ١٧٩٠) فمما تميز به أنه كان " يعرف التركية والفارسية". وأما حسن الموصلي (ت ١٨١٥) " فعرف الكثير من الألسن واللغات" (١٩٤) . وفي عهد محمد علي تم الاهتمام بالفارسية حتى كانت إحدى اللغات الثلاثة (إلى جانب العربية والتركية) المعتاد تعلمها في المكاتب والمدارس (١٩٥) ، بل وأشار قنصل نابولي عام ١٨٢٩ إلى وجود مدرسة متخصصة لتعليمها في القاهرة (١٩٦) .

في هذا الإطار انتشرت بعض المصطلحات الفارسية في مصر منذ فترة مبكِّرة ، شأنها شأن بقية الولايات العربية (١٩٧) وظهر بين المصريين من اهتم بالثقافة الفارسية. ويُعتبر ما كتبه عبد الله الإدكاوي (ت ١٧٧٠) نموذجًا ، فبالإضافة إلى تأليفه بعض الأشعار التي كان معناها " منقولاً من الفارسية".. كتب في تضمين "مصراع" فارسي (١٩٨). كما كان هناك من اقتنى كُتبًا بالفارسية ومنهم علي ابن عبد الله (ت ١٧٦٢) الذي " اقتنى كُتبًا نفيسةً .. من جملتها البُرهان القاطع للتبريزي في اللغة الفارسية على هيئة القاموس "، وحسن شقبون (ت ١٧٩٠) الذي "حاز شيئًا كثيراً من الكتب النفيسة والتي بخط الأعاجم والفارسية والخطوط التعليق المُكلفة والمُذهَّبة والمُصوَّرة مثل كليلة ودمنة وشاهنامة وديوان حافظ والتواريخ التي من هذا القبيل ..

الغالية الثمن النادرة الوجود" (١٩٩). ولعل ما ورد من ترجمات لبعض العجم ومؤلفاتهم فى الكتابات المصرية لما يعكس نوعًا من الوعى بهم وأحيانًا اعترافًا بفضلهم . وقد أوردت الوقائع " أن اليوزباشى محمود خليفة أفندى المتخرج فى مدرسة الألسن .. ألَّف رسالة تشتمل على مفردات اللغات الثلاث العربية والتركية والفارسية " حيث صدر الأمر " بطبع ما يلزم منها على نفقة الميرى وإعطاء الأفندى المومى إليه ربحها ليحصل بذلك على السرور وينال الحظ الموفور " (٢٠٠) .

وإذا كانت بلاد فارس فى العصر الحديث قد شهدت اهتمامًا واضحًا فى التأليف والنظم فى مدح آل البيت فى إطار "الشعر المذهبى" (٢٠١) .. فإن ذلك كان له شبيه فى مصر خصوصًا حُب آل البيت وهو ما اتضح فى الكثير من المؤلفات. وهكذا ألَّف عبد الرحمن العيدروسى (ت ١٧٧٨) " عقد الجواهر فى فضل آل بيت النبى الطاهر ". وممن كتبوا القصائد فى مدح آل البيت محمد السيوطى (ابن الصلاحى) (ت ١٧٦٦)(٢٠٢) والأديب الشاعر عبد اللّه الإدكاوى (ت ١٧٧٠) ومحمد بن سالم الحفناوى الخلوتى (ت ١٧٦٧) الشريف الحسينى الذى ينتهى نسبه من ناحية أمه إلى الإمام الحسين وحظى بشهرة فى التصوف الفلسفى ، ومن أشعاره :

لو فتشوا قلبى لألفوا به سطرين قد خُطَّا بلا كاتبِ

العلم والتوحيد فى جانبٍ وحُب آل البيت فى جانبِ (٢٠٣)

ونعتقد أن الوجود القوى للأشراف/ آل البيت فى مصر آنذاك[٢٠٤] ربما أوجد قدراً من الصلات بين مصر وفارس ، لا سيما فى ظل وجود آل وفا وأتباع طريقتهم[٢٠٥] . بيد أن " التسامح" فى مصر تجاه الفُرس لم يقترن بالتشيُّع كما اعتقد البعض [٢٠٦] ، ولا نكاد نعثر فى مصر على أشخاص من أصول فارسية احتفظوا بمذهب التشيع ، على عكس ما حدث فى مناطق أخرى كالشام [٢٠٧] . ورغم شهرته الهائلة فى الطب اتُّهم داود الأنطاكى بأنه " على مذهب الحكماء ومشرب الندماء، ولذا كثر اللغط فيه " حتى ترك مصر . ومع أن الخفاجى نعت العاملى بأنه "الفارسى منشأً ومولداً " وأنه " كان رئيس العلماء عند عباس شاه ".. فإنه أتبع ذلك بالقول : " إلا أنه لم يكن على مذهبه فى زندقته وإلحاده لانتشار صيته فى سَداد دينه ورشاده". والأهم قوله : " إنه علوىٌ بلا مَيْن وهو عند العقلاء أهون الشرين ، فإنه أظهر غُلوَّه فى حب آل البيت .. وأنشد لسان حاله :

إن كان رفضًا حب آل البيت   فليشهد الثقلان أنى رافضى[٢٠٨]

والخلاصة أن مصر وبلاد فارس ربطتهما بعض الصلات الاقتصادية والثقافية والدينية (الصوفية) غير الرسمية فى الأساس بل وغير المُباشرة أحيانًا ، وذلك بسبب الخلافات السياسية. ونستطيع القول بأنه إذا كانت تلك الصلات قد شهدت معالم إيجابية جديدة منذ

القرن الثامن عشر بسبب التطورات السياسية هنا وهناك .. فإن التحول الأهم حدث فى عهد محمد على ، إما لسياسته التى تراجعت فيها قيمة الخلافات المذهبية والدينية لمصلحة صالح البلاد كما رآه ، وإما لحصول مصر على قدر مهم من الاستقلال فى إدارة أمورها الخارجية ، وإما لأن الدولة العثمانية نفسها بدأت فى النظر بشكل جديد إلى علاقتها مع بلاد فارس .

* * *

الهـــوامش

(١) تباينت المسمّيات قبل القرن العشرين وإن مالت الأكثرية إلى مُسمى بلاد فارس ما دامت لم توجد دولة قومية إيرانية في سكانها ولغتها وحكامها. ورغم الاتفاق على أن العصر الصفوى كان مرحلة جديدة في تاريخ البلاد ، فإنه لا يعنى بروز قومية إيرانيه. وقد استمر المصطلح مُستخدمًا سياسيًا وعلميًا حتى ١٩٣٥ عندما عمم رضا بهلوى اسم إيران تأكيداً لفكره القومي. بطروشوفسكي : الإسلام في إيران ، ت: د. السباعى محمد السباعى ، القاهرة ، دار الثقافة ، ١٩٨٢، ص٣٧٣ . ت. كويلر ينج (محرر) : العلاقات الداخلية والخارجية في إيران ، في : الشرق الأدنى : مجتمعه وثقافته ، ت : د. عبد الرحمن أيوب ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠٢ ، ص٢٤١ . عبد العزيز نوار: الشعوب الإسلامية في التاريخ الحديث ، مكتبة سعيد رأفت ، د.ت.ط. ص٢١٣ – ٢١٥ .

(٢) في أثناء الحكم المغولي الإيلخاني ١٢٦٥ – ١٣٣٧م لفارس تمت بعض المحاولات للاتفاق مع البابا وبعض ملوك أوروبا لعقد حلف ضد المماليك . ورغم تحسن العلاقات نسبيًا بعد تحول تكودار ٨٢ – ١٢٨٤ للإسلام .. فإن عهد خليفته غازان (ت ١٣٠٤م) شهد مرحلة جديدة من الصراع لا سيما وأن ميوله كانت شيعية ، بل ومات كمداً بعد هزيمته أمام المماليك في مرج الصفر. وفي الفترة من ١٤٠٥ إلى ١٥٠٢ شهدت بلاد فارس اضطرابات عديدة وفوضى ، وسيطرت قوى مختلفة أهمها أسرتا القره والآق قوينلو . إدوارد براون : تاريخ الأدب في إيران ، ج ٣ ، ت : محمد علاء الدين منصور ، المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠٠٥ ، ص٣٣ ، ٤١ ، ٥٤ – ٥٨ ، ٦٦ ، ٤١٩ .

(٣) يُنسب الصفويون إلى صفى الدين الأردبيلى (ت ١٣٣٤م) الذى قيل بانتسابه إلى الإمام موسى الكاظم ، وكان من مشايخ الصوفية وله مريدون بأردبيل وغيرها ، بل واعتقده بعض

الأمراء وأهدوه . ورغم كونه شافعيًا معتدل التصوف .. اعتنق أحفاده التشيع فى القرن الخامس عشر . وبينما عانت فارس إبان حكم الآق قوينلو من حروب المطالبين بالعرش.. نمت قوة أحفاد صفى فى أردبيل حتى كان إبراهيم (ت ١٤٤٧) حاكمها الفعلى على ما يبدو. أما جنيد بن إبراهيم (ت ١٤٥٩) فجمع أتباعًا بالغوا فى مكانته الروحية وشكل قوة قادرة على العمل ، الأمر الذى أقلق أمير القره فنفاه عام ١٤٥٦ . وفى ديار بكر رحب به أوزون حسن زعيم الآق باعتباره عدواً للقره وزوّجه أخته لكنه قتل فى أثناء إغاراته على شروان. تابع حيدر نشاط أبيه وتزوج ابنة حسن وجمع أعوانًا ممن اعترفوا به مرشداً حتى قُتل عام ١٤٨٨ . استولى يعقوب الآق وينلو على أردبيل بعد موت حيدر وقبض على أبنائه ومنهم على . وعندما تولى رستم الحكم ٩٢ – ١٤٩٨ أعاد عليًا إلى أردبيل للاستفادة منه ضد أعدائه لكنه تخلص منه سريعًا لخوفه منه . وفى ١٤٩٥ ساعد القزلباش إسماعيل على الاختفاء فى وقت ساءت فيه أوضاع الآق قوينلو بسبب الحرب الأهلية التى انتهزتها العشائر القزلباشية فهاجمت أردبيل عام ١٤٩٩ ومكنت إسماعيل منها ، فاستولى بعدها على شماخى وبادكويه ، ثم توج نفسه على عرش فارس فى تبريز ١٥٠٢ . بطروشوفسكى : مرجع سابق ، ص٣٦٠ – ٣٧١ . براون : مرجع سابق، ج ٣ ، ص ٤٥٦ – ٤٦١ . ج٤ ، ص١٣، ٢٧ . د. عباس إسماعيل صباغ : تاريخ العلاقات العثمانية الإيرانية ، دار النفائس ، بيروت ، ١٩٩٩، ص٣٩ – ٤٢ ، ٨٩ ، ١١٣ .

(٤) تدرجت معرفة المماليك بالصفويين حتى ظهور إسماعيل حين بدأت سوريا تعانى من جراء الدعاية المؤيدة له . ففى سنة ١٥٠٠ أثار السهروردية الاضطراب فى البيرة . وفى ١٥٠١ تحولت ذكرى استشهاد الحسين فى دمشق إلى شغب عندما أظهر عامة الشيعة شعائرهم بشكل أثار غضب السُّنة ، ومن ثم ساءت صورة الشاه الذى رغم تبنيه عام ١٥٠٢ سياسة حذرة واسترضائية تجاه القاهرة ، فإن سياسته هذه انتهت مع نجاحاته فى "البلاد الحلبية" وضعف الدولة المملوكية ، فبدأ فى الادعاء بأن دولته ند للدولة المملوكية بل ومتفوقة عليها. W.W. Clifford; Some Observations on the Course of Mamluk-Safavi Relations (1502-1516) in; Der Islam, Band 70, 1993, Berlin, 1973, pp.245-250,263- 265,274.

(٥) يوسف الملوانى : تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب ، تحقيق : عماد هلال وعبد الرازق عيسى ، القاهرة ، دار العربى ، ٢٠٠٠ ، ص ١٧٧ . براون :

مرجع سابق ، ج ٤ ، ص ٥٩ -٦١ . د. صالح العابد : العراق بين الاحتلالين المغولى والصفوى ، فى : العراق فى التاريخ ، دار الحرية ، بغداد ، ١٩٨٣، ص ٥٦٤ .

(٦) فى صفر ٩٠٨ هـ" جاءت الأخبار .. أن خارجيًا تحرك على البلاد يُقال له شاه إسماعيل" وهنا " اضطربت الأحوال وجمع السلطان الأمراء وضربوا المشورة .. وعيّن.. تجريدة " . وسرعان ماجاءت الأخبار " بأن عسكر الصوفى رجع إلى بلاده وخمدت فتنته وبطل أمر التجريدة " . محمد بن أحمد بن إياس الحنفى : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، تحقيق : محمد مصطفى ، ج ٤ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٤ ، ص ٣٩ .

(٧) فى رده على رسالة بايزيد (سبتمبر ١٥٠٢) تحدث رستم بك عن أن "القزلباش" فى طريقهم إلى عقد الوحدة مع مصر ومعاداة العثمانيين بعد هزيمتهم ألوند ومراد الآق قوينلو . براون : مرجع سابق ، ج٤ ، ص٧٠ .

(٨) ابن إياس : بدائع ، ج ٤ ، ص ١١٨ – ١٢٢ .

(٩) Clifford; op.cit. pp.250-253,255-257, 265,274 .

(١٠) ابن إياس : بدائع ، ج ٤ ، ص ١٢٣ ، ١٤٢- ١٤٦ ، ١٨٤ . د. عباس صباغ : مرجع سابق ، ص ٣٥ .

(١١) فى جمادى الأولى ٩١٦ وردت الأخبار بقبض الشريف بركات على ثلاثة أشخاص "تحقق أنهم فرنج وأنهم جواسيس من عند بعض ملوك الفرنج . وفيه وردت الأخبار بقبض نائب البيرة على "جماعة" من عند الشاه. وفى ذى القعدة عرضوا على السلطان قناصل الفرنجة " فلما وقفوا بين يديه وبّخهم .. ووعدهم بالشنق " بسبب رسالة نائب البيرة بقبضه على جواسيس من طرف الشاه " وعلى أيديهم مكاتبات إلى القناصل بأن يكاتبوا ملوك الإفرنج بأن يأتوا فى مراكب من البحر وأن يزحف هو ومن معه من العساكر من البر على سلطان مصر وعلى ابن عثمان .. فانكشف أمرهم وافتُضحوا فى هذه الواقعة " . ابن إياس : بدائع ، ج ٤ ، ص ١٩١ ، ٢٠٥ .

(١٢) د. محمد السعيد عبد المؤمن : الأدب فى العصر الصفوى ، القاهرة ، ١٩٨٤، ص ٧٧ .

(١٣) Clifford; op.cit.pp.262- 265 .

(١٤) وقد كتب ابن إياس أن الشاه " كان لما حز رأس أزبك خان ملك التتار جعل جمجمة رأسه كأسًا يشرب فيها الخمر في المقامات كما قيل عنه ". ابن إياس : بدائع ، ج ٤ ، ص ٢٠٧ ، ٢١٩ - ٢٢٢ ، ٢٣٠ . ولقد جاء البيتان كما يلي :

السيف والخنجر ريحانتنا أفٍّ على النرجس والآسِ

مُدامنا من دم أعدائنا وكأسُنا جمجمة الراسِ

(١٥) ابن إياس : بدائع ، ج ٤ ، ص ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٧ ، ٢٦٢ ، ٢٦٥- ٢٧٢ ، ٢٨٩ ، ٣٢٤ .

(١٦) المصدر السابق ، ص ٣١١ ، ٣٧٢ - ٣٧٨ ، ٣٨١- ٣٨٨ ، ٣٩٠-٣٩٥ .

(١٧) كان سليم قد أرسل إلى الغوري " يخبره بما فعل علاء الدولة ، فأجاب الغوري بأن علاء الدولة عاصي أمري ، فإن قدرت عليه فاقتله.. ثم كتب الغوري مرسومًا وأرسله خفية إلى علاء الدولة يشكره على ما فعله ويُغريه على قتال السلطان سليم ولا يمكِّنه من شيء أبدًا . وكان قصد الغوري إلقاء الفتنة بين الاثنين رجاء أن يُقتل أحدهما أو كلاهما فيكتفي شرهما فإنه كان يعرف شدة بأس كل منهما ". أحمد بن زنبل الرمال : واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني ، تحقيق : عبد المنعم عامر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٧ ، ص ٢٢ ، ٢٣ .

(١٨) في محرم ٩٢١ وصل القاهرة قاصد عثماني بمكاتبة فيها " أن شخصًا من أولاد شاه سوار.. حصل بينه وبين عمه على دولات تشاجر بسبب بلاد أبيه فحنق منه وتوجه إلى ابن عثمان فتعصب له سليم .. وأرسل يسأل السلطان في أن يعطي ابن سوار بلاد أبيه .. فلم يوافق .. وتنكد إلى الغاية .. وربما تتسع هذه الفتنة .. وأشيع .. أن ابن عثمان أمد ابن سوار بعساكر وتوجه على حين غفلة وكبس على عمه.. وأن على دولات اختفى .. وأن ابن عثمان ما هو راجع عن على دولات .. وأن ابن عثمان أظهر في مكاتبته .. للسلطان غاية العظمة وقال فيها إن مقامنا الشريف وقال في حق السلطان مقامكم العالي ". وقد عاب ابن إياس تصرف سليم . ابن إياس : بدائع ، ص ٣٩٣ ، ٣٩٥ ، ٣٩٨ -٤٠٤ ، ٤١١ ، ٤٣٢ ، ٤٣٥ .

(١٩) في ٩ ربيع الآخر ٩٢٢هـ " حضر .. العجمي الشنقجي نديم السلطان .. وقد أبطأ مدة طويلة حتى أشاعوا موته .. فظهر أن السلطان كان أرسله إلى الشاه .. في الخفية في خبر سر ". وذكر ابن طولون في أسباب الحرب أن سليم " اطَّلع على مطالعات من

سلطاننا إلى الخارجي .. يستعينه على قتال ملك الروم ". ابن إياس : بدائع ، ج ٥ ، ص ٣٥ . شمس الدين محمد بن طولون : مفاكهة الخلان فى حوادث الزمان ، القسم الثانى ، تحقيق : محمد مصطفى ، المؤسسة المصرية للتأليف ، القاهرة ، ١٩٦٤، ص٢٣ .

(٢٠) بسبب تقاطع المصالح والخلافات المذهبية استمرت شكوك الغورى فى الجانب الصفوى وأراد استعادة إمارة ذى القدر من العثمانيين دون مساعدة الشاه الذى فشلت محاولات مبعوثى الغورى لإقناعه بالتخلى عن دعاواه السياسية والدينية. د. عباس صباغ : مرجع سابق ، ص ١٥٤، Clifford; op.cit. pp.248,271-273.

(٢١) ابن إياس : بدائع ، ج ٤ ، ص ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٤٥ ، ٤٥٨ ، ٤٦٢– ٤٦٧ . ج ٥ ، ص ٢٢ . ومن الجدير ذكره أنه فى ١٤جمادى الأولى ٩٢١ وصلت الغورى أخبار هزيمة العثمانيين لعلى دولات وقتله " فلما سمع هذا الخبر تنكد له إلى الغاية ثم أرسل خلف الأمراء .. وضربوا مشورة فى ما يكون من أمر هذه الواقعة ". وفى ٢٥ جمادى الآخرة "حضر قاصد ملك الروم .. فلما مثل بين يديه أحضر صحبته رأس على دولات ورأس ولده ورأس وزيره فى علبة. فلما أحضروا .. بين يدى السلطان شق عليه ذلك وقال: إيش أرسلى هذه الرءوس هى رؤوس ملوك الفرنج انتصر عليهم .. فانفض الموكب فى ذلك اليوم والسلطان والأمراء فى غاية الاضطراب ".

(٢٢) عن "ألاعيب" سليم السياسية واستخدامه للدين والمشايخ ، انظر: ابن إياس : بدائع ، ج ٥ ، ص ٦٠ – ٦٤ ، ٦٧ . محمد بن أبى السرور الصديقى البكرى : التحفة البهية فى تملك آل عثمان الديار المصرية ، تحقيق : د. عبد الرحيم عبد الرحمن ، دار الكتب والوثائق ، القاهرة ، ٢٠٠٥ ، ص٥٤ . د. محمد صبرى الدالى : المشايخ والغزو العثمانى لمصر ، طوكيو ، سلسلة دراسات الحضارة الإسلامية ، عدد ٢٢ ، ٢٠٠١ ، ص ٤٢ – ٤٧ .

(٢٣) Andrew C.Hess; The Ottoman Conquest of Egypt (1517) and the bigining of the Sixteenth - Century World War, International Journal of Middle East Studies, Cambridge University Press, Vol 4, No. 1, 1973, p.55.

(٢٤) رغم التنافس جنوب شرق الأناضول كان التحالف مع المماليك جزءًا مهمًا من الاستراتيجية العثمانية ضد التوسع الصفوى . على أن المماليك ، رغم بعض المعطيات الإيجابية ، لم يُظهروا فى تلك الظروف الفارقة أى تعهد لإستانبول . شهدت المفاوضات نشاطًا مهمًا منذ ١٥٠٧ خصوصًا مع انتصار الشاه على علاء الدولة وسيطرته على ديار بكر ومحاولاته للتحالف مع قوى بحرية غربية ضد المماليك والعثمانيين. وفى هذا الإطار أصبح المماليك منذ عام ١٥٠٨على استعداد للتعاون طويل الأمد مع العثمانيين. ورغم الحماسة المبدئية بدأ العثمانيون تدريجيًا فى تقدير محدودية تعاونهم مع المماليك خصوصًا بعد ما أبداه علاء من تمرد على المماليك وما أظهره مرارًا من قدرة فى الدفاع عن الممر الاستراتيجي وسط الفرات ضد القزلباش . على أن هزيمة علاء عام ١٥٠٧ على يد الصفويين ربما شجعت العثمانيين للاعتماد على ترتيب دفاعاتهم الذاتية لمقاومة توجه الشاه غربيًا ، وهى السياسة التى ستؤدى عام ١٥١٥ إلى ضم العثمانيين لإمارة إلبستان ، مما جعل علاء يتحول سريعًا إلى الصفويين . وهكذا فقد أعطت الاستخبارات العثمانية سليم سببًا للاعتقاد بأن علاء ، إنقاذًا لحكمه ، قَبِل الحماية الصفوية. د. عباس إسماعيل صباغ : مرجع سابق، ص ٣٥ ;Clifford . op.cit. pp. 254, 266 -271

(٢٥) يتضح البُعد السياسى فى الصراع من ثورة القزلباش ١٥١٢/١١م جنوب الأناضول بقيادة شاه قلى . ومع أن أكثرية القزلباش التابعة للشاه كانت من الأناضول وتحمل فكرًا شيعيًا بما يعنى ضرورة مُساندته لهم ، فإن هذا لم يحدث واستطاع جيش بايزيد قمعهم وتفريقهم وقتل نحو ٤٠ ألفًا منهم دون تدخل من الشاه الذى استقبل بفتور من هرب منهم إلى دولته بل وقتل جماعة منهم فى تبريز. ويفسر البعض سلوك الشاه بأنه أراد أن يُظهر نفسه أمام بايزيد مُحايدًا وبريئًا من تحريض الثوار ، كما لم يكن راغبًا فى قطع العلاقة مع بايزيد الذى كان بدوره غير راغب فى محاربة الشاه. ويرى البعض أن السبب يتمثل فى أن عددًا من غُلاة شيعة آسيا الصغرى كانوا يمثلون معتقدات الطبقات الدنيا ، وكان الشاه نفسه وكذلك قادة القزلباش يخشون موافقتهم لأسباب اجتماعية ومذهبية . براون : مرجع سابق ، ج ٤ ، ص ٧١ . بطروشوفسكى : مرجع سابق ، ص ٣٧٦ .

(٢٦) الملواني : مصدر سابق ، ص ١٧٧ ، ١٧٩ . د. عبد العزيز نوار : الشعوب ، ص ٢٢٤- ٢٢٦ .

(٢٧) ابن إياس : بدائع ، ج ٥ ، ص ١٨٠ ، ٢٥٢ ، ٢٧٣ . البكرى : التحفة ، ص ٩٤ . هذا وإن ذكر البعض أن الرسالة كانت تتضمن الصلح ، لكن سليم اعتبرها خدعة " حتى يثنى عزمى عن مُلاقاته ، ثم يطرقني على حين غفلة كما فعلت مع السلطان الغورى " . د. عباس صباغ : مرجع سابق ، ص ١٧٨ .

(٢٨) فى رمضان ٩٢٦ "خنق النائب بحبس باب البريد ترجمان الإفرنج الجعبرى" بسبب ما قيل عن أنه " أظهر عليه محضراً فيه أنه أرسل إلى إسماعيل شاه بعض آلات حرب من دمشق ". ابن طولون : مفاكهة ، ص١٢٠ .

(٢٩) رغم تزامن وصول البرتغاليين مع توسع الدولة الصفوية مما جعلها نظريًا قوة المُجابهة الأولى لهم كإحدى القوى الكبرى بالمنطقة ومحاذاتها لمنطقة عملياتهم بالخليج والتى هددت المصالح التجارية الصفوية .. آثر الشاه التحالف مع البرتغاليين والتضحية بهرمز : برفضه مساعدتها حين طلبت ذلك منه ، وبمراسلاته منذ البداية مع البرتغاليين ثم مباحثاته معهم منذ ١٥١٠م والتى انتهت بأن عرض ألبوكيرك صيغة للتحالف أبرز نقاطها أن يهاجم الشاه المماليك براً بينما يقوم البرتغاليون بمهاجمتهم بحراً وكذا مهاجمة القدس كما أعطى تعليمات لسفيره ليبلغ الشاه أنه عندما يقرر مهاجمة مكة وجدة عدن والبحرين والقطيف والبصرة وسواحل الجزيرة براً ، سيقوم ألبوكيرك بمهاجمة هذه الأماكن بحراً. وقد فشلت محاولات الشاه وانتهى الأمر بإخضاع البرتغاليين لهرمز عام ١٥١٥ ، بل وذهب ألبوكيرك بنفسه إلى الجزيرة للتعامل مع الخطر الصفوى واستكمل تلك السيطرة عامى ١٥٢٢و ١٥٢٣ . وهكذا فبينما كان البرتغاليون يخشون تكوين جبهة إسلامية قوية ضدهم ، فإن الشاه تعاون معهم . وفى هذا الإطار يمكننا فهم ما أورده ابن إياس فى محرم ٩٢٨ عن قتل البرتغاليين للأمير مُقرن أمير بنى جبر " مُتملك جزيرة بين النهرين إلى بلاد هرمز". ابن إياس: بدائع ، ج ٥ ، ص ٤٣١ . د. عصام سخنيني : مملكة هرمز : أسطورة الخليج التجارية، دبى ، ١٩٩٧، ص٦٧ – ٧٨ ، ٨٠ ، ٨٦ – ١٠٠ ، ١٠٧ –١١٠ .

(٣٠) براون : مرجع سابق ، ج ٣ ، ص ١٦ ، ٤٤٨ ، ٤٥٤ . Andrew C.Hess; op.cit, pp.60-65,68 .

(٣١) كمثال على ذلك قيام خاير بك فى رجب ٩٢٤ بشنق تاجر عجمى طمعًا فى ماله حيث "زعم أنه جاسوس .. حضر ليكشف عن أخبار مصر وأحوالها ويطالع الصوفى بذلك ، فشنقه ظلمًا واحتاط على جميع أمواله " ولقد تكرر ذلك فى الشام . ابن إياس : بدائع ، ج ٥ ، ص ٢٦٣ . ابن طولون : مفاكهة ، ص ٧٤ ، ٨٢ .

(٣٢) ففى ٢٠ جمادى الآخرة ٩٢٤ "وقعت حادثة مهولة " تتمثل فى أن خاير بك "عين جماعة من الإنكشارية والأصبهانية بأن يسافروا إلى الخنكار بحلب صحبة مصلح الدين ، فلما قصد .. السفر هربت الإنكشارية والأصبهانية .. وكسروا أبواب القلعة ونزلوا منها على حمية ". ابن إياس : بدائع ، ج٥ ، ص ٢٥٥ ، ٤٥٧ .

(٣٣) فى ربيع الآخر ٩٢٣ أمسك الأمير داود " نائب غزه دولتباى .. وهو متوجه إلى الخارجى .. ومعه جماعة و .. ثمانون ألف دينار". وفى رمضان ٩٢٥ " أشيع بين الناس أن قاسم الشروانى نائب جدة جمع المال الذى تحصل .. وأخذ المكاحل .. والسلاح ونزل فى مراكب وتوجه نحو بلاد هرمز " وعندما أعلن الغزالى العصيان عام ٩٢٧ وانتهى الأمر بقتله راجت الإشاعات وشكك البعض فى قتله ورددوا " أنه هرب إلى عند الصوفى". وفى رمضان ٩٢٨ راجت الأخبار عن قتل سليم لابن سوار غدرًا لما بلغه من أنه " التف على شاه إسماعيل وصار يكاتبه فى الدس ". ابن إياس: بدائع ، ج ٥ ، ص٣١٢ ، ٣٢٢ ، ٣٤٢ ، ٤٢٣ ، ٤٧٢ . ابن طولون: مفاكهة ، ص٦١ .

(٣٤) مثل إبراهيم العجمى (ت ١٥٣٣م) الذى "وشى به إلى السلطان لكثرة مريديه .. وقيل له " نخشى أن يملك مصر" وانتهى الأمر بطلبه إلى إستانبول ، وبعد عودته "طرد من كان عنده ". أحمد شلبى عبد الغنى : أوضح الإشارات فيمن ولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات ، تحقيق : د.عبد الرحيم عبد الرحمن ، مكتبة الخانجى ، القاهرة ، ١٩٧٨، ص ١٠١- ١٠٤ . نجم الدين الغزى : الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة ، تحقيق : جبرائيل سليمان جبور، دار الآفاق ، بيروت ، ١٩٧٩ ،ج ١، ص ١٥٦ - ١٥٩ ، ٢١٦ ، ج ٢ ، ص ٨٤ .

(٣٥) أورد الجبرتى أن سليم أقر شمسى باشا العجمى على ما كان عليه لأنه كان صديق والده "ولا يخفى ما بين آل عثمان والعجم من العداوة المحكمة كالأساس" فإن العجمى كانت له " مداخل عجيبة وحيل غريبة يلقيها فى قالب مُرْضٍ .. فقصد أن يدخل شيئًا مُنكرًا يكون سببًا لخلخلة دولة آل عثمان ". وهكذا " لما تمكن من مصاحبة

السلطان قال له على سبيل العرض عبدكم فلان المعزول .. قصده من فيض إنعامكم عليه المنصب الفلانى ويدفع إلى الخزينة كذا ". علم سليم "أنها مكيدة منه وقصده إدخال السوء بيت آل عثمان فتغير مزاجه وقال له يا رافضى تريد أن تدخل الرشوة بيت السلطنة حتى يكون ذلك سبباً لإزالتها! وأمر بقتله" على أن شمسى أقنعه بأن هذه وصية والده ليختبر مدى نضجه "فانظر يا أخى وتأمل فى ما تضمنته هذه الحكاية من المعانى". عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، مطبعة الأنوار ، ١٩٨٦ ، ج ١، ص ٣٠ .

(*) ذكر جيرار أن فخر الدين كان له علاقاته مع فارس حتى خصص له الشاه "دخلاً سنوياً بقيمة تسعمائة ألف جنيه". أما ترحينى فذكر أن المعنيين كانوا أعداء لشيعة جبل عامل . ولا يمكن تفسير هذا التناقض إلا فى إطار انتصار السياسة على المذهب. جيرار دى جورج : دمشق من الإمبراطورية العثمانية حتى الوقت الحاضر ، ت : محمد رفعت عواد ، المجلس الأعلى للثقافة ، المشروع القومى للترجمة ، العدد ٧٣٩ ، ٢٠٠٤ ، ص ٦٤ . د. فايز ترحينى : الشيخ أحمد رضا والفكر العاملى ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ١٩٨٣ ، ص٢٠ ، ٢٧ .

(٣٦) وصل إلى فارس عام ١٥٩٨ الإخوة الإنجليز الثلاثة "السير روبرت شرلى" و١٢ إنجليزياً ، فشاركوا بفاعلية فى تنظيم جيش عباس وتزويده بسلاح المدفعية الذى كان يفتقده فى مواجهاته مع العثمانيين . وفى أبريل ١٦٠١ أرسل الشاه وفداً لزيارة عدة دول أوروبية ومقابلة البابا ، ووفدت بعدها عدة بعثات أوروبية إلى فارس ، وكان من أهداف المفاوضات فتح طريق صادرات الحرير إلى موانئ المتوسط بعيداً عن سيطرة العثمانيين. وقد أولى الإنجليز اهتماماً خاصاً بالأمر وجاء تأسيس شركة الهند الشرقية ١٦٠٠ كبداية لتنظيم العلاقة واندفعت الشركة لمبادلة فائض الصوف بالحرير وبذلت جهوداً مكثفة حتى حصلت على امتيازات تجارية عام ١٦١٥ وأسست مراكز تجارية فى عدة مدن فارسية . تطورت علاقة الشركة بالشاه فحصلت عام ١٦١٧ على فرمان بتبادل التمثيل الدبلوماسى بين فارس وإنجلترا . تحولت العلاقة إلى تحالف بين الشاه والإنجليز فى الخليج وهو ما اتضح فى الاستيلاء على هرمز من البرتغاليين عام ١٦٢٢ . للمزيد : الملوانى : تحفة ، ص ١٨٦ . براون : مرجع سابق ،ج ٤ ، ص ١٤، ١٦ ، ٨٤ – ٨٨ ، ٩١ ، ١٠٠ ، ١٠٩ – ١١١ . د. عبد العزيز نوار: الشعوب ،

ص ٢٣٤ ، ٢٣٧ ، ٢٤٢ – ٢٥٢ ، ٢٦٢ – ٢٦٤ . د. عصام سخنيني : مرجع سابق ، ص١٢٣– ١٢٩ .

(٣٧) محمد بن أبى السرور البكرى : المنح الرحمانية فى الدولة العثمانية ، تحقيق : د. ليلى الصباغ ، دار البشائر، دبى ، ١٩٩٥ ، ص ٢٨٤ .

(*) ذكر البكرى أن عدد العسكر الذى طُلب كان ألفًا فقط ، ربما لأن مصر أخرجت أربعة تجاريد فى وقت واحد . وهنا جهز الباشا العسكر "وخرجوا على أحسن ما يكون من التدبير بغير أذية للرعايا ولا ضرر.. وكان أهالى مصر ليس عندهم خبر من هذا العسكر الخارج بخلاف زمن غيره كان إذا خرج تجريدة فيها مائة نفس يحصل منهم الضرر البالغ . وهذا كله بحسن سياسته لأنه صار يرقى العساكر الخارجة إلى العجم بزيادة عن العوائد السابقة". ووصْفه خروج العسكر يفيد بمشاركة العديد من الأوجاقات بما فيها المماليك . ومن المُلاحظ أن مطالب الدولة من مصر كانت تتراوح بين ٥٠٠ و ٣٠٠٠ جندى وهو ما كان يتناسب وتعداد الفرق العسكرية وكذا مع كون مصر كانت مسئولة عن إخراج تجاريد لمناطق أخرى . ابن إياس : بدائع ، ج ٥، ص ٤٦٣ ، ٤٧٤ ، ٤٧٦ ، ٤٨٨ . البكرى : التحفة ، ص١٣٤ ، ١٥٦– ١٥٩ وغيرها. المنح الرحمانية ، ص ٢٨٤ .

(٣٨) شلبى : أوضح ، ص ١٣٥، ١٤٦ . الملوانى : تحفة ، ص ٢٤٩ .

(٣٩) وهذا ما حدث من موسى باشا عام ١٦٣١ الذى ادعى أنه "حضرت الأوامر الخنكارية يطلبون عسكراً إلى جهة قزلباش" وجعل قيطاس بك " سرداراً وكتب خمسمائة نفر من العساكر المصرية " وجمع من أجل ذلك نحو ١٢٠ كيسًا . وبعدها أظهر " بيلرديًا بخطه وختمه أن لا حاجة إلى السفر". حاول قيطاس استرجاع الأموال منه لكنه فشل ، ولينتهى الأمر بقتل الباشا لقيطاس وعزل الباشا. البكرى : التحفة ، ص ١٥١ – ١٥٥ .

(٤٠) أحمد الدمرداشى كتخدا عزبان : الدرة المصانة فى أخبار الكنانة ، تحقيق : د. دانيال كريسيليوس ، د. عبد الوهاب بكر ، القاهرة ، دار الزهراء ، ١٩٩٢ ، ص٩٢ ، ٩٣ . شلبى : أوضح ، ص ٢٩٠ .

(٤١) براون : مرجع سابق ، ج ٤ ، ص ١١٩ – ١٢٥ . د. عبد العزيز نوار : الشعوب ، ص٢٨٧ – ٢٩١ .

(٤٢) كتب شلبى "ولنذكر سبب هذه السفرة ، وذلك أن رجلاً شريفًا يقال له محمود .. وكان سني سنوى يحضر الجمعة والجماعة ويترضى عن جميع الصحابة .. وكان والده الشريف عويس له قلعة يقال لها قندهار.. فلما مات تغلبت الأرفاض على القلعة وتشتَّتَ عسكره .. ومنهم من قعد وصار يحط الجزية إلى الأرفاض. وكان محمود صغيراً فهرب .. ودخل بلاد اليزبك لأنهم سنية .. إلى أن بلغ مبلغ الرجال فاجتمع عليه بعض رجال والده فقالوا له : ما هذا القعاد على قلعة أبيك؟ .. فجمعوا نحو الثلاثماية مقاتل وساروا نحو القلعة.. فملكوها .. ثم إن الشريف محمود ملك القلعة بجميع مافيها وقتل ما بقى فيها من الأرفاض .. ثم نادى فى الإقليم كل من يريد الثواب والمال فليأت.. فجاء خلق كثير من اليزب فركب وإياهم إلى أن ملك ثلاثًا وعشرين قلعة من قلاع الأرفاض .. ثم إنه حط على قلعة أصفهان .. فحاصرها.. وملكها.. وقتل جميع من فيها من الأرفاض .. وقبض على الشاه .. وهرب ابن الشاه ثوم .. لم يزل سايراً إلى أن وصل إلى بلاد ملك المصقوة.. وأخبره بما حصل.. ووقع فى عرضه ، فأرسل معه جنداً إلى أن أوصلوه إلى همدان فدخلها وكان أكثرها أرفاضًا وأهل السُّنّة رعاياهم. فصار يصول على البلاد ويقتل أهل السُّنّة ويقوِّى شوكة الأرفاض فحصل لأهل ذلك الإقليم الضرر حتى وصل إلى طرف بغداد ، فأرسل أحمد باشا أخبر الدولة العلية فأرسلت إليه العساكر ". شلبى : أوضح ، ص٤٠٣ –٤١٠ .

(٤٣) فى ١٤ مايو ١٧٢٤ غادرت الحملة الإسكندرية. وفى إستانبول " أشيع أن السفرة بطالة " وعرض عليهم أن يأخذ كل واحد منهم عثمانيًا واحداً ويعودوا إلى مصر " ولرفض "سرادراتهم " انتهى الأمر بذهابهم إلى روان لمحاصرتها "ومكثوا ثمانية عشر شهراً ". شلبى : أوضح ، ص ٤١١ .

(٤٤) د. عبد العزيز نوار : الشعوب ، ص ٢٩٢ – ٢٩٨ .

(٤٥) وعندما عاد العسكر إلى مصر فى ٢٨ يونية ١٧٢٨ أخبروا بـ" موت على بك الأصفر وتولية خليل أغا المتفرقة عوضًا عنه" لكن خليل " مكث فى إسلامبول لما أخبر بما وقع فى مصر وما حصل فيها من قطعية القاسمية وما حصل لهم من الإهانة " كما أخبروا ببقاء بعض العسكر فى أنطاكية. وأخيراً " غرقت مركب الشيعية بعد أن زارت سيدى أحمد البدوى بعد أن فاتت زفتة ". شلبى : أوضح ، ص ٥٠١ ، ٥٠٢ ، ٥٢١ .

(٤٦) فقد أشرف عرشه وحياته عام ١٧٣٠ لصالح طهمسب المتحالف مع نادر الذى اتجه لطرد العثمانيين من فارس ، وأدى انتصاره إلى سيطرته على أجزاء من العراق. وعندما هزم العثمانيين طهمسب واضطروه إلى التنازل عن معظم ولايات فارس الغربية.. قام نادر بخلع طهمسب عام ١٧٣٢وتعيين ابنه الطفل محله مع وصاية نادر الذى تابع القتال وحاصر بغداد والموصل وأراد الاستيلاء على البصرة بمساعدة شركة الهند الشرقية التى رفضت خشية انتقام العثمانيين . وأمام ذلك ولقيام ثورة داخلية آثر نادر أن يعقد معاهدة مع العثمانيين تقضى بإعادة الأمور إلى ما كانت عليه قبل توسعهم فى فارس . وفى ١٧٣٦ ارتقى نادر العرش ، لكن الأمور بدأت تتغير ضده منذ ١٧٤٢ خصوصاً بعد تورطه فى حرب خاسرة ضد الليزغيان ، ثم المحاولة الفاشلة لاغتياله بقيادة ابنه رضا قولى ، بالإضافة إلى الثورات ضده بتأييد العثمانيين أحياناً. ومع ذلك شن نادر حرباً ضد العثمانيين لرفضهم الاعتراف بالمذهب الجعفرى ، فاجتاح شرقى العراق وحاصر الموصل وقارص ، مما اضطرهم إلى عقد صلح ١٧٤٦ . د. عبد العزيز نوار: الشعوب ، ص ٢٩٨ ، ٣١٩ . د. صالح محمد العابد : مرجع سابق ، ص٥٩٤ .

(٤٧) شلبى : أوضح ، ص ٥٧٤ ، ٥٨١ ، ٥٨٨ ، ٥٩٥ ، ٥٩٦ . عزبان : الدرة المصانة ، ص ٣٤٢ . الجبرتى : عجائب ، ج ١ ، ص ١٩٤ ، ٢٤١ .

(٤٨) د. عبد العزيز نوار: الشعوب ، ص ٣١٩ – ٣٢٩ . براون : مرجع سابق ، ج ٤ ، ص ١٣١ – ١٣٦ .

(٤٩) الجبرتى : عجائب ، ج ٢ ، ص ١٠ .

(٥٠) د. عبد العزيز نوار: داود باشا والى بغداد ، دار الكاتب العربى ، ١٩٦٧ ، ص ١٥٩ – ١٧٧ . وقد أورد الرجبى " زاد طغيان سعود حتى تعدى على أطراف ممالك العجم .. وأرسل فنهب المشهد الجليل المنسوب إلى السيد على بن أبى طالب.. فأخربه وأخذ جميع ما كان فيه". خليل بن أحمد الرجبى : تاريخ الوزير محمد على باشا، تحقيق : د. دانيال كريسيليوس، د. حمزة عبد العزيز ، د. محمد حسام الدين ، دار الآفاق العربية ، ١٩٩٧ ، ص ١٤٠ .

(٥١) بحر برا ، دفتر ٦ ، م ١٢٥ محمد شريف الحسنى إلى الباب العالى، ١٢٣٤ . الجبرتى : عجائب ، ج ٤ ، ص ٤٤٢ .

(٥٢) معية تركى ، الدفتر ٥ ، م ٢٩١ ، إلى حضرة كتخدا بك ، فى ٢٩ شوال ١٢٣٥هـ .

(٥٣) معية تركى ، الدفتر ٤ ، م ١٤٩ ، من المعية إلى الصدر للدولة الإيرانية ، فى حدود محرم ١٢٣٦هـ .

(٥٤) أرسل محمد على إلى أمين جمرك جدة عن علمه بمعارضة " شاه العجم للإنجليز الذين كانوا شرعوا ببناء منزل فى جزيرة الطويل الكائنة أمام البحرين". وهكذا طلب " إشعاره بكل ما يحدث من منع شاه العجم السفن الإنجليزية من الرسو عند الجزيرة .. بقصد إنشاء بناء ". معية تركى ، الدفتر ٧ ، م٢٨٢ ، من الجناب العالى إلى أمين جمرك جدة ، ٢٧ شوال ١٢٣٦هـ . الأوامر والمكاتبات الصادرة من عزيز مصر محمد على، نشره مجموعة من الباحثين، إشراف : د. رؤوف عباس ، م ١ ، دار الكتب والوثائق ، ٢٠٠٥ ، أمر ١٦٣ .

(٥٥) أمين سامى : تقويم النيل ، ج ٢، القاهرة ، مطبعة دار الكتب والوثائق ، ط ٢ ، ٢٠٠٣ ، ص ٢٩٣ ، ٢٩٤ .

(٥٦) الأوامر والمكاتبات ، م ١، م ١٩٧ و ١٩٨، ١٠ ربيع الأول ١٢٣٧هـ .

(٥٧) معية تركى ، الدفتر ١٠ ، م ٤٥ و ٤٦ من المعية إلى محافظ المدينة المنورة ، فى ١ و ١١ ربيع أول ١٢٣٧ . عن د. عبد العزيز نوار : داود باشا ، ص ١٧٨ .

(٥٨) معية تركى ، الدفتر ١٠ ، م ١٨٨ ، من المعية إلى محافظ المدينة ، ٧ رجب ١٢٣٧هـ .

(٥٩) معية تركى ، الدفتر ٩ ، م ٤٣٤ و ٥٠٣ ، من المعية إلى الكتخدا وحاجو أغا ١٩ رجب و ٦ شعبان ١٢٣٧ .

(٦٠) الأوامر والمكاتبات ، المجلد الأول ، م ٣٧٠ ، ٤ شعبان ١٢٣٨هـ. م ٣٨١ ، ٩ شوال ١٢٣٧هـ.

(٦١) د. عبد العزيز نوار : داود باشا ، ص ١٧٨ .

(٦٢) م تركى، الدفتر ١٠ ، م ٤٠، من محمد على إلى والى جدة . الأوامر والمكاتبات م١٩٣، ٤ ربيع الأول ١٢٣٧ .

(٦٣) الأوامر والمكاتبات ، م ٣٨١ ، ١٥ شعبان ١٢٣٨ . أمين سامي : تقويم ، ج ٢ ، ص٣٠٧ . معية تركي ، الدفتر ١٠ ، م ٤٦ ، ١١ربيع الأول ١٢٣٧ من محمد على إلى محافظ المدينة . م ٤٥ ، ربيع الأول ١٢٣٧ .

(٦٤) الأوامر والمكاتبات ، م ٢٩٧ ، ٩ رمضان ١٢٣٨ . م ٤٠٤ ، ٧ شوال ,١٢٣٨ م٤٦١ ، ٥ محرم ١٢٣٩ .

(٦٥) د. عبد العزيز نوار : الشعوب ، ص٣٩٠ – ٣٩٩ .

(٦٦) لا يمكن فصل موقف الباشا من حرب فارس عن التكليف الذى صدر له بقمع ثورة المورة . ففى نوفمبر ١٨٢١ كتب إليه السلطان عن ارتياحه البالغ " من اهتمامه بأمور الدولة " والتنبيه عليه بتجهيز ٦٠٠٠ جندى وسفن " وإرسالها.. بغاية السرعة نظراً إلى استفحال عصيان جزيرتى مورة وكريد " . وفى ديسمبر صدر له فرمان آخر بذلك " كما هو مشهود ومعهود فى همته " . أمين سامى: تقويم النيل ، ج ٢ ، ص ٢٩٤ .

(٦٧) وهكذا فقد أيد محمد على فرمان "إعدام داود باشا والى بغداد .. جزاء خيانته وسوء أعماله " وأنه " يدعو للحضرة الشاهانية بتعاقب الظفر وقهر هذا الخائن وأمثاله " . للمزيد : الأوامر والمكاتبات ، المجلد الأول ، م ٦٩٣ ، ١٥ شوال,١٢٤٠ م ٨٠٥ ، ٢٦ شوال ١٢٤١هـ . م ١٥٧٦ ، ٢٢ ذى الحجة ١٢٤٦هـ .

(٦٨) ومع أن الشيعة فى البداية أيدوا فقط أحقية على بالخلافة .. فإنهم تجاوزوا ذلك فيما بعد وأعطوا للإمام العديد من الصفات التى تسمو على الصفات الإنسانية. وبعد غيبة الإمام محمد بن الحسن الإمام الثانى عشر قالوا بمبدأ الإمام الغائب الذى قد يستمر غيابه عدة قرون أو آلاف من السنين . بطروشوفسكى : مرجع سابق ، ص ٢١٦ – ٢٣٦ . براون : مرجع سابق ، ج ٤ ، ص ٢٤ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ .

(٦٩) عن قدم الخلافات انظر على سبيل المثال : عبد القاهر البغدادى (ت ١٠٣٧م) : الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية ، تحقيق : د. محمد عثمان الخشت ، الرياض ، ١٩٨٨، ص ٤١ ، ٥٦ – ٧١ ، ٢٧٩ وغيرها.

(٧٠) ظهرت هذه الخلافات حول رفض المماليك لدعوى الصفويين الانتساب إلى آل البيت وتمسكهم بالتشيُّع وهو الأمر الذى جعل الشاه " عدواً "و " كافراً ورافضياً " وعدواً للقرآن والحديث. Clifford; op.cit. p.272 .

(٧١) لم يعترف الصفويون للعثمانيين بالحق فى الخلافة والإمامة ، وهو ما يتضح مما كتبه الصدر الأعظم لطفى باشا وما أورده من أحاديث وآراء فقهية لإثبات اندماج الإمامة والخلافة والسلطنة فى العثمانيين ، لمواجهة التشكيك وضرورة أن يكون الإمام من قريش.. حيث رد بأن " هذا القول باطل مردود خارج عن أهل السنة والجماعة وموافق لقول الإمامية من الروافض". وانتهى إلى أن السلاطين العثمانيين تنطبق عليهم شروط الإمامة والخلافة ولا يقول غير ذلك " إلا مبتدع .. ولا يقبل هذا القول إلا طائفة المُضلِّين". وبعد استعراض الكثير من التراث انتهى إلى " أن الإمام من ينوب مقام النبى فى إقامة الدين وتدبير مملكة الإسلام.. وتنفيذ الأحكام والحدود والقصاص . وأما الإمام الأعظم وهو السلطان الفايق الذى تحت ولايته أكثر بلاد المسلمين المعتد بها.. كسلطان سليمان .. فهو إمام الزمان مع الشرايط المعبرة فى إقامة الدين وحراسة ديار الإسلام. فإن قيل ما بال سلطان سليمان هل هو إمام الزمان أم لا ؟ أجيب هو إمام الزمان بغير شبهة.. وإنه حامى الشرع وكذلك نوابه وأمراؤه ويخدمه علماء الزمان وسلاطين العرب والترك والكرد والعجم". لطفى باشا: خلاص الأمة فى معرفة الأئمة ، تحقيق : د. ماجدة مخلوف ، القاهرة ، دار الآفاق العربية ، ٢٠٠١ ، ص ٤٨ –٥٠ ، ٦٦– ٦٨ .

(٧٢) ننوه هنا بما كتبه الموسوى عن أن الخلاف حول الإمامة والخلافة لم يتوقف عند كونه خلافًا فكريًا حاول كل طرف فيه إثبات صحة وجهة نظره بل اتخذ شكلا خطيرًا كلما مرت السنوات ، وبخاصة بعد "الغيبة الكبرى". وهكذا تجاوز الخلاف حدود البحث والاختلاف فى الرأى واتخذ طابعًا عنيفًا عندما بدأت الشيعة تجرح الخلفاء الراشدين وبعض أمهات المؤمنين بعبارات قاسية لا تليق بأن تصدر من مسلم نحو مسلم، ناهيك عن أن تصدر من فرقة إسلامية نحو صحابة الرسولﷺ وأزواجه". والنتيجة أنْ بادل السنة الشيعة موقفًا بموقف . موسى الموسوى : الشيعة والتصحيح : الصراع بين الشيعة والتشيُّع ، لوس أنجلوس ، ١٩٨٧، ص ٩ – ١١ وغيرها .

(٧٣) تعرض الإمامية فى فارس للمطاردة فى العصرين الغزنوى والسلجوقى، مما اضطرهم إلى التظاهر بقبول العقيدة السُّنية . على أنهم نعموا بالحرية إبان الحكم المغولى . ويمكن القول بأن ظهور الدولة الصفوية كان نتيجة لثورات ومحاولات عديدة لإقامة دولة شيعية فى القرن الرابع عشر الميلادى ومنها دولتا السربداريين والسادات المرعشية.

وكتب ابن بطوطة عن مدينة أصفهان فى القرن الرابع عشر الميلادى أنها " من كبار المدن وحسانها ، إلا أنها الآن قد خرب أكثرها بسبب الفتنة التى بين أهل السُّنة والروافض". رحلة ابن بطوطة ، دار صادر، ص ٢٠١ . براون : مرجع سابق ، ج ٣ ، ص ٥٥ – ٦٠ ، ٦٥ . بطروشوفسكي : مرجع سابق ، ص ٢١٩ ، ٣٤٦ ، ٣٤٩ – ٣٥٨ .

(٧٤) أسس الحروفية فضل الله الإسترابادى الذى قتله ميرانشاه عام ١٣٩٤م. ومن مبادئها أن محمداً ﷺ آخر الأنبياء وعلياً ﷺ أول الأولياء وآخرهم حسن العسكرى الإمام الحادى عشر ، وأن الإسترابادى أول تجسيد للإله. خضع الحروفيون للتأثير الشديد للصوفية واستعاروا من الإسماعيلية معنى العرفان والباطنية لحروف الأبجدية العربية واعتبروا الحروف مظهراً باطنياً عرفانياً لأنوار العالم . وقد انتشرت تعاليم الحروفية ونفوذها فى فارس وأذربيجان والأناضول والشام وكان أغلب أتباعها من الحرفيين والمثقفين وانتهى الأمر بملاحقتهم نتيجة قتلهم السلطان شاه رخ ١٤٥٣ . ومع أن ذلك أدى إلى تضاؤل نفوذها فى فارس نتيجة عمليات المطاردة والقتل .. فإنها وجدت متنفساً لها فى الأناضول وإن أخفت عقيدتها لتعرضها للمطاردة خصوصاً أيام محمد الثانى واتبعت مبدأ التقية وتدثرت أحياناً بثوب التصوف ونجح أتباعها أن يكون لهم تأثير على عدد من رؤساء البكتاشية وجنود الإنكشارية. ومع القرن ١٥م انتشرت فرقة أخرى من غلاة الشيعة فى فارس والمناطق المجاورة وكان أتباعها يطلقون على أنفسهم اسم أهل الحق وإن أسماهم شيعة فارس بـ"على اللهى" وتشعبت إلى فرق فرعية وسميت فى الأناضول بالقزل باش . وعندهم أن الله يرتبط بعلى الذى وُجد منذ الأزل برباط لا ينفصم ، وأن علياً تجسد بصورة دائمة فى جميع الأنبياء ومن بعدهم فى جميع الأئمة والأولياء ، وأن على اللهى تجسد فى الشاه إسماعيل وسيظهر بعودة المهدى وسيحل فيه . وكان أغلب أبناء هذه الفرقة من الفلاحين وسكان الصحراء والحرفيين وصغار التجار وشاركت فى القرنين ١٥و١٦فى الصراع الشيعى السُّنى. ورغم قضاء الشاه عباس الأول على أتباعها فى فارس عام ١٥٩٤ فإنهم وجدوا فى آسيا الصغرى طوال القرن السادس عشر وبداية السابع عشر ورفعوا راية العصيان على السلطان . عبد الباقى جلبنارى : المولوية بعد جلال الدين الرومى ، ت : عبد الله أحمد إبراهيم ، القاهرة ، المجلس الأعلى للثقافة ، المشروع القومى للترجمة ، عدد ٥٠٨ ، ٢٠٠٣ ، ص ٤٨٦ . بطروشوفسكي: مرجع سابق ، ص٢٧٥ – ٢٨٣ ، ٣٧٥ . براون : مرجع سابق ، ج ٣ ، ص ٤٠٣ – ٤١٠ ، ٤٩٨ .

(٧٥) براون : مـرجع سـابق ، ج ٤ ، ص٣٠ ، ٥٧ ، ٦١ ، ٦٥ . د. عـبـد العـزيز نوار : الشعوب ، ص ٢٢٢ .

(٧٦) جون ونتر (إعداد للنشـر) : رحـلات فارتيما (الحاج يونس المصـرى) ، ت : د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الألف كتاب الثانى ، عدد ١٣٤ ، ١٩٩٤ ، ص ٩٤ ، ٩٥ .

(٧٧) د. موسى الموسوى : مرجع سابق ، ص ٧١ ، ٩٩ ، ١٠٤ . بطروشوفسكى : مرجع سابق ، ص ٣٦٦ - ٣٨٠ .

(٧٨) براون : مـرجع سـابق ، ج ٤ ، ص ٣١ ، ٦٩ ، ٧٤ - ٧٧ . Andrew C.Hess; op.cit, p.70 .

(٧٩) د. ألبرت حورانى : تاريخ الشعوب العربية ، ج ٢، ت : نبيل صلاح ، الهيئة المصرية العامـة للكتـاب ، ١٩٩٩ ، ص٥٧ . كويلر ينج : مـرجع سـابق ، ص١٨٤- ١٨٦ . د. عبد العزيز نوار : الشعوب ، ص ٢٩٢ -٢٩٨ .

(٨٠) ومما ورد فى رسالته : " من حارب هذا العدو الكافر ما غُلب بل غَلَب.. أشفق الإسلام من نكاياتهم فنادى بلسان الحال كل قوم : أين المؤمنون فرض الجهاد .. فقلنا إن هذه فضيلة خصنا الله بها .. فدعَوْنا مشايخ الفقهاء ومشاهير العلماء واستفتيناهم.. فأفتوا مطابقين .. بأن سَعْى من جد فى قمعهم مشكور وعمل من جاهد فى دفعهم مبرور، فحكموا لدينا بكفرهم وإلحادهم وارتدادهم ". وجاء فى خاتمتها : " وانحسمت الظلمة المستولية بمقدمنا العزيز فطابت قلوب الرعايا.. وصعد الخطيب المنبر.. وخطب بموعظته وتلاها على مذهب أهل السنة وجماعتهم ، وذكر الخلفاء الراشدين .. بالتعظيم والتبجيل على ترتيب خلافتهم بعد أن لم يُذْكروا بالخير أمداً مديداً وعهداً بعيداً ...". ابن إياس : بدائع ، ج ٥ ، ص٤٧-٦١ . البكرى : التحفة ، ص٥٣ .

(٨١) وهذا يظهر فى ما كتبه البكرى من أن سبب " فتح مولانا السلطان سليم لمصر " أنه " شرع.. فى قهر أعدائه .. فبدأ بقتال شاه إسماعيل فكسره وهزمه. وإسماعيل.. هو أول من أظهر الرفض .. ووضع التاج الأحمر على رءوس عسكره فسموا قزل باش. وكان بينه وبين السلطان الغورى مصافاة ومحبة ، فلأجل ذلك أرسل الغورى إلى جهات حلب يمنع القوافل عن الذهاب إلى عسكر مولانا السلطان سليم بالميرة محبة

فى شاه إسماعيل . فحين رجوع مولانا .. إلى سرير مملكته بعد أخذ شاه إسماعيل سأل عن سبب تأخير القوافل فأخبر أن سبب ذلك السلطان الغورى فغضب غاية الغضب وتحرك على الغورى ". البكرى : التحفة ، ص٣٢ .

(٨٢) د. موسى الموسوى : الشيعة والتصحيح ، ص ٧١ .

(٨٣) والواقع أن هذه الحادثة توضح كيفية استخدام الخلاف المذهبى لخدمة أهداف سياسية. لقد عرض " مير ويس" على علماء مكة فتوى صيغتها "هل يجبر الرعية السُّنة الذين يحكمهم ملك رافضى أو شيعى على طاعته أم أنهم أحرار فى مقاومته إذا سنحت الفرصة وإذا لزم الأمر دافعوا عن أنفسهم بالسيف؟". جاءت فتوى العلماء مطابقة للشق الثانى ، حيث حملها ويس إلى قندهار عام ١٧٠٩م التى ثارت بعدها على الحكم الفارسى ، وليعلن مير محمود ابن مير ويس ت ١٧١٥م نفسه ملكًا. براون : مرجع سابق ، ج ٤ ، ص ١١٧ ، ١٢٥ .

(٨٤) وقد طرح نادر ثلاثة شروط حتى يقبل العرش الفارسى ، كان الثانى منها تخلى أهالى "إيران" عن التشيُّع وسب الخلفاء ، وأن يعتنقوا مذهب جعفر الصادق بعد جعله المذهب السنى الخامس . الإسترابادى : درة نادرة ، ت : حاتم محمد رشاد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٤، ص ٢١ ، ٢٤ . كويلر ينج : مرجع سابق ، ص٢٤٣ .

(٨٥) براون : مرجع سابق ، ج ٤ ، ص ٢٨٣ – ٢٩٠ ، ٣٠٣ – ٣٠٧ . د. عبد العزيز نوار: الشعوب ، ص ٢٦٥ .

(٨٦) د. موسى الموسوى : الشيعة والتصحيح ، ص ٨٦ ، ٨٧ .

(٨٧) فى ترجمته للصفويين كتب الغزى عن " بدعة " جدهم حيدر واستخدم مصطلح" هلك " عند إشارته لموت الشاه عباس وطهماز . أما المحبى فذكر أن " أول من بالغ فى التشيُّع وأظهره سلطان حيدر.. وقيل فى تاريخه مذهبنا حق "وقد أشار إلى قول بعض السُّنة أن "مذهب نا حق على النفى فإن نا فى الفارسية أداة نفى". الغزى : الكواكب ، ج ٣ ، ص ١٣٥ . المحبى : خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر ، بيروت ، دار صادر ، ج ٢ ، ص ٧ – ٢٦٩ .

(٨٨) ابن إياس : بدائع ، ج ٤ ، ص ٣٩ ، ١٢٣، ١٢٤ ، ٢٢١ – ٢٢٣ ، ٢٦٨ . وكان الشاه قد أرسل إلى سليم بهذين البيتين :

نحن أناس قد غدا شأننا حبّ علىّ بن أبى طالبِ
يعيبنا الناس على حبه فلعنة الله على العائبِ

فأجابه ابن عثمان عن ذلك بالتالى :

ما عيبكم هذا ولكنه بُغض الذى لُقب بالصاحبِ
كذبتمو عنه وعن بنته فلعنة الله على الكاذبِ

ومما كتبه ابن إياس :

من يبغض الصديق أو صحبه فذاك أشقى الخلق فى الناسِ
إن كان قد ضلت عقول لكم فعقلنا الوافر فى الرأسِ

وكتب جمال الدين السلمونى :

أف على أفّك يا خارجًا حجاك محتاجٌ إلى الأسى
ما أنت إلا جُعلىٌّ على رفضك شم الورد والآس

(٨٩) ابن إياس : بدائع ، ج ٥ ، ص ٢٥٨ ، ٢٥٩ .

(٩٠) ذكر المحبى أنه نتيجة لانتشار التشيع فى فارس"هاجر كثر من أهل السنة الذين فى بلادهم". ومن أشهر هؤلاء محمد بن عوض (ت ١٥٣١م) الذى تحمل سيرته الكثير من الدلالات . لقد عاش فى تبريز وتلقّى جزءًا من تعليمه ، ثم جاء مصر حيث اقترب من قايتباى. وبعد موته رحل إلى إستانبول وأصبح واعظًا شهيرًا وحظى بمكانة فريدة عند أبى يزيد وحضر معه بعض حروبه ضد الفرس واشتهر بأنه "كان ينكر على الملاحدة والرافضة". وعندما عاد إلى حلب" أكرمه ملك الأمراء خاير بك جداً وقرأ عليه والتزم بجميع مصالحه فمكث ثمانى سنين مُشتغلاً بالتفسير والحديث والوعظ والرد على الملاحدة والرافضة لا سيما على طائفة أردبيل وكانت تلك الطائفة يبغضونه بحيث يلعنونه مع الصحابة فى الجامع" بل وأرسل الشاه من حاول قتله. وعندما أراد الغورى طرده من حلب اجتمع معه خاير بك "خفية .. فأخبره بما وردت به المكاتبة وأمره بالمهاجرة خفية .. إلى البلاد الرومية" حيث اجتمع بالسلطان سليم "وحرضه على قتال عساكر الرافض قزلباش وألف له كتابًا فى الغزو وفضائله.. وذهب معه إلى حربهم

وكان يعظ الجند فى الطريق ويحرضهم على الجهاد". الغزى : الكواكب ، ج ٢ ، ص ٥٤ - ٥٦ . المحبى : خلاصة ، ج ٢ ، ص ٢٦٧ .

(٩١) مرعى بن يوسف الحنبلى : قلائد العقيان فى فضائل آل عثمان ، مخطوط ، ص٦٠ ، ٦١ .

(٩٢) البكرى : المنح ، ص ٥٧ ، ٥٨ ، ٧٢ - ٧٤ ، ٢٨٨ .

(٩٣) انظر للمزيد : الملوانى : تحفة ، ص ١٨٣- ١٨٦ ، ١٨٩- ١٩١، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ .

(٩٤) لقد كتب أن محمود كان سُنيًا شريفًا "سنوى يحضر الجمعة والجماعة ويترضى عن جميع الصحابة" وأن استيلاء " الأرفاض" على قندهار " قلعة والده " أدى إلى تفرق جنده "ومن قعد منهم كان يدفع الجزية حكم النصارى". على أن محموداً وأعوانه استطاعوا استرداد قندهار ودخلوها "مُعلنين بالتكبير والترضى على الصاحبين ". وبعدها روى كيف أنه بعد استيلائه على عرش فارس " عنَّ له أن يدخل مرحاض السراى فوجد الكرسى .. تحت رجل الجالس اليمنى أبو بكر وتحت الرجل اليسرى عمر " وهنا أمر بإحضار الشاه " بعد أن طار عقله " وسمل فى النهاية عينيه " وعاش بعد ذلك ثلاثة أيام وهلك .. ". شلبى : أوضح ، ص ٤٠٨ -٤١٠ .

(٩٥) ابن إياس : بدائع ،ج ٥ ، ص٣٦٤ . مرعى الحنبلى : مصدر سابق ، ص ٦ . البكرى : المنح ، ص ٩ ، ١٠ .

(٩٦) إسماعيل البغدادى : إيضاح المكنون فى الذيل على كشف الظنون ، إستانبول ، مطبعة المعارف ، ١٩٤٧، ج ١، ص ٥٨٨ . ج ٢، ص١٤ ، ٢١ ، ١٣٩ ، ١٨٨ ، ٣٨٢ ، عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين ، مطبعة الترقى ، ١٩٥٩، دمشق ،ج ٢ ، ص١٥٢ . ج ٥ ، ص ٢٠٥ ، ٣٠٠ ، ج٧ ، ص ٥١ ، ١٨٨ ، ١٩٩ ، ج ٩، ص ١٨٥ .

(٩٧) وكتب"سُئلت قديمًا فى تأليف كتاب يبين حقية خلافة الصديق وإمارة ابن الخطاب فأجبت إلى ذلك مسارعة فى خدمة هذا الجناب.. ثم سُئلت قديمًا فى إقرائه فى رمضان سنة خمسين وتسعمائة بالمسجد الحرام لكثرة الشيعة والرافضة ونحوهما الآن بمكة المشرفة.. فأجبت إلى ذلك رجاء لهداية بعض من زلت به قدمه". أحمد بن حجر الهيتمى المكى: الصواعق المحرقة فى الرد على أهل البدع والزندقة ، دار الكتب العلمية ، ١٩٩٣، ص ٩ .

(٩٨) ومنها قوله ﷺ : « إن الله اختارني واختار لى أصحاباً فجعل لى منهم وزراء وأنصاراً وأصهاراً فمن سبهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس » . وقوله : « سيأتى من بعدى قوم لهم نبز يقال لهم الرافضة فإن أدركتهم فاقتلهم فإنهم مشركون . قال [أى على ﷺ] قلت : يا رسول الله ! ما العلامة فيهم. قال : يقرظونك بما ليس فيك ويطعنون على السلف .. فتأمل ذلك فإنك تنجو من قبيح ما اختلقته الرافضة عليهم مما هم بريئون منه » . ابن حجر : الصواعق ، ص ٩ – ١٥ .

(٩٩) "ومما يرشدك إلى أن ما نسبوه إليهم كذب مختلق أنهم لم ينقلوا شيئًا منه بإسناد عُرفت رجاله .. وإنما هو شيء من إفكهم وحمقهم وجهلهم وافترائهم على الله .. فإياك أن تدع الصحيح وتتبع السقيم .. وكيف يسوغ لمن هو من العترة النبوية أو من المتمسكين بحبلهم أن يعدل عما تواتر عن إمامهم على ﷺ قوله : إن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر ؟ وزعم الرافضة لعنهم الله أن ذلك تقية سيتكرر عليك رده وبيان بطلانه وأن ذلك أدى ببعض الرافضة إلى أن كفَّر عليًا قال لأنه أعان الكفار على كفرهم فقاتلهم الله". ابن حجر: الصواعق ، ص ١٥ .

(١٠٠) انظر للمزيد عن ذلك : ابن حجر : الصواعق ، ص ١٥– ٣١٤ ، ٣٣٩ – ٣٧٥ .

(١٠١) المحبى : خلاصة ، ج ١ ، ص ١٨٩ ، ١٩٠ .

(١٠٢) ومما كتبه :

وأفضل خلق الله بعد نبيه ... أبو بكرٍ الصديق بدر الكواكب
وحب أبى حفص لدىَّ وبيعة ... وصيَّرته ذخراً ليوم العواقب
وعثمان ذى النورين أفضل فائتٍ ... وفى خدمة الديان أرغب راغب
وأشجع شجعان البرية حيدرٌ ... وأولاده قد خصصوا بالمناقب
فهذا اعتقادى فى النبى وصحبه ... ومذهبنا فى الدين خير المذاهب

الدميرى : قضاة مصر فى القرن العاشر والربع الأول من القرن الحادى عشر الهجرى ، القاهرة، تحقيق : عبد الرازق عيسى ، يوسف مصطفى المحمودى، العربى للنشر والتوزيع ، ط١ ، ٢٠٠٠، ص ٢٨٢ .

(١٠٣) مما جاء فى تلك القصيدة :

للّه در جيوش الروم إذ ظهـــروا　　على الروافض قد صارت بهم عبرُ
كم أبدعــوا بدعًا سيًا ومظلمــة　　لهم قـلوب يحاكى لينّها الحجــر

ومنها :

حتى إذا جاء وقت الغوث واقتربت　　آجالهم وأتتهم بالأسى النُّــذُر
أتت إليهم جيوش الروم يقدمهــا　　من بأسها المنذران الخوف والحذر

ومما كتبه ابن المنقـار:

لا سيما فتــح تــبريز فمنـــه عــلا　　على الروافض فيه الشــر والشرر

وقـوله :

فروا من الدين والدنيا وقد هـدمــوا　　شعائر الشــرع لما سبهم عــمــر
فيُخــريـون بأيـديهــم بيـوتهــمُ　　مع الغزاة حماة الديـن فاعتــبروا
وذا بسعد مراد اللّه حـــاكمنـــا　　رأس السلاطين من دانت له البشــر
من آل عثمان مبـدى حــب سادتنا　　وهم أبو بكـر الصــديق ثم عمـــر
فيا إمامًا غدا يهدى لســنــة مـــن　　مضى من الصحب بالرضوان قد ذكروا
جرد سيوفك نحو المارقين ضـــحى　　واعـلم بأنهم بالســب قـد كفروا

الدميرى : قضاة مصر ، ص ٢٤٩ - ٢٥١ ، ٢٥٥ -٢٦٠ ، ٢٨٥ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ .

(١٠٤) الجبرتى : عجائب ، ج ٤ ، ص ٢٧٢ ، ٢٧٣ .

(١٠٥) شهدت دمشق اتهام البعض فى تدينهم لمجرد ماأُشيع عن تشيعهم بل وقتل من ثبت عليه ذلك. وكمثال ففى عام ٩٤٢ حرق القاضى" ابن يونس.. حسين البعلبكى .. بعد أن ربط رقبتيهما ويديهما ورجليهما فى خوازيق " وبعد أن " صارا كوم رماد " أُلقيا فى نهر بردى " لأنه ثبت عليهما عند القاضى .. أنهما رافضيان . وسئل الشيخ قطب الدين بن سلطان مفتى الحنفية عن قتلهما فقال لا يجوز فى الشرع بل يُستتابان". شمس الدين بن طولون : حوادث دمشق اليومية غداة الغزو العثمانى للشام ،

تحقيق : أحمد إيبش ، دار الأوائل ، دمشق ، ٢٠٠٢ ، ص ١٧١ ، ٢٣٠ ، ٢٥٠ ، ٢٩٩ ، ٣٢١, الغزى : الكواكب ، ج ٣ ، ص ١٥٤ .

(١٠٦) براون : مرجع سابق ، ج ٤ ، ص ٢٨٣ - ٢٩٠ ، ٣٠٢ - ٣٠٧ .

(١٠٧) في يوليو ١٨١٧ أرسل أحد قضاة المدينة المنورة إلى الباشا عن أنه " لم يتداخل أحد في شئون حجاج إيران وداغستان ولم يتعرض لهم أحد طبقًا للأمر الكريم". وفي أغسطس أرسل قاضي مكة ليؤكد على " معاملة حجاج إيران وداغستان معاملة حسنة وعدم إزعاجهم ". بحر برا ، دفتر ٤ ، م ١٥٥ من محمد أبو الخير القاضي بالمدينة إلى الجناب العالي ، ١٠ رمضان ,١٢٣٢ م١٣١ من محمد حامد القاضي بمكة ، ٣ شوال ١٢٣٢ .

(١٠٨) انظر مثلاً : د. عبد الرحيم عبد الرحمن : فصول من تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العصر العثماني ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سلسلة تاريخ المصريين ، العدد ٣٨ ، ١٩٩٠ ، ص ١١٩ ، ١٣٦ ، ١٥٢ وغيرها.

(١٠٩) انظر مثلاً : د. عبد الحميد حامد سليمان : تاريخ الموانئ المصرية في العصر العثماني ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سلسلة تاريخ المصريين ، العدد ٨٩ ، ١٩٩٥ ، ص ٢٦٧ .

(١١٠) د. ألبرت حوراني : مرجع سابق ، ص ٣٨ ، ٣٩ .

(١١١) كويلر ينج : مرجع سابق ، ص ٢٤١ . جيرار دي جورج : مرجع سابق ، ص ٥٠ .

(١١٢) إضافة إلى إنتاج فارس للترياك والتنباكو والقطن اشتهرت هراة بأنها "عامرة بمختلف البضائع خصوصًا الحرير " الذي يمكن شراء " ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف حمل بعير " منه في يوم واحد ، وكان بها " سوق كبير للراوند [نبات عشبي يستخدم كعقار]" . أما شيراز فكان بها "جواهر كثيرة من الفيروز وكميات هائلة من الياقوت". وبينما كانت الدولة الصفوية تقع على طريق الحرير المهمة، فإن مصر كانت تقع في موقع تجاري فريد لا سيما في العلاقة مع أوروبا ، هذا على الرغم من تأثر موقف الطرفين بالكشوف الجغرافية والتوسع العثماني وغيرها من المؤثرات. رحلات فارتيما : مصدر سابق ، ص ٩٢ -٩٤ . د. ألبرت حوراني: مرجع سابق ، ص٤٥ . د. محمد السعيد عبد المؤمن : مرجع سابق ، ص٨٩ . د. عباس صباغ : مرجع سابق ، ص ٥٤ - ٥٦ ، ٩٤ - ٩٨ .

(١١٣) وهكذا فإن فارتيما فى نهاية رحلته إلى الحجاز اتفق مع ربان سفينة لتبحر به إلى فارس. وعندما اضطرته الظروف إلى التوقف فى عدن وأراد الذهاب إلى الهند ، اصطحبه ربان سفينة وإن أخبره بأن سفينته " قبل الوصول إلى الهند ستعرج على بلاد فارس ". رحلات فارتيما : مصدر سابق ، ص ٢٥ ، ٥٣ ، ٦٢ ، ٦٨ ، ٧٦ .

(١١٤) د. عصام سخنيني : مملكة هرمز ، ص ٣١ ، ٣٢ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ١١٥ ، ١١٦ .

(١١٥) كانت دمشق فى القرن السادس عشر يتجمع فيها حجاج الأناضول وما وراء النهرين والقوقاز وفارس ، كما كان الشيعة يتجمعون فيها. أما حلب فكانت مركزًا تجاريًا ضخمًا وتأتيها التجارة والتجار من مناطق مختلفة منها بلاد فارس . جيرار دى جورج : مرجع سابق ، ص٤٧ ، ٤٩ ، ٦٠ . د. عباس صباغ : مرجع سابق ، ص ٥٦ ، ٦٢ ، ٢٣٥ . د. سليمان محمد حسين : تجار القاهرة فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سلسلة تاريخ المصريين ، عدد ٢٤١ ، القاهرة ، ٢٠٠٣ ، ص ٢١٦ .

(١١٦) فى جمادى الآخرة ٩٢٨ "وقعت حادثة غريبة وهى أن .. الخواجا محمود العجمى.. وهو فى سعة من المال وكان يقرض أعيان المباشرين المال بالفوائد الجزيلة ويأخذ الربا.. فاتفق أنه سكر يومًا وأتى إلى داره فوجد جواريه قد تشاجروا.. فضرب جارية حبشية.. فماتت.. فقامت عليه الأشلة ". ذهب الخواجا إلى ملك الأمراء وأخبره بالأمر" فغضب عليه" وانتهى الأمر بتغريمه ٣٠٠٠ دينار. ابن إياس : بدائع ، ج ٥ ، ص ٤٥٥ .

(١١٧) ابن إياس : بدائع ، ج ٥ ، ص ٢٦٣ ، ٤٧٥ .

(١١٨) المحبى : خلاصة ، ج ٢ ، ص ٢٦٧ -٢٦٩ .

(١١٩) د. سليمان محمد حسين : مرجع سابق ، ص ٧١ ، ٨١ ، ٨٩ ، ٢٠٩ ، ٢١٣ ، ٢٣٢ ، ٢٣٧ .

(١٢٠) من ذلك زواج أم الهنا ابنة إسماعيل أبو طاقية ١٦٢٥م بتاجر فارسى. د. نللى حنا: تجار القاهرة فى العصر العثمانى (سيرة أبو طاقية) ، ت : د. رءوف عباس، الدار المصرية اللبنانية ، ١٩٩٧ ، ص ٢١١ ، ٢٤٢. أن وولف : كم تبعد القاهرة : ترجمة : د. قاسم عبده قاسم ، المجلس الأعلى للثقافة ، المشروع القومى للترجمة ، العدد ١٠٥٢ ، ٢٠٠٦ ، ص ٣٢٢- ٣٣٠ .

(١٢١) محكمة الإسكندرية، س٥٤ ، م ٣٦٧ ، ص٢٠١ ، ٢٢ محرم ١٠٨٩هـ/ فبراير ١٦٧٨م.

(١٢٢) محكمة الإسكندرية : السجل ٦٤ ، ص ١٧٠ ، المادة ٣٠٩ ، أواخر جمادى الثانية ١١٢١هـ .

(١٢٣) شلبى : أوضح ، ص ٥٠١ ، ٥٠٢ .

(١٢٤) حسام محمد عبد المعطى : العلاقات المصرية الحجازية فى القرن الثامن عشر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، تاريخ المصريين ، عدد ١٤٩ ، ١٩٩٩ ، ص ، ٢٣٣ . د. عبد الحميد سليمان : مرجع سابق ، ص ٣١٢ .

(١٢٥) د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم : مرجع سابق ، ص ٢٠٢ .

(١٢٦) ب. س. جيرار: الحياة الاقتصادية فى مصر فى القرن الثامن عشر، ت : زهير الشايب ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠٢ ، ص ٢٦١ ، ٢٣٣ . جيرار ديجورج : مرجع سابق ، ص ٩٩ ، ١٥٢ .

(١٢٧) وخلاصة القضية أن " الذمى قربت .. العجمى" حضر لدى قاضى الثغر وعرض عليه أن "بوغوص ولد أشخان من سكان توقات .. أرسل لرجل من سكان أزمير يسمى فرانسز .. ساكن بخان درويش بأزمير.. أربع قطع دنك بداخله حرير عجمى ليتصرف له فيه بالبيع". أرسل أشخان شريكه "قربت" إلى أزمير لقبض ثمن الحرير لكن فرنسيس أخبره باحتراق الخان والحرير . لم يصدق قربت وبعد سؤاله تجار أزمير استدل على أن الحرير تم بيعه إلى تجار من الإسكندرية فحضر إليها حيث علم أن الحرير اشتراه " الشريف محمد بن محمد عساكر ورجل يدعى الحاج على الحلاوى الرشيدى.. فاجتمع عليهما وسألهما " فأخبراه بأنهما اشترياه من خان درويش ، كما عرّفاه على جماعة من أهالى الثغر اشتروا كمية أخرى من الحرير " بسعر الأقة ثلاثة عشر غرش رومى". طلب قربت من القاضى إحضار المذكورين للإدلاء بأقوالهم وانتهى الأمر بأخذ قربت حجة مكتوبة من القاضى بالقضية كلها. محكمة الإسكندرية الشرعية : دفتر سجل مبايعات، م ٩٨ ، أواسط شوال ١١٩٣هـ .

(١٢٨) فى فبراير ١٨٢٠ كتب الباشا إلى أمين جمرك مكة بخصوص الحجاج الإيرانيين والرسوم التى تجبى من أموالهم وبضائعهم. وفى يوليو ١٨٢١ أرسل إلى الصدر بأنه كتب إلى ضباط جده لحصر تركة التاجر نور الدين الإيرانى لوفاته دون وريث ، والعمل

على إرسالها إلى ورثته في بلاده . بحر برا ، دفتر ٧ ، م ١٩ من الجناب العالى إلى (؟) ١٨ ربيع الثانى ١٢٣٥ . م تركى ، الدفتر ٤ ، م ٢٨١ إلى الصدر الأعظم ، ١٢رمضان ١٢٣٦هـ .

(١٢٩) أمين سامي : تقويم النيل ، ج ٢، ص ٢٩٣ .

(١٣٠) ابن إياس : بدائع ، ج ٥ ، ص١٢٢ . الغزى : الكواكب ، ج ١ ، ص ٣٢ .

(١٣١) الجبرتي : عجائب ، ج ٤ ، ص ٢٨٣ .

(١٣٢) وهكذا أبدى الباشا في رسالته إلى الصدر علمه بتوقيع السلام " وبمعاملة رعاياها أسوة برعايا الدولة العلية ما خلا التركات .. وبأنه أجرى نشر الأمر بسائر الأقاليم المصرية .. للعمل بموجبه ". الأوامر والمكاتبات ، م ١ ، م ٦٣٣ ، ٢٢ ذى القعدة ١٢٣٩ . أمين سامي : تقويم النيل ، ج ٢ ، ص ٢٩٤ .

(١٣٣) للمزيد عن عجم رحلوا إلى إستانبول وحظوا بالرعاية . الغزى : الكواكب، ج ١ ، ص ١٥٩ ، ٢١٦ . ج ٢، ص ١٣٢ ، ١٨٣ . ج ٣، ص٣٧ - ٣٩ . المحبى : خلاصة ، ج ١، ص ١٨٩ ، ٤٨٠ ، ٥٠٠ .

(١٣٤) انظر مثلاً حالة الملا توفيق الكيلاني الشيعى (ت ١٦٠١) الذى رغم كونه شيعياً حظى بشهرة واسعة في إستانبول وحصل على العديد من الوظائف المهمة. المحبى: خلاصة ، ج ١، ص٤٨٠ . ج ٣ ، ص ٤٧٥ .

(١٣٥) تعود نسبية التسامح إلى ظروف الخلاف وطبيعة العصر . ورغم حديث حورانى عن صعوبات لاقاها الشيعة في الشام، فإن هذا لا يُقارن بما لاقاه السنة من اضطهادات صفوية. د. ألبرت حورانى : مرجع سابق، ص ٥٧ .

(١٣٦) المحبى : خلاصة ، ج ١ ، ص٥٠٠ ، ٥٠١ . أبو الفضل محمد خليل بن على المرادى : سلك الدرر في أعيان القرن الثانى عشر ، دار البشائر الإسلامية ، بيروت ، ١٩٨٨ ، ج ٣ ، ص ٢٧٤ .

(١٣٧) عن أسباب التشابه بين المشرق الإسلامي والمغرب في السياسية (الاستبداد) والاقتصادية (الإقطاع الذى خلق برجوازية هزيلة) والفكرية (اتخاذ الوعى غالبًا إيديولوجيات مذهبية متطرفة وصوفية هروبية).. انظر: د. محمود إسماعيل :

ســوســيولوجيا الفكر الإســلامى ، الجزء الثالث ، القاهرة ، سينا للنشر، ١٩٩٢، ص ١٨٣ .

(١٣٨) كمثال شهدت مصر الفاطمية انتشار بعض الأفكار الصوفية الباطنية التى اقتربت فيها مع آراء الإسماعيلية. أما الطريقة الكيزانية فكانت شبيهة بكرامية خراسان. د. محمد كامل حسين : بين التشيُّع وأدب الصوفية فى عصر الأيوبيين والمماليك ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، المجلد ١٦ ، ج ٢ ، ١٩٥٤ ، ص ٥٢ ، ٥٤ .

(١٣٩) أنجبت فارس الكثير من مشاهير التصوف كالقشيرى والبلخى والبسطامى والهجويرى والعطار والجامى . ومع أنها أنجبت الغزالى الذى أسهم فى نشر التصوف المعتدل .. فإنها شهدت انتشار التصوف الفلسفى. ورغم إثارة أفكار ابن عربى لبعض علماء السُّنة ، فإن عدداً كبيراً من صوفية فارس نهضوا للدفاع عنه . وبالنسبة إلى الطرق التى ظهرت أو انتشرت فى فارس وكانت لها جذورها الشيعية فهناك الطيفورية التى وصلت سلسلة شيوخها إلى زين العابدين بن على وانقسمت إلى شعب سُنِّية وشيعية ، وبالمثل كانت النقشبندية. وهناك السهروردية والمولوية التى أسَّسها جلال الدين الرومى (ت١٢٧٣م). أما البكتاشية التى راجت التعاليم الباطنية القريبة من تعاليم غلاة الشيعة والحروفية بين أتباعها واشتهرت بعلاقتها مع الإنكشارية فتنتسب إلى حاجى بكتاش الفارسى (ت ١٢٧٩) . بطروشوفسكى : مرجع سابق ، ص ٣٠٢- ٣٠٧ ، ٣٢٤ ، ٣٢٨ - ٣٣١ ، ٣٣٦ - ٣٤١ .

(١٤٠) وهى نسبة إلى نسيم الدين الذى قُتل ١٤١٨م وحقق شهرة بعد موت أستاذه فضل الله التبريزى حتى سميت طريقته باسمه بعد أن كانت الحروفية. عاش نسيم بحلب وكثر أتباعه فأمر المؤيد بقتله . بيد أن النسيمية لم تمت بموته وذكر ابن حجر فى حوادث ١٤٢٤ أن بالشام ومصر جماعة منهم وأن السلطان عقد مجلساً أحضرت فيه كتبهم وهى بالفارسية فإذا هى مقالة مركَّبة من قول المشبهة والاتحادية. د. أحمد صبحى منصور: العقائد الدينية فى مصر المملوكية بين الإسلام والتصوف، القاهرة ، تاريخ المصريين ، عدد ١٨٦ ، ٢٠٠٠ ، ص ١٩٧ .

(١٤١) ابن إياس : بدائع ، ج ٥ ، ص ٨٨ .

(١٤٢) عبد الوهاب الشعرانى : الطبقات الكبرى ، ج ٢ ، مكتبة صبيح ، القاهره ، د.ت.ط. ج ٢ ، ص ١٣٣ . عبد الرءوف المناوى : الكواكب الدُّرِّيَّة فى تراجم السادة الصوفيَّة ، تحقيق: د. عبد الحميد صالح حمدان، المكتبة الأزهرية ، ١٩٩٤، ج ٤ ، ص ٢٤ ، ٥٩ . البكرى : التحفة ، ص ٩٨ . الغزى : الكواكب ، ج ١ ، ص ١٩٢ ، ١٩٣، ج ٢ ، ١٥٠ . الجبرتى : عجائب ، ج ٢ ، ص ١٣١ ، ١٣٢ .

(١٤٣) د. موسى الموسوى : الشيعة والتصحيح ، ص٧٠ ، ٧١ .

(١٤٤) بطروشوفسكى: مرجع سابق، ص ٣٣٦ - ٣٤١ ، ٣٥٨ - ٣٦٩ ، ٣٧٨ . براون : مرجع سابق ،ج ٤ ، ص ٣٤ .

(١٤٥) د. محمد السعيد عبد المؤمن : مرجع سابق ، ص١٣- ٢٨ .

(١٤٦) وممن استقبلتهم مصر فى العصر المملوكى يوسف العجمى (ت ١٣٦٦) الذى حظى بمكانة مهمة وكان" أول من أحيا طريقة الجنيد بمصر.. وله التلامذة الكثيرة وعدة زوايا.. وكانت طريقته التجريد" وبير جمال الشيرازى (ت بعد ١٤٧٦) " قدم مكة ثم القاهرة ويصحبته نحو أربعين من مريديه ما بين علماء أكابر وصوفية أماثل وأبناء رؤساء". ومحمد بن سلامة (ت ١٥٠٥) " العارف.. المسلك الهمدانى " الذى " تأسف الناس كثيراً " لموته. وأحمد الضرير" أحد تلامذة .. عمر الروشنى". ابن إياس : بدائع ، ج ٥ ، ص٤٥٦ ، ٤٥٧ . الشعرانى : الطبقات ،ج ٢، ص٦٠ ، ٩٨ ، ١٢٤ . الغزى : الكواكب ، ج ١ ، ص٣٢ ، ٥١ ، ١٥١ ، ٢١٦ . ج ٢ ، ص ٨٤ . المناوى : الكواكب، ج ٣ ، ص ٧٤ - ٧٨ . ج٤ ، ص١٠ ، ١٣٠ . الجبرتى: عجائب ،ج١ ، ص ٩٦ ، ١١٤ ، ١١٨ .

(١٤٧) تبدأ سلسلة الخلافة الروحية للطرق من أحد مشاهير الصوفية كالجنيد والبسطامى، أو بأشخاص لم يكونوا صوفية لكن الروايات المتأخرة عدتهم كذلك مثل رؤساء الطرق الشيعية الذين كان لكل واحد منهم إمام من الأئمة الاثنى عشر وغالبًا ما اعتبروا عليًا ﷺ الإمام الأول، أو بأشخاص آخرين مثل الخضر . أما الملامتية فمن الفعل لام واعتقد أتباعها أن خلاص الصوفى وتحرره من العلائق أكبر الأخطار التى تهدده وتكمن فى ما قد يصيبه من غرور بنفسه. ولكى يتجنب هذا الخطر يصبح من المحتم عليه أن يخفى ما يحرزه من توفيق فى طريق الزهد والعرفان، ويجتهد فى أن يظهر نفسه فى وضع أسوأ مما هو عليه حتى يكون سلوكه سببًا فى إثارة لوم الآخرين. ويتضح هذا

السلوك غالبًا فى صورة التسامح وعدم المبالاة ، بل ويتجاوز ذلك ويتسم بالبلاهة والوقاحة. وقد اختصر الغزى تعريف الملامتية بأنهم الذين " يخربون ظواهرهم ويعمرون بواطنهم". الغزى : الكواكب ، ج ٣ ، ص ١٩١ . جلبنارى : مرجع سابق، ص٣٠ . بطروشوفسكى : مرجع سابق ، ص ٣٠٦ ، ٣٢٥ ، ٣٤١ .

(١٤٨) ورغم قبول الصوفية العجم فى مصر .. هاجمهم البعض كالمقريزى الذى اعتبرهم "ينتحلون مذهب الإلحاد ويصرحون بتعطيل الصانع تعالى وينكرون شرائع الأنبياء". د. أحمد صبحى منصور: العقائد، ص١٩٦- ٢٠٨ .

(١٤٩) يعود التأثير الفارسى الكبير فى الأتراك إلى ما قبل الإسلام ، سواء فى اللغة أو الدين أو التصوف. للمزيد: محمد فؤاد كوبريلى : المتصوفة الأولون فى الأدب التركى ، الجزء الأول ، ت : عبد الله أحمد إبراهيم ، المجلس الأعلى للثقافة ، المشروع القومى للترجمة ، عدد ٣٤٨ ، ٢٠٠٢ ، ص ٦٨ ، ٦٩ ، ١٠٤ وغيرها .

(١٥٠) البكرى : المنح ، ص ٣٣ ، ٣٤ .

(١٥١) تسربت النزعة الباطنية إلى المولوية بالأناضول منذ القرن١٢م وتعمقت بعدها عند بعض شيوخها وحصلت على دعم بعض السلاطين والصدور رغم تعرضها للمطاردة أحيانًا لعلاقتها بفارس أو لموقفها من الإصلاحات. ولما كان قسم من المولوية - التى انتمى إليها الانكشارية - امتزج بالبكتاشية والحروفية والقلندرية فهذا يعنى أن هذا النوع من التصوف وجد طريقه إلى مصر ، رغم أنه شهد بعض التعديلات كقبول الحروفية للمذهب السنى فى المناطق السنية. جلبنارى : مرجع سابق ، ص ٣٣ ، ٤٠ ، ١٣٠ ، ١٣٧ ، ١٤٨ ، ١٥٠ ، ١٨٤ ، ١٩٤ - ١٩٩ ، ٢٦٨ - ٢٧١ ، ٢٧٥- ٢٧٨ ، ٢٩٥ - ٢٩٧ ، ٣٩٠ ، ٤٢٤ ، ٤٨٧ - ٤٩٦ .

(١٥٢) وممَّن تولَّى مشيخة تكية المولوية بمصر حسن دده بن عبد اللَّه الملقب بطالبى ت ١٧١٣ . الغزى : الكواكب ، ج ٣ ، ص ١٨٠. الجبرتى : عجائب ، ج ١ ، ص ٤٤٢ . كحاله : معجم المؤلفين ، ج ٣ ، ص ٢٢٤ .

(١٥٣) وعن علاقة المولوية بالأناضول وفارس ومصر وبالتشيع والبكتاشية والوفائية فى القرن ١٥م كتب جلبنارى أن محمد جلبى- من شيوخ المولوية الكبار وكان حيًا عام ١٥٤٤- توجه إلى العراق مع ثمانين درويشًا مولويًا وبكتاشيًا. وبعد أن زار النجف

وكربلاء وأئمة أهل البيت .. ذهب إلى مشهد لزيارة الإمام على الرضا فحظى بعظيم التوقير وأحبه قلندرية فارس . وبعدها وصل حلب فنزل فى تكية أبى بكر الوفائى (ت ١٥٨٣) وجعله خليفة وحلق له شعره كالقلندرية . ومن منتشه ذهب إلى مصر وتأكد من إخراج إبراهيم كلشن (ت ١٥٢٤) من سجنه . وذكر البعض أن جلبى استخلف أحمد صفائى على مصر وافتتح تكية المولوية بالقاهرة وأجاز لسائر خلفائه لبس القلنسوة وامتشاق السيف . وعلى كل انقسمت المولوية قسمين : الأول انتمى إلى الباطنية والشيعة والثانى كانوا من الزهاد . وفى هذا الإطار ذهب الكثير من المولوية إلى الأماكن الشيعية المقدسة والتزموا بعادات الشيعة ومناسباتهم ، وهو الأمر الذى امتد فى المولوية والبكتاشية، وظهر فى كتاباتهم. جلبنارى: مرجع سابق ، ص ١٣٩ ، ١٦٥-١٧٠ ، ١٧٣، ١٨٨-١٩٠، ٢٢٨ ، ٣٢٣ - ٣٢٦ ، ٣٤٥ - ٣٤٨، ٣٥٢ ، ٣٦٧ ، ٣٧٣ .

(١٥٤) عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين ، ج ٧ ، ص ١٥ . ج ١٠، ص ١٤٣ ، ١٤٤ .

(١٥٥) عندما عاد جركس من قبرص ، ذهب إلى منزل إفرنج يوسف بدمياط حيث "أرسل جاب درويش من التكية . طلب منه بدلة الدراويش العبا والجبة والحزام البلغمى والبازوند والهراش والكشكول والسبحة .. وإذا به أتى بهم بدلة درويش أعجمى لا كلام . وجاب خدام أعطاه بكرج وإبريق وفرش وغطا وآلة قهوة وقال له انزل أنت وهذا الدرويش فى مركب معاش اخدمه على ما ينبغى لما تصل به بولاق ، انقل الحوايج فى مركب معاش والدرويش يروح إلى حاله". الدمرداشى: الدرة ، ص١٩٨ ، ٢٠٩ . المناوى : الكواكب ، ج ٤ ، ص ١٣١ .

(١٥٦) الدمرداشى : الدرة ، ص١٦٢، ١٦٥ . الجبرتى : عجائب ، ج ٢، ص٢١١ . جلبنارى : مرجع سابق ، ص٥٢٧ .

(١٥٧) وقد ترك مؤسس الحروفية تعاليمه فى كتاب بالعربية وبالفارسية وسمّاه جاويدان كبير (الخالد الكبير) ضمنه الكثير من الأماكن مثل مصر وأصفهان. براون : مرجع سابق، ج ٣ ، ص ٤٠٣ - ٤١٠ ، ٤٩٨ .

(١٥٨) للمزيد : الشعرانى : الطبقات ، ج ٢ ، ص ١٠٤ . المناوى : الكواكب ، ج ٤ ، ص ٢٣ .

(١٥٩) البكرى : المنح ، ص ٢٣ ، ٢٤ .

(١٦٠) إدوارد وليم لاين : عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم ، ت : سهير دسوم ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ١٩٩١ ، ص ٢٥٢ ، ٤٤٩ ، ٤٧٢ ، ٤٨١ .

(١٦١) ذكر الجبرتي أن الخلوتية " نسبة إلى سيدى محمد الخلوتي .. ويعرفون بالقرباشلية نسبة إلى سيدى على أفندى قره باش .. وهى طريقة مؤيِّدة بالشريعة الغراء " . وهى وحسبما نقل عن يوسف العجمي [لاحظ ذلك] تعود إلى عليّ بن أبى طالب وصولاً إلى مصطفى البكرى الذى لقن محمد الحفناوى . هذا وإن جلبنارى قد بالغ حين كتب أنه فى ١٦٧٧ " انشعبت من الخلوتية شعبة الطريقة المصرية وكانت تزعم بنبوة الإمامَيْن الحسن والحسين " . الجبرتي : عجائب ، ج ١، ص٢٨٠ ، ٢٨٣ . جلبنارى : مرجع سابق ، ص ٢٦٩ .

(١٦٢) كتب الجبرتي أن عبد الله بكتاش الترجمان كان من مؤيِّدى الباشا فى صدامه مع عمر مكرم عام ١٨٠٩ ومن المقربين له عام ١٨١٢ . وأشار إلى أن دراويش المولوية توقفوا عن احتفالاتهم المعتادة في تكاياهم عام ١٨١٥ حزنًا على موت طوسون. الجبرتي : عجائب ، ج ١، ص ٤٧٨ . ج ٤، ص١٣٧ ، ٢٢١ ، ٢٧٨ ، ٤٧٨ .

(١٦٣) معية تركى ، دفتر ٧٢٧ ، م ٤٩ ، الديوان الخديوى إلى ميرلاى السفن الجهادية ، ١٤ ربيع الآخر ١٢٤٣ .

(١٦٤) بعد غيبة الإمام الثانى عشر نادى الشيعة بمبدأ الإمام الغائب الذى قد يستمر غيابه عدة قرون أو آلافًا من السنين . ويربط الإمامية بين رجعته وظهور المهدى . وإذا كان السنة يؤمنون بالمهدى على أنه مبشر بنهاية العالم ولا يربطونه بشخص معين.. فإن الإمامية اعتبروه واحدًا من الأصول الثابتة والأساسية لمذهبهم ، واعتقدوا أنه سيقتفى أثر النبى وأمره وسيحيى الحقوق المندرسة وسيعيد إلى الإسلام بهاءه وسيقيم الحكومة الروحية التى سحقها الخلفاء السُّنِّيُّون . وهكذا كان انتظار المهدى فى فارس من الأفكار المهمة والقوية ، ونظر العامة إلى ظهوره على أنه ثورة اجتماعية فى الدين . بطروشوفسكي : مرجع سابق ، ص ٢١٥ ، ٢٢٤ - ٢٢٧ ، ٣٤٧ .

(١٦٥) د. محمود إسماعيل: مرجع سابق ، ص ١٨٩ ، ١٩٠ . ومن الجدير ذكره أن العاملى أورد الكثير من الأشعار عن " المهدى المنتظر " وضمَّنه فى " الكشكول" الذى كتبه فى مصر . ومنها قصيدة " الفوز والأمان فى مدح صاحب الزمان " وغيرها .

بهاء الدين العاملي : الكشكول ، الجزء الأول ، تحقيق : الطاهر أحمد الزاوى ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، سلسلة الذخائر ، العدد ٣٣ ، ١٩٩٨ ، ص ١٧٦- ١٧٩ ، ١٨٩ .

(١٦٦) وقد استدعاه "ملك الأمراء" لسؤاله فقال له : "أنا المهدى". على أنه اتضح جهله فى "مسائل العلم .. ولم يكن فيه من علامات المهدى شيء " وعندما أودعه خاير بك "بالبيمارستان مُكبَّلاً بالحديد مع المجانين" فإنه وجد من دافعوا عنه ، مثل الشيخ إبراهيم والشيخ حسن العثمانى. لقد "شفعا فيه" وأطلق سراحه " وكان هذا الرجل معظمًا عند العثمانية وفى خدمته جماعة كثيرة من الأعاجم نحو خمسين إنسانًا ، فلما خرج من البيمارستان ازدحمت عليه الناس ليروا المهدى ، فكان ذلك اليوم مشهوداً ".
ابن إياس : بدائع ، ج ٥ ، ص ٤٧٢ ، ٤٧٣ .

(١٦٧) وكتب الشعرانى أنه أخبره بما ملخَّصه أنه التقى فى دمشق بالمهدى المنتظر " وكانت عمامته كعمامة العجم " حيث لقنه الذكر وعلمه "ورده " وبعد سبعة أيام اختفى المهدى ، ليخرج العراقى سائحًا حتى وصل " بلاد العجم " وغيرها ثم "دخل مصر بعد خمسين سنة فى السياحة ". الشعرانى : الطبقات ، ج ٢ ، ص ١٢٦ .

(١٦٨) وهكذا كتب أحد الشعراء :

إذا لم يك المهدىُّ هـذا تيقّنـوا ببطلان ما قد يزعمون فلا مهدى

د. محمد سيد كيلانى : الأدب المصرى فى ظل الحكم العثمانى ، دار الفرجانى ، القاهرة ، ١٩٨٤ ، ص ١٦٠ .

(١٦٩) الأوامر والمكاتبات ، م ٥٧١ ، ٢ شعبان ١٢٣٩ . م ٥٩٩ ، ١٧شوال ١٢٣٩هـ .

(١٧٠) كحالة : معجم المؤلفين ، ج ٢ ، ص ١٩٧ . ج ٤، ص ١٦٦ .

(١٧١) بطروشوفسكى : مرجع سابق ، ص ٣٧٩ ، ٣٨٠ .

(١٧٢) براون : مرجع سابق ، ج ٣ ، ص ٢٤٧ .

(١٧٣) رغم تراجع مكانة العربية فى فارس بعد إسقاط الخلافة العباسية .. بقى لها رونقها كلغة لعلم الكلام وغيره وكانت إلى حد كبير لغة أهل الأدب والسياسة منذ العصر الإيلخانى . ومن المُلاحَظ أن معظم كتب الفرس فى الفقه والأصول والحديث والأخبار كانت بالعربية حتى القرن التاسع عشر . ورغم العداء لم تنقطع الصلات الثقافية بين العثمانيين

والصفويين حتى كان كِلاَ السلطان سليم والشاه إسماعيل يتكلم الفارسية والتركية ويتباريان في التهاجي بهما. وبينما كانت الفارسية لغة كتابة ولسان السياسة والأدب لدي الأتراك، كانت التركية واسعة الانتشار فى فارس وأهم لغة فى البلاط. كذلك وجدت علاقات بين بعض السلاطين وعلماء من الفرس، وأتقن العديد من العلماء والموظفين العثمانيين الفارسية وأدبها والعربية أحيانًا، ومنهم عبد الرحمن القونوى (ت ١٧٤٤) وعمر شفائى (ت ١٧٤٦) وعبد الحليم زاده (ت ١٧٥٨) وعباس الملقب بوسيم (ت ١٧٥٩) ومحمد بن خليل (ت ١٧٧٠) وأسعد الإيرانى (ت ١٧٧٨). المرادى: سلك، ج ١، ص ٢٢١، ٢٢٧. ج ٢، ص ٢٥٤، ٣٢٩، ج٣، ص ١٧٢، ج ٤، ص ٤٠. براون: مرجع سابق، ج ٣، ص ٨١، ٣٨٩ - ٣٩٤، ٤٣٩، ٤٦٨، ٤٩٦. ج ٤، ص٢٢ - ٢٤، ٣٥، ٢٦٧. كويلر ينج: مرجع سابق، ص ١٧٨، ١٨٠، ٢٤٢. د. محمد السعيد عبد المؤمن: مرجع سابق، ص أ، ٧٧ وغيرها. د. عباس صباغ: مرجع سابق، ص ٢٦٩- ٢٨٠.

(١٧٤) رحل العديد من الفرس لتلقِّى العلم فى الدولة العثمانية وبخاصة بالشام. للمزيد: محمد بن علىّ (عاشق أفندى): جد العاشق الذيل على الشقائق، تحقيق: د. عبد الجواد صابر، مطبعة الحسين، ١٩٨٨، ص ١٠٥. الغزى: الكواكب، ج ١، ص١٧٣، ٢٤٠، ٢٥٥، ٢٦٣، ٣٠٧. ج٢، ص ٢٦، ٣٩، ١٢١، ٢١٥، ٢٤٦، ٢٥٣، ٢٥٦. ج٣، ص٦٠، ١٢٨، ١٩٠. المحبى: خلاصة، ج١، ص١٨٩، ٣٩٧، ٤٨١. ج ٢، ص ٦٢، ٤٢٤. ج ٣، ص ٤٧٥. ج ٤، ص ٢٩٤، ٤٦١. المرادى: سلك، ج ١، ص ٥، ٨٢. ج ٣، ص ٢٧٤.

(١٧٥) ومنهم عبد الله العجمى (ت ١٥٩١) وأحمد العجمى الوفائى (ت ١٦٧٥). خير الدين الزركلى: الأعلام، ج ١، دار العلم للملايين، ط ٨، ١٩٨٩، ص ٩٢. كحالة: معجم المؤلفين، ج ١، ص ١٥٣. ج ٦، ص ٢٠٥.

(١٧٦) ذكر المرادى نقلاً عن المقريزى أن طلبة الأزهر سنة ٨١٨ هـ "بلغت عدتهم .. سبعمائة وخمسين رجلاً ما بين عجم وزيالعة ومن أهل ريف مصر ومغاربة...". المرادى: سلك الدرر، ج ٣، ص ٢٧١، ٢٧٢.

(١٧٧) ابن إياس: بدائع، ج ٥، ص ٣٢٤.

(١٧٨) المرادى : سلك الدرر ، ج ١ ، ص ٥ ، ٦ . ج ٣ ، ص ٢٢٩ .

(١٧٩) " الوجيه المبجل .. مدرس المحمودية ، كان إمامًا فاضلاً محققًا له معرفة بالأصول. قرأ العلوم ببلاده وأتقن فى المعقول والمنقول ، وقدم مصر ومكث بها ". الجبرتى : عجائب ، ج ٢ ، ص ٤٦ .

(١٨٠) ظهر رحيل الأروام إلى فارس بشكل خاص مع أواخر القرن الخامس عشر وبداية السادس عشر أى قبل اشتداد عود التيار الشيعى الصفوى . أما بالنسبة إلى العرب فقد تبوأت الشام المكانة الأولى ، واستمر رحيل بعضهم إلى فارس طوال العصر العثمانى ، لا سيما مع كون بعضهم من الشيعة . للمزيد : الغزى : الكواكب ، ج ١ ، ص ١٨ ، ٢٢٣ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ . ج ٢ ، ص ١١٣ ، ١٨٥ ، ١٨٦ . المحبى: خلاصة ، ج ٣ ، ص ٣٢٢ . ج ٤ ، ص ٤٩ ، ٥٤ . المرادى : مصدر سابق ، ج ٣ ، ص ٢٠٢ . ج ٤ ، ص ٢١٩ ، ٢٢٠ .

(١٨١) براون : مرجع سابق ، ج ٤ ، ص ٥٨ ، ٢٦٧ ، ٢٩٣ . د. ألبرت حورانى : مرجع سابق ، ص ٥٧ ، ٧٦ . د. موسى الموسوى : الشيعة والتصحيح ، ص ٧١ . د. عباس صباغ : مرجع سابق ، ص ٢٨٤ .

(١٨٢) حظى العاملى باهتمام واحترام معاصريه. وذكر ابن معصوم أنه وُلد ببعلبك ٩٥٣هـ وانتقل به والده إلى بلاد العجم . أما الطالوى فذكر أنه وُلد بقزوين . على كلٍّ تلقى العاملى تعليمه فى فارس "وهناك همى غيث فضله .. فألف وصنف .. وقصدته علماء تلك الأمصار .. وغالت تلك الدولة في قيمته .. وتبسمت به دولة شاه عباس .. فكان لا يفارقه سفراً وحضراً ولا يعدل عنه سماعًا ونظراً ". ويمثل ما تم الاختلاف حول مولده تم الاختلاف حول مذهبه. وذكر المحبى أنه "لم يكن على مذهب الشاه فى زندقته .. إلا أنه غالى فى حب آل البيت ". ونقل من ترجمة أبى الوفا العرضى له أنه " قدم حلب مستخفيًا فى زمن السلطان مراد .. مغيِّراً صورته بصورة رجل درويش" ومن ثم حضر درس والد العرضى وسأله " عن أدلة تفضيل الصديق على المرتضى، فذكر حديث ما طلعت الشمس ولا غربت على أحد بعد النبيِّين أفضل من أبى بكر .. فرد عليه ثم أخذ يذكر أشياء كثيرة تقتضى تفضيل المرتضى فشتمه الوالد وقال له رافضى شيعى وسبه ، فسكت". على أن العاملى أوعز إلى أحد تجار العجم بصنع وليمة يجتمع فيها مع العرضى . وبعد التعارف أخبره العرضى أن " إيراد مثل هذا

الكلام بحضور العوام لا يليق". وهنا قال العاملي" أنا سُنِّي أحب الصحابة ولكن كيف أفعل سلطاننا شيعي ويقتل العالم السُّنِّي" وذكر العرضي أن العاملي "كان كتب قطعة على التفسير باسم شاه عباس فلما دخل بلاد السُّنَّة قطع الديباجة وبدلها وذكر أنه كتب ذلك باسم السلطان مراد ". والحقيقة أن العاملي أورد بعض الأفكار التي تعمل على التقريب بين السنة والشيعة ، ومن ذلك دحضه الطعن في إسناد القراءات السبعة ورواياتهم ، وإيراده شعراً في من اسمه أبو بكر وعليّ . على أنه أورد الكثير من الأشعار في مدح عليّ بن أبي طالب ، بل وما ينهى عن ذم أبي بكر وعمر وما يذمهما أيضاً كما أورد الكثير من تراث الشيعة الداعي إلى حب آل البيت ولم يُخْفِ احترامه الكبير للشاه عباس ومدحه حتى في الكشكول الذي ألف في مصر بمدائح كثيرة جاعلاً منه" مالك رقاب سلاطين الأمم ، خليفة الله في بلاده .. المجاهد المرابط .. المجتهد في إعلاء سنة رسول الله ﷺ ." وعلى كلٍّ فزيارة الرجل لمصر ، وكذا ما كتبه ، إنما تحتاج إلى الوقفات عديدة. العاملي : الكشكول ، ج ١ ، ص ٤٧ ، ٧٥ ، ١٧٦- ١٧٩ ، ١٩٦- ١٩٨ . ج ٢ ، ص ٢١٩ ، ٤٥٠ . المحبي : خلاصة ، ج ٣ ، ص ٤٤٠ - ٤٤٣ ، ٤٥٥ .

(١٨٣) براون : تاريخ الأدب في إيران ، ج ٤ ، ص ٢٩٤ .

(١٨٤) مما جاء في تلك القصيدة :

دع عنك تعنيبي وإلا فاشـ ـكوك لدى ذى الحضرة العالية
سيدنا الأستاذ كهف الورى منقذهم من دَرَك الهاوية

ومنها :

قد طفت في الأرض بأكنافها مِن حَضَرٍ فيها ومن بادية
وأبصرت عيناي كل امرئ في فنه ذي قدم راسية
حتى توصلت إلى خدمة أستاذ من مملكة نائية
أطوي الفيافي قاصداً نحوه ميمماً سدته العالية
فاستحقرت عيناي مَنْ كنت قد أبصرته في الأعصُر الماضية

الخفاجي : ريحانة الألبا ، ص ٨٢ . الغزي : الكواكب ، ج ٢ ، ص ٦٧ - ٧٢ .

(١٨٥) المحبي : خلاصة ، ج ٣ ، ص ٤٤٠ - ٤٤٣ ، ٤٥٥ .

(١٨٦) العاملي : الكشكول ، ج ١ ، ص ١٩١ . د. محمد السعيد عبد المؤمن : مرجع سابق ، ص١٢٠ ، ٢٤٩ .

(١٨٧) أشار الخفاجي أن البعض ذكره بسوء . وعلى كل فإن العاملي رد على ذلك في "سانحة ". العاملي : الكشكول ، ج ١ ، ص ١٦١ . شهاب الدين الخفاجي: ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا ، المطبعة الوهبية ، ١٢٩٤، ص ١٨١ .

(١٨٨) لقد كتب " لو لم يأت والدى .. من بلاد العرب إلى بلاد العجم ولم يختلط بالملوك لكنت من أتقى الناس .. لكنه طاب ثراه أخرجني من تلك البلاد وأقام في هذه الديار فاختلطت بأهل الدنيا واكتسبت أخلاقهم الرديئة واتصفت بصفاتهم الدنيئة. ثم لم يحصل لي من الاختلاط بأهل الدنيا إلا القيل والقال والنزاع والجدال وآل الأمر إلى أن تصدى لمعارضتي كل جاهل وجسر على مباراتي كل خامل". العاملي : الكشكول ، ج ١، ص١٦٢ .

(١٨٩) ابن إياس : بدائع ، ج ٤ ، ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ .

(١٩٠) كمثال كان محمد وفا له " لسان غريب في علوم القوم". وعندما طُلب من ابنه أن يشرح تائيته كان جوابه :" لا أعرف مراده لأنه لسان أعجمي على أمثالنا ". أما محمد السروى (ت ٩٣٢هـ) فكان " يغلب عليه الحال فيتكلم بالألسن العبرانية والسريانية والعجمية ". الشعراني : الطبقات ، ج ٢ ، ص٢٠ ، ١١٥ .

(١٩١) وهكذا فإن "التحفة السنية إلى الحضرة الحسنية في لغة الفرس بالتركية"وضعه محمد بن مصطفى بن لطف الله الدشيشي وسماه باسم حسن باشا أمير الأمراء بمصر وذلك عام ٩٨٨هـ. ومن الباشوات الذين تولوا حكم مصر ، وكانوا من العارفين بالفارسية محمد راغب باشا (ت ١٧٦٢) . حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، ج ١، مطبعة المعارف ، إستانبول ، ١٩٤٣، ص ٣٦٧ . كحاله : معجم ، ج ٩ ، ص ٣٠٥ .

(١٩٢) من هؤلاء جلال زاده (ت ١٥٦٥) الذى انتهى به الأمر بتولى " تفتيش بعض الأحوال بمصر " كما تولى" قضاء مصر ". وعندما طلب منه الأمير أبو يزيد بن سليمان ترجمة كتاب "جامع الحكايات" من الفارسية " ترجمه له بتمامه بقلم واحد

بلا تسويد". وإسحاق أفندى منلا جق زاده ت ١٧٨٠ " قاضى العساكر" الذى " برع بالأدب .. وحفظ الأشعار العربية والفارسية " وتولى قضاء مصر "واجتمع بعلمائها وأمرائها واختلط بهم وأحبوه ". عاشق أفندى : جد العاشق ، ص ٧٥ – ٧٧ . الغزى : الكواكب ، ج ٢، ص ٢٥٦ . المرادى : سلك ، ج ٢، ص ٢٣٠ .

(١٩٣) المرادى : سلك ، ج ٤ ، ص ٢٤٨ . الزركلى : الأعلام ، ج ٥ ، ص ٢٠٤ . كحالة: معجم ، ج ٥ ، ص ٢٩٥ .

(١٩٤) الجبرتى : عجائب ، ج ١ ، ص ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٥١٤ ، ٥١٥ . ج ٢ ، ص ٢٩٣ . ج ٤ ، ص٣٧٢ ، ٣٧٣ .

(١٩٥) هذا ما جاء في العديد من الأعداد. وهكذا فإن فيض اللّه أفندى كان " أحد معلمى التلامذة لغتى الفارسية بمكتب الفرسان". وعندما ذهب للحج تم تعيين شخص آخر ليقوم بمهمته. أما مكتب الجيزة فكان به محمد أفندى " معلم العربى والفارسى". الوقائع المصرية ، عدد ٣٧٧ ، ٢٨ ذى القعدة ١٢٤٧ . عدد ٤٠٧ ، ٢٣ صفر ١٢٤٨هـ (حوادث مجلس الجهادية). وانظر أيضًا : د. أكمل الدين إحسان أوغلى: الأتراك فى مصر وتراثهم الثقافى (دراسة تحليلية وثبت ببليوغرافى لإرثهم المطبوع منذ عهد محمد على ، ت : صالح سعداوى ، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية (إرسيكا) ، إستانبول ، ٢٠٠٦ ، ص ١٥٢ ، ١٦٣وغيرها .

(١٩٦) أنجلو ساماركو : وثائق البحرية المصرية فى عهد محمد على ، ترجمة : ولاء عفيفى النحاس ، مراجعة : د. حسين محمود ، دار الكتب والوثائق ، القاهرة ، ٢٠٠٥ ، ص ١٢٦ .

(١٩٧) تركت اللغات العربية والفارسية والتركية تأثيرات متبادلة بعضها فى بعض . للمزيد انظر: محمد على الأنسى : الدرارى اللامعات فى منتخبات اللغات ، د.ت.ط. د. أحمد السعيد سليمان : تأصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

(١٩٨) وقد كتب فى ذلك :

وَخُودٍ من بنات الفرس ألقت ... محبتها لهيبًا فى حشائى

وقد ملَّكتها رقى وحلَّت ... محل السر منى والفؤاد

تعاملنى بما يسبى فؤادى ... وتمنحنى سرورًا باللقاء

سطا فينا النوى فأتيتها كى ... أمتِّع ناظرى قبل التنائى

وقالت لى وقد أذرت دموعًا ... على الخد المكلل بالبهاء

بألفاظ تحاكى عقد در ... جه بودى كرنبودى آشنائى

الجبرتى : عجائب ، ج ١ ، ص ٤٦٦ ، ٤٧٤ .

(١٩٩) الجبرتى : عجائب ، ج ١ ، ص ٣٣٩ ، ٣٤٠ . ج ٢ ، ص ٤٥ ، ٤٦ ، ٢٣٢ .

(٢٠٠) أمين سامى : تقويم النيل ، ج ٢، ص ٥٩٢ . عن الوقائع المصرية ، عدد ١٣٢، ٩ شعبان ١٢٦٤هـ/ ١٨٤٨م .

(٢٠١) د. محمد السعيد عبد المؤمن : مرجع سابق ، ص ١٥٥ ، ١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٨٧ .

(٢٠٢) ومما كتبه :

بحب آل البيت أصل مكارم الـ ... أخلاق أفضل من سما ينبوعه

وقوله :

لى منهم الغصن الذى طابت أصو ... ل كماله فسمت عليه فروعه

وقوله :

السيد الحسن العلى بن العلى ... من لم يفته من العلا مجموعه

وقوله :

فبحق جدك خل عن حد الهوى ... إن كان ينفع فى هواك خضوعه

وانظر إلى قلب صريع نكاية ... من غير طرفك لا يفيق صريعه

وحشا تصدع من مكابدة الأسى ... لولا الهنا ما ناله تصديعه

إلى أن يقول :

ما شأن عصر أنت واحد حسنه ... أن لا يتيه على الزمان ربيعه

الجبرتى : عجائب ، ج ١ ، ص ٣٤٢ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ . ج ٢ ، ص ٤٥ ، ٤٦ .

(٢٠٣) الجبرتى : عجائب ، ج ١ ، ص ٣٧٢ ، ٣٧٧ ، ٤٥٩ .

(٢٠٤) من المؤلفات عن الأشراف وآل البيت "رد العقول الطائشة إلى معرفة ما اختصت به خديجة وعائشة " لعبد القادر الشاذلى (ت نحو ١٥٢٨م) و"الصفوة بمناقب آل بيت النبوة" لعبد الرءوف المناوى (ت ١٦٢٢) و" إتحاف السائل بما لفاطمة رضى الله عنها من الفضائل" لمحمد القلقشندى (ت ١٦٢٥) و" تحفة الراغب فى سيرة جماعة من أهل البيت الأطايب " لأحمد القليوبى (ت ١٦٥٨) و" الإتحاف بحب الأشراف" و" منائح الألطاف فى مدائح الأشراف " لعبد الله الشبراوى (ت ١٧٥٨) و" الروض النضير فى ما يتعلق بآل بيت البشير النذير " لشهاب الدين السجاعى (ت ١٧٨٢) و" مشارق الأنوار فى آل البيت الأخيار" لعبد الرحمن الأجهورى (ت ١٧٨٤) و" نُصرة الحاكم بتفضيل الشريف على العالم " لعبد الرحمن المغربى (كان حيًا ١٧٨٦) و" إتحاف أهل الإسلام بما يتعلق بالمصطفى وآل بيته الكرام " لمحمد الصبان (ت ١٧٩٢). البغدادى: إيضاح ، م ١، ص ١٥ ، ١٩ ، ٢٤٨ ، ٥٩١ . م٢، ص ٦٨ . كحالة : معجم ، ج ٥ ، ص ١١١ ، ١٣٥ . ج ٦ ، ص ١٢٤ . الزركلى : الأعلام ، ج ٤ ، ص٤٣ ، ١٣٠ . ج ٦ ، ص ٢٠٤ ، ٢٩٧ .

(٢٠٥) ممن انتسب إلى آل البيت فى مصر على ابن النقيب (ت ١٧٧١م) وعاد نسبه الأعلى إلى الإمام الحسين وكانت أهم وظائفه "إملاء درس الحديث النبوى بمسجد المشهد الحسينى". الجبرتى: عجائب، ج١، ص٤٨٨ ، ٤٩٠ .

(٢٠٦) انظر مثلاً محاولة الوردانى الربط القسرى بين حب آل البيت والتشيُّع . صالح الوردانى : الشيعة فى مصر من الإمام على حتى الإمام الخمينى ، مكتبة مدبولى الصغير ، القاهرة ، ص٧١ ، ٧٢ .

(٢٠٧) انظر نماذج ذلك فى : الغزى : الكواكب ، ج ٢ ، ص ١٢١ ، ١٢٣ . المرادى : سلك الدرر ، ج ٣ ، ص ٢٤ .

(٢٠٨) كان الانتساب إلى آل البيت من الأمور المهمة وإن عاب الخفاجى على العثمانيين "ما جرى على النسب العلوى من البلية وما عم من دخول أولاد النصارى .. وأكثر هؤلاء الأتراك لو طلب منهم الحسن والحسين درهمًا ما أعطوه وتبرأوا من نسبه وقطعوا سببهم من سببه ". الخفاجى : ريحانة ، ص ٨٠ ، ٢٠٦ ، ٢٦٢ .

العلاقات المصرية - الإيرانية فى عهد أسرة محمد علىّ (١٨٠٥ - ١٩٥٢م)

عبد الوهاب بكر

حكمت أحوالَ مصر السياسية خلال معظم سنوات القرن التاسع عشر ، طبيعةُ العلاقات بينها وبين الدولة الفارسية [١] ، فمصر كانت منذ سنة ١٥١٧ مجرد ولاية عثمانية خاضعة لقوانين ونظامات الحكومة المركزية فى القسطنطينية . صحيح أن علاقات الدولةِ المركزية بولاياتها كانت تتراوح بين المركزية المتشددة ، واللامركزية المتراخية ، تبعًا لتراوح الدولة المركزية بين القوة والضعف ، لكن القرن الثامن عشر شهد - على أى حال - تطور أحوال الدولة العثمانية وتطور علاقلاتها بالعالم الغربى واضطرارها فى كثير من الأحوال إلى توسيع دائرة علاقتها وعلاقات ولاياتها بالعالم الخارجى .

كانت الدولة العثمانية تحرص فى أغلب أطوار حياتها على قطع كل صلة لولاياتها بالعالم الخارجى خشية أن تتعرض أملاكها لنفس

المصير الذى تعرضت له الإمبراطوريات الآسيوية التى أقامت علاقات تجارية أو غير تجارية مع أوروبا .

فقد استسلمت هذه الإمبراطوريات لتفوق أوروبا العسكرى فيما بعد ، وسيطرت أوروبا على هذه الإمبراطوريات .

لذلك فقد احتفظت الدولة بحقها فى قصر معاملات ولاياتها (المحروسة) مع العالم الخارجى على الحكومة المركزية فى (القسطنطينية) .

ومع هذا فإنه يجب الاعتراف بأن الدولة العثمانية قد بلورت فى بعض مراحل حياتها نظامًا يقوم على تركيز السلطة الاقتصادية بيدها (نظامًا مركزيًا) ، وذلك من خلال الاستناد على أجهزة بيروقراطية ذات قوة مركزية وتفاعل قوى بين المركز والأقاليم . كذلك فقد تبلورت بعد ذلك أو خلال ذلك صيغ من اللامركزية بالاعتماد على الجماعات والنخب والأحزاب والاثنيات والأسر (الجليلى فى الموصل - العظم فى دمشق - الحسينيين فى تونس - الأشراف فى مكة - المماليك فى مصر - الباشوات فى بغداد) [٢] .

ويمكن القول إن عهد التنظيمات (١٨٣٩ - ١٨٧٦م) قد شهد مرحلة من مراحل اللامركزية ، وفيه أدخلت الدولة العثمانية ولاياتها التابعة فى نوع من العلاقات الخارجية عندما ركزت على تطبيق المعاهدات التى كانت تبرمها مع الدول الأخرى على هذه الولايات باعتبارها بلاداً تابعة لها ، يطبق فيها ما يطبق فى الدولة الأم . على أن

هذا لا يعنى أن ما كان يطبق فى الدولة الأم لم يكن يطبق فى الولايات ، لكن مسألة التركيز هذه كانت نوعًا من التأكيد من جانب الدولة المركزية على ضرورة مراعاة المعاهدات المبرمة بين الدولة والبلاد الأجنبية ، والتقيد الصارم بنصوصها .

وقد استلزم هذا الوضع قيام نوع من العلاقات ، الخاضعة لرقابة الدولة ، بين الدول الأجنبية من خلال تمثيل سياسى أو تجارى فرعى ، وبين الحكومات المحلية .

حتى ١٨٤٨م لم تكن العلاقات بين مصر كولاية تابعة للدولة ، والإمبراطورية الفارسية ، واضحة أو ذات شكل ملموس نتيجة لما ذكرته فى السطور السابقة . وإن كان هذا لم يمنع من وجود نوع من الاهتمام المحلى من جانب حكام مصر بثقافة الفرس القديمة ، وحرص هؤلاء الحكام على اقتناء الكتب الفارسية النادرة . لكن هذا كان نوعًا من العلاقات من جانب واحد ، ولا يمكن أن يعتبر - فى إطار هذه الدراسة - نوعًا من العلاقات التى نرصدها . أعنى أنه كان لدى مصر فى ذلك الوقت اهتمام واضح بالحضارة الفارسية تَمَثَّل فى طبع بعض الأعمال القيمة لفرس (تحفة أى وهبى - ١٨٢٧ - مطبعة بولاق) ، واحتفاظ دار الكتب فى مصر بكتب ومخطوطات فارسية قيمة ، وصدور صحف فارسية فى مصر (حكمت ١٨٩٢ - ثريا ١٨٩٨ - بروروش ١٩٠٠) [٣] .

ويسجل عام ١٨٤٨ بداية الشكل الحقيقى للعلاقات المصرية الفارسية عندما وقَّعت الدولة العثمانية والإمبراطورية الفارسية فى (أرضروم) المعاهدة العثمانية الفارسية التى نظمت العلاقات بين الدولتين فى شأن معاملة رعاياهما .

بدأت منذ ذلك الوقت معالم علاقات بين مصر (الولاية) وفارس (الدولة) من خلال ما تقرر فى المعاهدة المذكورة من إنشاء ما كان يُسَمَّى فى ذلك الوقت (شاهبندريات) فى ولايات الدولة ومن بينها مصر . وعلى ذلك فقد تأسست الشاهبندرية (القنصلية) الفارسية فى مصر سنة ١٨٥٢ وعرفت باسم (باش شهبندرية إيران) . اختصت (الشاهبندرية) الإيرانية برعاية مصالح الرعايا الإيرانيين فى مصر .

ومع وقوع مصر تحت الاحتلال البريطانى فى سنة ١٨٨٢ ، وضعف الروابط بين مصر والدولة صاحبة السيادة نتيجة لهذا الاحتلال ، تطورت العلاقات الرسمية بين البلدين وأصبحت الشاهبندرية (وكالة سياسية) فى سنة ١٨٨٤ ، وأصبحت صفة الوكيل السياسى لإيران فى مصر بادية فى توقيعاته التى كان يرمز فيها بصفته (القنصل العام والوكيل السياسى لحكومة إيران) .

ظل هذا الوضع حتى سنة ١٩٢٢ ، وعندما صدر تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ اعترفت إيران باستقلال مصر - وإن كان استقلالا منقوصًا - وتطورت الوكالة السياسية الإيرانية إلى (مفوضية) .

ومن المؤكَّد أن مصر كانت تقوم برفع مستوى علاقاتها مع إيران فى ذلك الوقت بصورة مماثلة . ففى سنة ١٩٢٥ مثَّل مصرَ أحد رجال وزارة خارجيتها فى حفل تتويج (الشاه رضاخان) [٤] .

فى فبراير سنة ١٩٢٨ عقد البلدان معاهدة (الصداقة وحقوق الإقامة) ، وبعد توقيع مصر معاهدة التحالف مع بريطانيا سنة ١٩٣٦ أصبح مستوى التمثيل السياسى بين البلدين هو مستوى السفارة ، بمعنى أنه أصبح لكل من البلدين سفارة فى عاصمة الآخَر (١٩٣٨/٢١/٣١) .

وقد تُوِّجت العلاقات المصرية – الإيرانية فى مارس ١٩٤٩ بزواج (الأمير محمد رضا بهلوى) ولى عهد إيران بالأميرة فوزية شقيقة (الملك فاروق) الجالس على العرش العلوى وآخر حكام الأسرة العلوية . وقد نجم عن هذا القران الملكى ارتفاع مستوى التمثيل السياسى بمنح السفيرين فى البلدين لقب (مندوب فوق العادة) ، وهو ما يعنى رفع هذا المستوى إلى ما فوق السفارة .

فى الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ – ١٩٤٥) تماثلت الأحوال السياسية للبلدين ، فقد عانى كل منهما من ضغوط سياسية وكان البريطانيون هم (العدو المشترك) للدولتين .

كانت بريطانيا تدرك فى أثناء سنوات الحرب ميول (فاروق) تجاه ألمانيا . وقد كشفت الوثائق التى وقعت فى يد بريطانيا بعد سقوط

ألمانيا (١٩٤٥) عن وجود صلات قوية بين فاروق وألمانيا من خلال ممثلى مصر الدبلوماسيين فى بعض العواصم الأوروبية (برن - صوفيا - أنقره - روما - مدريد - لشبونة) . كانت هذه الوثائق قد كشفت - كما سبق أن ذكرت - عن آمال (فاروق) فى هزيمة الحلفاء وانتصار المحور . لكن أهم وثيقة بين هذه الوثائق كانت تلك التى تضمنت معلومات عن برقية أرسلها (فاروق) إلى سفيره فى (طهران) فى ٢٩ يونيو ١٩٤١ والتى جاء بها أن (فاروق) كان لديه أدلة بأن هيئة أركان الحرب البريطانية قد قررت احتلال حقول البترول الفارسية . ومضت البرقية تقول إن هذا الاحتلال كان ضرورياً كإجراء وقائى ضد هجوم ألمانى محتمل على العراق وإيران عبر الأراضى الروسية . وحددت البرقية مناطق الامتياز البترولى التابعة لشركة الزيت الأنجلو - إيرانية ، والموانئ على الخليج الفارسى ، وكرمانشاه (Kermanshah) . وذكرت البرقية أن حقول البترول العراقية القريبة من (كركوك والموصل) ستدخل فى إطار هذه العملية من خلال تقدم بريطانى من (رواندوز) Rowandoz على (ممر رايات) Rayatpass فى محافظة أذربيجان الإيرانية . وقررت البرقية أن الهجمة الرئيسية ستكون من غرب (بحيرة أورميا) Urmia قرب (خوى) تجاه (جولفا) Djulfa . كلَّف (فاروق) سفيره فى طهران أن يضع هذه المعلومات الخطيرة بين يدى (الشاه رضا بهلوى) والسفير الألمانى هناك .

ويمضى تقرير ألمانى عن هذه البرقية فى شرح ما جرى بعد ذلك ، فيقول إن الشاه قد أبلغ على الفور بمحتوى رسالة الملك فاروق فى الأول من يوليو ، وأنه كان متأثراً للغاية من المعلومات التى تضمنتها رسالة فاروق ، وأنه (أى الشاه) طلب من السفير الألمانى أن لا يكشف عن هذه الأمور لأى جهة . ويمضى التقرير يقول إن الشاه بدأ إثر ذلك فى وضع الترتيبات العسكرية المفيدة التى يمكن اتخاذها (٥) .

وقد شهدت فترة الأربعينيات من القرن العشرين مظاهر عديدة من العلاقات بين البلدين ، كان أهمها المساندة الإيرانية للقضية المصرية فى مجلس الأمن سنة ١٩٤٧ ، وقد تعاونت الدولتان فى مجالات الأمن السياسى ، فكانت مصر ترفض منح تأشيرات الدخول إلى أراضيها للأشخاص الذين تبدى الحكومة الإيرانية شكوكًا حول نشاطهم المناهض .

ومع هذا فإن العلاقات أصابها بعض الفتور فى أعقاب انفصال الشاه محمد رضا بهلوى عن زوجته الإمبراطورة فوزية فى سنة ١٩٤٨ .

وقد أحدث اعتراف (إيران) بإسرائيل – وإن كان اعترافًا فعليًا فقط defacto ما لبث أن أصبح اعترافًا رسميًا فى مارس سنة ١٩٥٠ – شرخًا عميقًا فى العلاقات الإيرانية – المصرية رغم المحاولات الجادة لاستمرار أجواء الود والتقارب . فرغم تطور العلاقات بين الدولتين نتيجة لظروف ما بعد الحرب وتحول العالم إلى معسكرات وكتل ، وظهور قضية

الحرب الباردة ومحاولات الولايات المتحدة الأمريكية تكتيل أجزاء كبيرة من العالم حولها لمواجهة الاتحاد السوفييتى وسياساته الساعية إلى نشر الشيوعية فى أماكن كثيرة من العالم . ورغم تأثير الأحوال العالمية بعد الحرب على سياسات الكثير من الدول - ومن بينها إيران ومصر - ودخول الولايات المتحدة كقوة جديدة فى المنطقة ، ودور النفط الذى تزخر به المنطقة العربية ، فى سياسات واستراتيجيات القوى الكبرى ، والاتجاه الأوروبى نحو إقامة أحلاف عسكرية تضم دول منطقة الشرق الأوسط ، أقول رغم هذا كله ورغم تطور شكل العلاقات بين البلدين ، وتطور الحركات الوطنية فى كل من البلدين ، فإن بعض المساعى الحميدة كانت تظهر لبعض الوقت لتحسين شكل هذه العلاقات التى تسببت الأحوال الدولية السابق الإشارة إليها فى فتورها .

فقد تشكلت فى سنة ١٩٤٧ (جمعية التقريب بين المذاهب) ، وهى جمعية ضمت شخصيات سياسية وإسلامية من البلدين . كان هدف الجمعية هو تحسين صورة المذهب الشيعى عند أهل السُّنة ، وإيضاح أن دين الشيعة هو التوحيد المحض وتنزيه الخالق عن كل متشابه للمخلوق ، كما كان من أهدافها توحيد صفوف المسلمين على اختلاف مذاهبهم . وقد أصدرت هذه الجمعية مجلة (رسالة الإسلام) واستكتبت فيها عدداً من كبار علماء المسلمين من المذهبين كالشيخ (محمود شلتوت) الذى أصدر فتوى أجاز فيها التعبد بالمذهب الشيعى

الإثنا عشرى [٦] . وقد ظلت مجلة (رسالة الإسلام) تصدر على مدى ستة عشر عامًا حتى توقفت فى سنة ١٩٦٩ بعد صدور ٥٩ عددًا منها .

وقد أصدرت جمعية التقريب بين المذاهب هذه تفسيرًا للقرآن بعنوان (مجمع البيان لعلوم القرآن) للإمام (أبو الفضل الحسن الطبرسى) من علماء (الإمامية) والمتوفَّى سنة ٥٤٨هـ .

لكن الجمعية توقفت مع اندلاع الثورة الإيرانية الإسلامية فى سنة ١٩٧٩ بعد موقف العداء الذى وقفته مصر من الثورة المذكورة[٧] .

وفى إطار التقارب المذهبى هذا ، فإن جامعة الأزهر قامت بتدريس الفقه الشيعي كدراسة مقارنة ، كما طبعت وزارة الأوقاف المصرية كتب فقهاء شيعيين .

قلنا فى سطور سابقة إن التطورات العالمية بعد نهاية الحرب العالمية الثانية وظهور الولايات المتحدة كقوة مؤثرة فى العالم بصفة عامَّة ، ووريثة للنفوذ البريطانى فى منطقة الشرق الأوسط بصفة خاصَّة ، وظهور الاتحاد السوفييتى بعد الحرب كقوة منافسة للغرب المنتصر فى الحرب، ومحاولته (الاتحاد السوفييتى) اجتذاب أجزاء كبيرة من العالم إلى فلكه كقوة شيوعية كبرى فى العالم ، وهو ما أدى إلى قيام الولايات المتحدة بدورها بتكتيل دول العالم فى صفها فى مواجهة المد الشيوعى ، وذلك بإقامة الأحلاف الإقليمية والأحزمة بهدف تطويق المد الشيوعى ، فى ما سُمِّى فى ذلك الوقت (بالحرب الباردة)[٨]،

أقول إن هذا كله أدى إلى قيام حركات وطنية إقليمية مضادة تعارض التغلغل الأمريكي والأوروبي في بلادها ، وترفض التبعية ومظاهر الخضوع التي كان يبديها حكام هذه البلاد تجاه هذا الاتجاه الأمريكي الأوروبي . وتبلور هذا كله في النصف الثاني من الأربعينيات من القرن العشرين في شكل ارتفاع للمد الوطني المطالب بجلاء الجيوش الأجنبية المحتلة من البلاد المعنية ، ومقاومة ورفض الحكام المنبطحين الخانعين والخاضعين للغرب ، والمطالبة بتأميم الثروات الطبيعية التي كانت تحتويها هذه البلاد والتي كانت قد خضعت لعمليات نهب من جانب الدول الكبرى في أوقات سابقة .

كانت (إيران) و (مصر) نموذجين متطابقَين – مع بعض الفروق – لتلك البلاد التي تعرضت لتطورات ما بعد الحرب العالمية الثانية . فإيران كانت تعوم فوق بحر من النفط سيطرت عليه شركة البترول الإنجليزية والإيرانية ، وهي شركة أوروبية من مخلفات عهود السيطرة والاستغلال السابقة على الحرب العالمية الثانية . وفي نظامها السياسي فإن (الشاه محمد رضا بهلوي) كان قد بدأ بعد سنوات من تولِّيه السلطة في أعقاب عزل بريطانيا وروسيا لوالده (رضا بهلوي) عن عرشه سنة ١٩٤١ ، يبحث له عن دور سياسي في المنطقة فلم يجد سوى أن يكون مواليًا للغرب ، دون أي انتباه للاتجاهات الوطنية في المنطقة ، والتي كانت تنادي بحق الشعوب في التحرر من التبعية ، ورفض

الأحلاف والوصاية الغربية ، وتأميم الثروات الوطنية ، والتخلص من الاستعمار العسكرى والاقتصادى [٩] .

أما مصر فقد كانت تكافح من سنوات طويلة استعماراً بريطانياً تمكَّن من البلاد منذ سنة ١٨٨٢ ، وظلت طوال السنوات الباقية من القرن التاسع عشر (بعد ١٨٨٢) والنصف الأول من القرن العشرين تكافح من أجل التحرر من ذلك الاحتلال الذى سيطر على الحياة السياسية والاقتصادية للبلاد ، وجعل من (قناة السويس) المجرى الملاحى العالمى الذى يربط بين البحرين المتوسط والأحمر ، ذريعة للبقاء بحجة حماية هذا الشريان الهامٍّ الذى يصلها بمستعمراتها فى الهند .

وتبلور هذا فى الأربعينيات المتأخرة فى حركة وطنية عالية المد يقودها حزب الأغلبية بقيادة السياسى العتيد (مصطفى النحاس زعيم حزب الوفد) الذى يحاول القصر الذى يتربع عليه (فاروق) آخر سلالة الحكام من أسرة (محمد على) ، أن يقلص نفوذه ويصفِّيه سياسياً دون اعتبار لتطورات الحوادث بعد الحرب وارتفاع موجة الحركة الوطنية .

وهكذا فإن (إيران) خضعت لسياسة موالية للغرب يقودها (محمد رضا بهلوى) ، فى مواجهة سياسى وطنى يقود حركة سياسية فحواها تأميم البترول الإيرانى لصالح الشعب والتخلص من السيطرة الغربية ، وأعنى به (محمد مصدق - ١٨٨٠ - ٥ مارس ١٩٦٧) ، الذى

اكتسب عداوة الشاه لسياسته المنادية بتأميم البترول الإيرانى والتخلص من السيطرة البريطانية على هذه الثروة الوطنية .

عندما اضطُرَّ الشاه إلى تعيين (محمد مصدق) رئيسًا للوزارة فى ١٩٥١ ، وأمم (مصدق) البترول الإيرانى ، كان مصطفى النحاس (١٥ يونيو ١٨٧٩ - ٢٣ أغسطس ١٩٦٥) خصم الملك فاروق وزعيم حزب الوفد صاحب الأغلبية الشعبية قد فاز فى انتخابات يناير ١٩٥٠ وشكل وزارة وفديَّة قامت بإلغاء معاهدة ١٩٣٦ التى كانت قد كبلت مصر بقيود التبعية للاحتلال البريطانى (١٠) .

وهكذا فإن تأميم (محمد مصدق) لشركة البترول الإنجليزية الإيرانية فى ١٩٥١ ، وإلغاء (مصطفى النحاس) لمعاهدة ١٩٣٦ فى أكتوبر ١٩٥١ ، جعل من الرجلين زعيمين لحركة تحررية وطنية فى كل من مصر وإيران ، إلى جانب اشتراكهما فى اكتساب كراهية الحاكم فى كل من بلديهما (إيران ومصر) ، كما وضع الرجلين فى وضع المقارنة للأسباب التى قدمتها هذه الدراسة .

لكل هذه الظروف المتشابهة فإن (مصر) كانت تتابع بإعجاب انتصارات (مصدق) على (الشاه) و (بريطانيا) العدو المشترك للبلدين . ومن هنا فإن حكومة الوفد الأخيرة وجهت الدعوة إلى (محمد مصدق) لزيارة مصر وهو فى طريق عودته من الأمم المتحدة التى كان قد حضر جلساتها للدفاع عن بلاده فى الشكوى التى كانت بريطانيا قد قدمتها

ضد (إيران) بسبب إقدامها على تأميم شركة البترول الإنجليزية - الإيرانية . وهكذا فإن الزعيمين (مصدق) و (النحاس) التقيا فى القاهرة فى نوفمبر ١٩٥١ ، بعد أيام من إلغاء (النحاس) لمعاهدة ١٩٣٦ واتفاقية السودان لسنة ١٨٩٨ ، وتمخضت الزيارة واللقاء عن الموافقة على الدخول فى مفاوضات ثنائية لتوسيع نطاق معاهدة الصداقة المصرية - الإيرانية لسنة ١٩٢٨ ، وإبرام معاهدات لتسوية الأمور الاقتصادية والثقافية والتجارية والملاحية ، والتوفيق والتحكيم والتسوية القضائية ، مع إمكانية انضمام دول أخرى بالشرق لهذه المعاهدات .

واعترفت إيران بلقب (ملك مصر والسودان) الذى كانت مصر تطالب به فى ذلك الوقت ، كما تم التنسيق مع إيران على تأييد الرغبات والأمانى المصرية فى الأمم المتحدة . كذلك فإن (حكومة مصدق) جمَّدت الاعتراف الإيرانى بإسرائيل الذى صدر فى ١٩٥١/٧/٤.

لقد حدث نوع من التنسيق السياسى بين مصر وإيران فى عهد (مصدق) و (النحاس) بدا أثره فى الفزع الذى أصاب بريطانيا عندما فقدت بترول إيران فى عملية التأميم التى قادها (مصدق) فى سنة ١٩٥١ ، وفى احتمالات فقد وجودها فى مصر بعد إلغاء (مصطفى النحاس) لمعاهدة ١٩٣٦ وما استتبع ذلك من فقدان الوجود البريطانى فى مصر لشرعيته المستمَدَّة من المعاهدة ، وكذلك ضياع قناة السويس .

ولقد امتد أثر وجود (مصدق والنحاس) على الساحة السياسية الإقليمية فى المنطقة فى سنة ١٩٥١ إلى تزايد المد الوطنى وتعالى حدة العداء للغرب بصفة عامة ، ولبريطانيا بصفة خاصة ، باعتبارها العدو المشترك للبلدين (إيران ومصر) .

لكن الأقدار التى صنعت كل هذا القدر من التشابه والتماثل بين حركتَىْ (مصدق) فى سنة ١٩٥١ و (النحاس) فى نفس السنة ، بقيت على تماثلها فى إخماد شعلة الحركة الوطنية التى تأججت جذوتها ، فقد سقط (النحاس) فى أعقاب (حريق القاهرة) فى أواخر يناير ١٩٥٢ ، ولحق به (مصدق) فى سنة ١٩٥٣ عندما نفذ الأمريكيون (العملية أجاكس) (Ajax) التى أعادت الشاه إلى الحكم بعد أن كان (مصدق) قد أبعده إلى إيطاليا (١١) .

إن قصة العلاقات المصرية - الإيرانية قصة جديرة بالاعتناء ، فهى تمثل منحنيات وارتفاعات العلاقات بين بلدين دينهما الإسلام ، يعتنق أحدهما المذهب الشيعىّ ، بينما يعتنق الآخر المذهب السُّنِّىَّ . ورغم المتناقضات المذهبية فقد قامت بينهما علاقات تراوحت بين الفتور والحميمية . شهدت روابط المصاهرة الاجتماعية ، وشهدت التحالف الوطنى لطرد الأجنبى ، وتعرضت لمؤامرات أمريكية وأوروبية لفسخ عُرَى الارتباط ، وولدت شخصيات سياسية كان لها أثر كبير فى تطور الأحداث الكبرى فى المنطقة . كان نظامهما السياسى ملكيًا فى البداية ،

ثم تحول إلى نظام ثورى أفرز فيما بعد نتائج لها أثرها ، ولا تزال تحدث حتى الآن (٢٠٠٧) .

إن المنهج العلمى يقتضى التوقف بالدراسة عند سقوط العرش العَلَوِى فى يولية سنة ١٩٥٢ ، ولكن ألم تُحْدِثْ ثورة يوليو ١٩٥٢ نوعًا من رد الفعل فى إيران عندما أقدم (محمد مصدق) على إسقاط الشاه وطرده إلى روما ، وهى نفس المنفى الذى لجأ إليه (الملك فاروق) عندما طرد من البلاد فى يوليو سنة ١٩٥٢ ، مع الاعتراف باختلاف المصائر بعد ذلك عندما نجح الشاه بفضل المساعدة الأمريكية فى العودة إلى عرشه ليتأجل مصيره النهائى إلى سنة ١٩٧٩ عندما قامت ثورة الخومينى الإسلامية ، بينما لم يستطع (فاروق) العودة إلى عرشه نتيجة لتخلى الغرب عنه ورفضه التدخل لإنقاذه - أليس فى هذا تأكيد بصحة نظرية الدومينو ؟ [١٢]

الهوامش

(١) لم يتحول اسم الدولة الفارسية إلى مسمى (إيران) إلا فى سنة ١٩٣٥م .

(٢) دانيال كريسليوس (جذور مصر الحديثة) - ترجمة وتعليق عبد الوهاب بكر - الطبعة الأولى - مكتبة نهضة الشرق - القاهرة - ٩١٨٥ - ص ١٦٦ .

انظـر أيضًا : سيار الجميل (الإدارة العثمانية اللامـركزية ونظامـها فى الولايات العربية - دراسة مقارنة للأنماط الإقليمية فى تاريخ الوطن العربى الحديث خلال القرن الثامن عشر) - من أعمال المؤتمر العالمى الرابع للدراسات العثمانية حول الحياة الإدارية وبروز القوميات ودور الأقليات فى الولايات العربية فى أثناء العهد العثمانى) - المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية - العددان (٥) و (٦) - فبراير ١٩٩٢ - ص ١١٣ - ١٧٦ .

(٣) محمد نور الدين عبد المنعم (كنوز إيرانية فى مصر) - مختارات إيرانية - العدد ٥٩ - يونيو ٢٠٠٥ - مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية - الأهرام - القاهرة ٢٠٠٥ .

(٤) محمد عبد الله عبد الرحمن (العلاقات الإيرانية من ١٩٢٨ إلى ١٩٦٧) - رسالة ماجستير غير منشورة - كلية الآداب - جامعة الزقازيق - ٢٠٠٥ - ص ١٥٦ .

(٥) F.o 371 - 63073 - xN01B03- Egypt 266 (173622-23) - Telegram . From German Minister Tehran, no. 565o of 3rd july, 1941

وقد استخدمت بريطانيا مجموعة الوثائق المتعلقة بعلاقات الملك فاروق بألمانيا فى أثناء الحرب لتهديد الحكومة المصرية بالكشف عن محتويات هذه الوثائق إذا أقدم (الوفد المصرى) - الذى كان يقدم الشكوى المصرية بمجلس الأمن الدولى ضد بريطانيا سنة ١٩٤٧ - على الإشارة إلى حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ ، الذى أجبرت فيه السلطات البريطانية الملك فاروق تحت وطأة التهديد بخلعه عن العرش ، على تكليف

(مصطفى النحاس باشا) زعيم حزب الوفد بتشكيل الوزارة فى ذلك الوقت ، بعد تدهور الأوضاع الحربية على الجبهة .

(٦) إن الإسلام لا يوجب على أحد من أتباعه اتباع مذهب معيّن ، بل يقول إن لكل مسلم الحق فى أن يقلد بادئ ذى بدء أى مذهب من المذاهب المنقولة نقلاً صحيحًا والمدونة أحكامها فى كتبها الخاصة ، ولمن قلد مذهبًا من هذه المذاهب أن ينتقل إلى غيره ولا حرج عليه فى شىء من ذلك .

– (العلاقات المصرية – الإيرانية من ١٩٢٨ إلى ١٩٦٧) – مرجع سبق ذكره – ص ١٧ – ٢٠ .

(٧) نفسه – ص ٢٠ ، ٢١ .

(٨) Lexicon Universal Encyclopedia- Lexicon pubications, New York- 1983- Vol. 5 -P., 98 .

(٩) Lexicon Universal Encyclopedia-Vol. 13- P., 634 .

(١٠) Lexicon Universal Encyclopedia- Vol. 13- P., 593 .

وآرثر جولد شميت (قاموس تراجم مصر الحديث) – المجلس الأعلى للثقافة – المشروع القومى للترجمة – القاهرة ٢٠٠٢ – ص ٦٢٦ .

(١١) عملية دبرتها المخابرات الأمريكية فى سنة ١٩٥٣ لإسقاط (مصدق) وإعادة الشاه (محمد رضا بهلوى) إمبراطور إيران الذى كان (مصدق) رئيس الوزراء قد نجح فى إخراجه وأسرته إلى خارج البلاد – انتهت العملية بعودة الشاه بعد ثلاثة أيام من طرده ، واستعادته لسلطته ، وسجن مصدق وتصفية أعوانه .

– محمد عبد اللّه (العلاقات المصرية – الإيرانية من ١٩٢٨ إلى ١٩٦٧) – مرجع سبق ذكره – ص ٧٨ ، الحاشية ٤ .

(١٢) نظرية الدومينو – نظرية تقول إنه إذا تعرض بلد ما لحدث مؤثر (ثورة – تحول إيديولوچى ، إلخ) ، فإن دولاً أخرى فى المنطقة قد تتبعه ، كسقوط قطع الدومينو التى صفت فى صف واحد . تم تطبيق هذا التناظر سنة ١٩٥٤ فى جنوب شرق أسيا بمعرفة الرئيس إيزنهاور وتبناه مؤيدو الدور الأمريكى فى حرب فيتنام فى ستينيات القرن العشرين . وقد أُحييت النظرية فى ثمانينيات ذلك القرن لتشخيص التهديد الذى كان يلاحظ ، من جانب الحركات اليسارية فى أمريكا الوسطى .

- Thr Concise Columbia Encyclopedia- Columbia University. press- Newyork- 1983- P., 239.

العلاقات المصرية الإيرانية بعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢

أحمد الخولى

توافق قيام ثورة يوليو مع وجود مصدق بما شكل حلقة فى سلسلة الاتفاق فى التوجهات السياسية للبلدين ، بل أصبحت الأهداف المشتركة عاملاً مهمًا فى التقارب بين النظامين فى كل من مصر وإيران ، ذلك أنه بغضٍ النظر عن رفض الأحلاف الغربية ، كانت هناك عوامل أخرى تصبٌ فى صالح التقارب المصرى الإيرانى ، منها :

- سحب حكومة مصدق الاعتراف الإيرانى بإسرائيل .
- الكفاح المشترك ضد بريطانيا .
- مسارعة الحكومة الإيرانية إلى الاعتراف بالثورة المصرية .

إلا أن هذا التقارب لم يَدُمْ طويلاً لسقوط حكومة مصدق عام ١٩٥٣م مما سبَّب صدمة كبرى لجمال عبد الناصر بما جعل وسائل الإعلام المصرية تتخذ منه منطلقًا لحملة إعلامية ضد نظام الشاه .

كانت اتفاقية الجلاء عام ١٩٥٤م دافعًا ، إذ أنها فى ما أدت إليه من قيام حلف بغداد وانضمام إيران ونشوب أزمة السويس ، كانت دافعًا لسوء التفاهم بين البلدين .

لكن علينا أن نشير فى هذا الخضمٍّ إلى أن تأميم مصدق لصناعة البترول فى إيران كان قد ألهب حماسة الجماهير بعامة فامتدت هذه الحماسة إلى تأميم قناة السويس ، إذ أن الشعوب عندئذ قد اتخذت من هذا التأميم نموذجًا عمليًا لاسترداد حقوقهم العملية (١) .

شهد عام ١٩٥٥م تحسنًا فى العلاقات فتم تبادل الزيارات من جانب مسئولين على مستوى منصب كبير كوزير الأوقاف مثلاً على رأس وفد كبير إلى طهران انتهت إلى تحسين الجانب الثقافى ، بل النظر فى موقف التبادل التجارى (٢) ، كما أوفد الرئيس عبد الناصر بعثة من الخبراء الزراعيين إلى إيران للوقوف على كيفية تقسيم الأراضى الملكية للإفادة من تجربتها فى توزيع أراضى الإصلاح الزراعى (٣) .

إذن هناك موقفان استفادت مصر إيجابيًا منهما حتى الآن من إيران ، أحدهما بطريق غير مباشر وهو التأميم ، والآخر مباشر وهو الإصلاح الزراعى ، وكلاهما من علامات ثورة يوليو .

شرعت العلاقات فى التماثل للتحسن بين البلدين فبدت شواهد تدل على ذلك مثل :

- برقية التهنئة من عبد الناصر إلى الشاه بمناسبة زواج ابنته عام ١٩٥٧م .

- الإسهام فى إغاثة منكوبى الزلزال عام ١٩٥٨م .

- توجيه دعوة من الحكومة المصرية إلى الحكومة الإيرانية للمشاركة فى اجتماعات الشركات التعاونية بالشرق الأوسط فى ١٧/١١/١٩٥٩م .

- عدم التدخل فى شئون إيران ومساندة الحركات أو التنظيمات الإيرانية المعارضة ، وهو ما ركزت عليه إيران بإلحاح .

ولكن رغم كل هذه الرغبة فى التوافق بين البلدين اتجهت الأحداث اتجاهًا معاكسًا ربما لأحد اتجاهين :

- التمهيد لاستئناف العلاقات الإيرانية مع إسرائيل كما استبان من توجيهات وسائل الإعلام الإيرانية بشن حملة ضارية ضد عبد الناصر ، تبع هذا التعرضَ الإعلامى لإعلان إيران الاعترافَ بإسرائيل فى نهاية يوليو عام ١٩٦٠م . وبدأت مرحلة حاسمة فى المواجهة السياسية الضارية بين البلدين .

- طبيعى أن يزداد التوقف المصحوب بالهجوم الإعلامى فى العلاقات المصرية الإيرانية ، فأسست الحكومة فى مصر إذاعة سرية موجهة إلى إيران يشرف عليها جهاز الأمن القومى غير تلك الموجهة من الإذاعة بإشراف مخابراتى - كنت أول من بدأ العمل بها ، واستمر هذا العمل حتى عام ٦٨ - ١٩٦٩م - وتوفر عليها جمع من الأساتذة الكبار أخصُّ منهم بالذكر المرحوم الأستاذ الدكتور عبد النعيم حسانين والدكتور

نصر اللّه الطرازى والأجيال الشابة عندئذ مثل الدكتور طلعت أبو فرحة والدكتور محمد السعيد عبد المؤمن .

لم يمض وقت طويل حتى وجدت الحملة العاتية التى شنتها القاهرة ضد نظام الشاه صدًى لها حتى فى أوساط الحوزات العلمية الإيرانية ، ولعل خُطَب وتصريحات الخمينى فى باريس تنطق بهذا التأثير ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن القاهرة استقبلت مجموعة قيادية بجوازات سفر مصرية للتدريب فى منطقة "إنشاص" فضلاً عن تحقيق مطالبهم ، ومنها :

- مساعدة مصر لبناء التيار التحررى .

- تأهيل بعض الشباب الإيرانى وإعدادهم .

كما شرعت الجهات المصرية فى الاتصال بالزعماء الدينيين أمثال آية اللّه طالقانى ، خمينى ، شريعتمدارى .

أدى احتدام انتفاضة ١٥ خرداد / يوليو ١٩٦٣م إلى أن طلب الخمينى المساعدة ، فأرسل عبد الناصر مبعوثًا من المخابرات بمائة وخمسين ألف دولار إلى إيران ، قُبض عليه فى المطار [٤] ، فقامت الدنيا ولم تقعد .

وفى حديث للشاه مع صحيفة كورير دولاسيرا فى ١٨/٦/١٩٦٣م اتهم الشاه النظام المصرى بالجنون والجهل المركب [٥] .

وهكذا ، واصل نظام الشاه مكافحته للمد الثورى المصرى داخل المجتمع الإيرانى ، إلا أنه لم يستطع القضاء على مكامن الثورة الشعبية التى أحاطت به عام ١٩٧٩ (٦) بعد وفاة عبد الناصر بنحو تسع سنوات تقريباً رغم احتفاظه بعلاقات ممتازة مع مصر فى عهد السادات .

مثل حديث الشاه فى أنقرة ٧ يونيو ١٩٦٧ قوله : « لقد انتهى العهد الذى تُحتل فيه أراضى دولة وتُغتصب بواسطة دولة أخرى ، ومن الطبيعى بل ومن الواجب أن توضع الترتيبات التى يمكن بواسطتها إعادة المناطق التى احتلتها إسرائيل إلى الدول العربية على الفور بما فيها القدس » (٧) .

كان هذا الموقف مفاجئًا لإسرائيل رغم سعادته بالهزيمة التى مُنيت بها مصر فى هذه الحرب .

ومما ينبغى ذكره أن ما حدث بين الشاه والرئيس السادات الذى ناب عن عبد الناصر فى أول مؤتمر للقمة الإسلامية بالرباط يوم ٢٢ سبتمبر ١٩٦٩م قد جعل الشاه يلتقى بالسادات على انفراد بواسطة من الملك فيصل ، ويزيد من إعجابه به ، وخرج من الاجتماع مصرِّحًا لوزير بلاطه : « إنهم كانوا مشجعين للغاية » (٨) .

وهكذا عادت العلاقات الإيرانية المصرية فى شتاء عام ١٩٧١م بناء على هذا البيان .

قررت حكومة إيران الإمبراطورية وحكومة الجمهورية العربية المتحدة اعتباراً من اليوم استئناف علاقاتهما السياسية العادية بالكامل ، والمبادرة بتبادل السفراء فيما بينهما (٩) .

بوصول العلاقات بين البلدين إلى هذا المستوى التمثيلى يتوقف هذا الحديث المختصر عن العلاقات المصرية الإيرانية فى يوليو ١٩٥٢م .

* * *

الهوامش

(١) سعيد الصباغ (دكتور) " العلاقة بين القاهرة وطهران ، القاهرة ٢٠٠٣ ، ص ٢٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٩٢ .

(٣) گزيده إس ناد تاريخي دفتر مطالعات سياسى وبين المللى ، وزارات امور خارجه ، تهران ١٣٧٦ هـ . ش ، جلد سوم ، ص ٧٥ .

(٤) محمد حسنين هيكل : مدافع آية الله ، القاهرة ١٩٨٨م ، ص ١٥٥ .

(٥) جواد منصورى : قيام ١٥ خرداد ، نقلاً عن سعيد الصباغ ، ص ٨٣ .

(٦) سعيد الصباغ ، المرجع السابق ، ص ١٤ .

(٧) روابط خارجى ايران در سال ١٣٤٧ هـ . ش ، گزارش ساليانه اخبار واسناد ؛ ادارة انتشارات ومدارك وزارت امور خارجه ، ص ٥٦ ، ٦٦ .

(٨) أحمد مهابه : إيران بين التاج والعمامة ، القاهرة ١٩٨٩ ، ص ١٥٨ .

(٩) روابط خارجى ايران در سال ١٣٤٩ ، گزارش ساليانه اخبار واسناد اداره انتشارات ومدارك رزارت امور خارجه ، ص ٢٦٠ .

إيران دولة نووية
وأثر ذلك على المنطقة العربية

محمد محمود الديب

ميلاد البرنامج النووى الإيرانى :

لما وقعت أزمة البترول فى ١٩٧٤/٧٣ نتيجة للحرب العربية الإسرائيلية الرابعة وانفردت أوبك برفع سعر البرميل من ٣ دولارات إلى ١١ دولاراً ، مع تخفيض الدول العربية لإنتاجها منه ، ومنع تصديره إلى هولندا واليابان والولايات المتحدة حتى تحيِّد موقفها إزاء النزاع العربى- الإسرائيلى، أعلن شاه إيران أن البترول مادة نبيلة Petroleum is a noble material ويتعرض لمخاطر كبيرة . ولذا قرر الشاه التخطيط لإنشاء ٢٣ محطة طاقة نووية بقدرة إجمالية ٦٠٠٠ ميجاوات تنتشر فى أنحاء إيران لتوفر الكهرباء للسكان . كما قرر أن تقام أول محطة للطاقة النووية فى بوشهر على ساحل الخليج العربى لتغذية مدينة شيراز الداخلية بحاجتها من الكهرباء .

اسم المنجم	الدولة / الولاية	القارة
Erzgebirge إيرزبرج	شرق ألمانيا	أوروبا
Ladéve لادفيه	فرنسا	
Vendée فندى	فرنسا	
Almalyk المالك	أوزبكستان	آسيا
Kyrgyzstan قيرغيز ستان	قيرغيزستان	
Olympic Dam سد أولمبك	أستراليا الجنوبية	أستراليا
Rangers رانجرز	أستراليا الشمالية	
Agadaz أجا داز	النيجر	إفريقيا
Rossing روزنج	ناميبيا	
Wit Waters Rand وتوترز راند	جنوب إفريقيا	
Atavascca Basin حوض أتباسكا	كندا	أمريكا الشمالية
هضبة كلورادو	الولايات المتحدة	

وفى ١٩٧٥ وقَّعت شركة ألمانية (غربية وقتها) هى **Bonn Firm Kraft Werk Union AG** ، وهى شركة مشتركة بين شركة سمينز AG ، وشركة تليفونكن **AEG Telefunken** ، عقداً مع إيران بقيمة ٤ - ٦ بليون دولار لإنشاء مفاعل ماء مضغوط لمحطة كهرباء نووية فى إيران . وتم طرح مناقصة عالمية لإنشاء وحدتين للطاقة النووية بقدرة ١١٩٦ ميجاوات . ووقع الاختيار على شركة كروب الألمانية **Thyssent Krupp** على أن يتم إنشاؤها بحلول ١٩٨١م .

وكانت الولايات المتحدة قد وقَّعت مع إيران اتفاقًا للتعاون النووى فى ١٩٥٧ تحت مسمًى "الذرة من أجل السلام" ، وكان الشاه / محمد رضا بهلوى يحكم إيران وقتها . وأنشأت إيران فى ١٩٥٩ مركز طهران للأبحاث النووية **Tehran Nuclear Research Centrer (TNRC).** وزودت الولايات المتحدة هذا المركز بمفاعل نووى بقدرة ٥ ميجاوات . وبدأ تشغيل هذا المفاعل فى ١٩٦٧ بوقود نووى مخصَّب مستورد من الخارج تحت إشراف الولايات المتحدة والدول الغربية ومنها فرنسا .

وأنشأت إيران فى ١٩٧٤ هيئة الطاقة الذرية الإيرانية **Iranian Organization for Atomic Energy IOAE** .

ووقَّع معهد مساتشوتس الأمريكى للتكنولوچيا اتفاقات فى ١٩٧٥ مع هيئة إيران للطاقة النووية لتدريب المهندسين الإيرانيين فنيًا فى المجال النووى .

ووقّعت إيران فى ١٩٦٨ على معاهدة حظر الانتشار النووى Non Nuclear Proliferation Treaty (NFT) وصادقت عليها فى ٥ مارس ١٩٧٠ ، وأصبحت إيران عضواً فى الوكالة الدولية للطاقة الذرية .

وبعد إنشاء الهيئة الإيرانية للطاقة الذرية IAA ، وتوقيع إيران لمعاهدة حظر الانتشار النووى والمصادقة عليها خطط الشاه محمد رضا بهلوى لإقامة ٢٣ محطة للطاقة النووية فى إيران تنتشر فى كل أرجاء الدولة بقدرة إجمالية ٦٠٠٠ ميجاوات ، على أن يتم الانتهاء من إنشائها بحلول عام ٢٠٠٠ .

وفى ١٩٧٥ وقّع وزير خارجية أمريكا المشهور المستر هنرى كسينجر مذكرة أمن قومى National Security Decision Memorandum بعنوان التعاون النووى بين أمريكا وإيران وبمقتضاها تبيع أمريكا معدات طاقة نووية لإيران بقيمة ٦ بلايين دولار . وكانت إيران تنتج وقتها ٦ ملايين برميل من البترول فى اليوم مقارنة مع إنتاجها الحالى الذى يبلغ ٤ ملايين برميل فى اليوم .

ووقّع الرئيس الأمريكى جيرالد فورد على توجيه رئاسى فى ١٩٧٦ يتيح الفرصة لإيران لكى تشترى من أمريكا وحدة (مصنعاً) لاستخلاص البلوتنيوم من وقود المحطات النووية الإيرانية . وكانت هذه الصفقة لتمكين إيران من دورة وقود نووى كاملة . وجاء فى التوجيه الرئاسى الذى وقّع عليه الرئيس الأمريكى فورد أن توفير الطاقة النووية لإيران سيحقق غرضين معاً :

١ - دعم الاقتصاد الإيرانى .

٢ - توفير احتياطى البترول لتصديره إلى الخارج وللصناعات البتروكيماوية .

ووافق الرئيس الأمريكى جيرالد فورد لإيران على أن تنشئ صناعة نووية كثيفة بما فى ذلك استخلاص البلوتنيوم بكميات كبيرة ، وتخصيب اليورانيوم بدرجات عالية ، وهما الخطوتان الأساسيتان لصناعة أسلحة نووية . ولأن علاقة أمريكا وإيران وقتها كانت وثيقة فقد طمعت شركتا وستنجهاوس وجنرال إلكتريك الأمريكيتان فى تنفيذ تلك الصفقة .

كما توضح وثائق مكتبة الرئيس الأمريكى فورد ومتحفه وجود وثيقتين ، الأولى بتاريخ ١٩٧٥/٤/٢٢ ، والثانية بتاريخ ١٩٧٦/٤/٢٠ توضحان أن الولايات المتحدة وإيران تفاوضتا حول التعاون النووى بينهما ، واستخدام الطاقة النووية فى إيران ، وأن الولايات المتحدة مستعدة لمساعدة إيران فى إقامة منشآت نووية لتخصيب اليورانيوم ، وكذلك وحدات لإعادة تجهيز الوقود واستخلاص البلوتنيوم منه .

والشىء الغريب أن المستر ديك تشينى (نائب الرئيس الأمريكى جورج بوش الحالى) ، ووزير الدفاع الأمريكى المستر رامسفيلد ، وبول ولفتز **Wolfowitz** مهندس السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط ، وهم من أشد المعارضين للبرنامج النووى الإيرانى فى الوقت الحاضر ، كانوا ضمن المسئولين الأمريكيين المتحمسين لإيران كى تقوم باستخلاص البلوتنيوم من وقود مفاعلات محطات الطاقة النووية ،

وتخصيب اليورانيوم ، وامتلاكها لدورة وقود نووى كاملة لاستخدام كل ذلك فى صناعة الأسلحة النووية . فماذا حدث حتى يغير هؤلاء المسئولون الأمريكيون رأيهم إلى النقيض ١٨٠ درجة ؟! رحم اللّه من قال : " أين هى حمرة الخجل؟". حقًا لا قيم ولا مثل ولا مبادئ ولا خُلُق ، وصدق من قال : "فاقد الشىء لا يعطيه" . إنها الانتهازية الأمريكية ، والابتزاز الأمريكى Black Mail لإيران . إنها الحرب الصليبية الجديدة على الإسلام والمسلمين التى يتزعمها أحفاد الصليبيين القدامى .

ماذا حدث بعد ثورة إيران الإسلامية ١٩٧٩ ؟

بعد نجاح الثورة الإسلامية فى إيران ١٩٧٩ أبلغت إيران الوكالة الدولية للطاقة الذرية أنها ستستأنف برنامجها النووى القومى اعتمادًا على وقود منتج محليًا ، بل وما حدث بعد ذلك كان مدهشًا ، إذ قررت الوكالة الدولية للطاقة الذرية فى ١٩٨٣ مد يد العون الفنى لمساعدة إيران فى إنتاج اليورانيوم المخصب داخليًا فى إيران . وأعلنت الوكالة الدولية للطاقة الذرية أنها ترغب فى مساعدة إيران لتوفير الكوادر البشرية العلمية والتقنية فى مجال التكنولوچيا النووية ، وامتلاك دورة الوقود النووى الكاملة .

وتحت ضغوط الولايات المتحدة الأمريكية قامت الوكالة الدولية للطاقة الذرية بإلغاء برنامج معاونة إيران نوويًا والتوقف عن ذلك . لقد كانت الثورة الإسلامية فى إيران نقطة تحول فى تاريخ التعاون النووى بين جمهورية إيران الإسلامية مع القوى الأجنبية .

ماذا فعلت دول أوروبا ؟

تأسست الشركة المساهمة يوروديف Eurodiff في١٩٧٣ من ٤ دول : فرنسا وبلچيكا وإسبانيا والسويد ؛ لتعمل في مجال تخصيب اليورانيوم . وفي ١٩٧٥ تنازلت السويد عن حصتها البالغة ١٠٪ من أسهم شركة يوروديف لإيران نتيجة لترتيبات بين فرنسا وإيران ، أي أن إيران حلت محل السويد في شركة يوروديف لتخصيب اليورانيوم ، وقامت الشركة الحكومية الفرنسية كوجما Cogéma وحكومة إيران بإنشاء شركة سوفيديف Sofidif لتخصيب اليورانيوم بطريقة الطرد المركزي Société Franco- Iranienne pour L'enrichissement de L' uranium pqr Diffusion Gazeuse. على أن يكون لفرنسا ٦٠٪ ولإيران ٤٠٪ من رأسمال هذه الشركة المشتركة بين الدولتين . وحصلت هذه الشركة الجديدة على ٢٥٪ من أسهم شركة يوروديف منها الـ ١٠٪ التي حصلت عليها إيران من السويد في شركة يوروديف . ودفع شاه إيران مبلغ بليون و ١٨٠ مليون دولار في ١٩٧٧ وذلك لإنشاء مصنع شركة يوروديف لتخصيب اليورانيوم في فرنسا ، وأصبح لإيران الحق في شراء ١٠٪ من إنتاجه (وقوداً نووياً مخصباً) .

وبعد نجاح الثورة الإسلامية في إيران ١٩٧٩ رفضت فرنسا تزويد إيران باليورانيوم المخصب المتفق عليه في اتفاقية موقّعة بينهما سبقت الإشارة إليها ، ولم تسترد إيران استثماراتها في مصنع يوروديف .

وبالإضافة إلى ما تقدم فإن الولايات المتحدة الإمريكية كانت قد عرضت توفير الوقود النووى المخصب لإيران لأغراض توليد الطاقة وفقًا للاتفاقية الموقّعة بينهما بهذا الخصوص قبل قيام الثورة الإسلامية فى إيران . وعلى الرغم من ذلك لم تَفِ الولايات المتحدة بالتزاماتها لإيران فى ما يتعلق بتوفير الوقود النووى المخصب لإيران ، ولا أعادت بليون الدولار التى كانت قد حصلت عليها .

وكانت الشركات الألمانية قد حصلت على جزء كبير من مستحقاتها لبناء وحدتين للطاقة النووية في بوشهر ، لكن بعد مرور ثلاثة عقود زمنية رفضت ألمانيا تصدير المعدات النووية إلى إيران ، ورفضت إعادة الأموال التى تقاضتها من إيران مسبقًا لهذا الغرض . وعلقت حكومة الثورة فى إيران دفع بقية المستحقات للشركات الألمانية .

وضغطت إيران لتسترد ما دفعته لفرنسا مستعينة فى ذلك بجماعات إسلامية بما فى ذلك حزب اللّه اللبنانى الذى أسهم فى احتجاز رهائن فرنسيين فى ثمانينيات القرن الـ ٢٠ . وفى ١٩٨٢ رفض الرئيس الفرنسى ميتران توريد يورانيوم مخصب إلى إيران حسب الاتفاقات الموقعة بين الدولتين ، وأصبحت فرنسا مدينة لإيران بمبلغ بليون دولار ثمن الصفقة التى لم توردها فرنسا إلى إيران .

وفى ١٩٨٦ جرى اغتيال مدير شركة يوروديف **Edurodiff** المسيو جورج **Besse** وأعلن الجناح العسكرى اليسارى أنه المسئول عن ذلك ،

لكن خلال محاكمة الجناة رفضوا الاعتراف بمسئوليتهم عن اغتياله . وبالبحث والتحرى عن الجناة القتلة أشار المستر ديفيد كاربرون David Carr- Brown رئيس لجنة التعاون النووى الفرنسية - الإيرانية إلى أن المخابرات الإيرانية هى المسئولة عن اغتيال مدير شركة يوروديف ، بل وأضاف أن فضيحة الرهائن الفرنسيين كانت محاولة لابتزاز Blackmail إيران .

وفى ١٩٩١ وقَّعت فرنسا مع إيران اتفاقًا أعادت بمقتضاه أكثر من ١,٦ بليون دولار إلى إيران . وظلت إيران مساهمة فى شركة يوروديف عن طريق شركة سوفيديف Sofidif الفرنسية - الإيرانية التابعة لحكومة الدولتين (فرنسا وإيران) ، وتمتلك هذه الشركة ٢٥٪ من أسهم شركة يوروديف . ولم تعد إيران تسأل عن نصيبها من اليورانيوم المخصَّب الذى ينتجه مصنع هذه الشركة فى فرنسا .

أما الشركة الألمانية Bonn Firm Kraft Werk Union AG (وهى التى تكوَّنت بالاشتراك بين شركة سيمنز Siemens (AG) ، وشركة تليفونكن AEG لإنشاء محطة الطاقة النووية فى بوشهر) ، فقد انسحبت تحت ضغط الولايات المتحدة ، وتوقفت عن العمل فيه بعد ثورة إيران الإسلامية ١٩٧٩ بعد إنشاء ٥٠٪ من المفاعل الأول ، و ٨٥٪ من المفاعل الثانى . وعللت توقفها عن العمل وانسحابها من المشروع بأن إيران لم تدفع لها ٤٥٠ مليون دولار كانت مستحَقَّة لها ، وأنه قد مضى وقت دفعها ، ولم تدفعها إيران . وأعلنت إيران من جانبها بعد ذلك أنها

ستلغى من جانب واحد (جانبها) هذا العقد والاتفاق بعد توقف الشركة عن العمل فى المشروع وانسحابها ، هذا مع العلم بأن قيام الثورة أحدث ارتباكًا اقتصاديًا فى إيران .

كما أن الشركة الفرنسية Fram Atome وهى فرع لشركة Areva انسحبت من تلقاء نفسها بسبب الضغط الأمريكى من التعاون النووى مع إيران .

ماذا حدث بين أمريكا وإيران ؟

أمريكا هى التى ساندت البرنامج النووى الإيرانى لمدة ٣٠ عامًا وشجعت على ولادته لدرجة أن البعض يصفها بأنها القابلة Midwife (أى الداية) التى ساعدت على ميلاد هذا البرنامج ، وأن أمريكا أمدَّت إيران بكمية خمسة كيلوجرامات من اليورانيوم المخصَّب بنسبة ١٩,٥٪ وأوحت إلى الدولتين الغربيتين : ألمانيا وفرنسا بمساعدة البرنامج النووى الإيرانى .

فماذا حدث كى تنقلب سياسة أمريكا ضد إيران ١٨٠ درجة ؟ أى من النقيض إلى النقيض ، وضغطت على فرنسا وألمانيا لتنسحبا من تنفيذ مشروعات فى هذا البرنامج لتعمل على عرقلته وإبطائه وتدميره إن تمكنت من ذلك . وهى تتآمر على البرنامج النووى الإيرانى بكل الأساليب ، فقد جاء فى صحيفة نيويورك تايمز فى يناير ٢٠٠٦ بعمود المحرر James Risen الذى ذكر فى كتابه حالة حرب State of War أن

الخطة التى وضعتها أمريكا عام ٢٠٠٠ للتغطية **Cover Operation** المسمَّاة كوديا **Operation Merlin** قد احترقت ، وكانت هذه الخطة تعتمد على تسريب تصميمات خاطئة لصناعة أسلحة نووية إلى مهندس روسى ليقوم بنقلها إلى إيران لتتبعها فيتعطل البرنامج النووى الإيرانى ، إلا أن المهندس كشف الخطة لإيران وحذرها من اتباع هذا التصميم الخاطئ المسرب إلى الإيرانيين عن طريق العملاء .

وفى ١٩٨٤ قامت الشركة الألمانية **Kraft Werk Union** من جانبها بعمل دراسة أولية إن كانت تستطيع استئناف نشاطها النووى فى إيران ، لكنها بسبب استمرار الحرب بين العراق وإيران رفضت استئناف نشاطها النووى فى إيران .

وأعلنت الولايات المتحدة فى أبريل ١٩٨٤ أن إنشاء مفاعل بوشهر سيستغرق على الأقل من سنتين إلى ثلاث سنوات لاستكمال إنشائه . وأعلن المسئول الأمريكى أن مفاعل الماء الخفيف فى بوشهر لا يناسب برنامج إنتاج الأسلحة النووية ، وأضاف فى طى هذا الإعلان أن أمريكا ليست لديها أدلة على أن إيران أقامت منشآت لفصل البلوتنيوم من وقود مفاعل محطة الطاقة النووية .

وتم تدمير مفاعل محطة بوشهر فى الحرب العراقية - الإيرانية ، فقد قصفه الطيران العراقى فى الفترة من ٢٤ مارس ١٩٨٤ إلى ١٩٨٨ ، وتوقف العمل فى البرنامج النووى الإيرانى .

وفى عام ١٩٩٠ بدأت إيران تبحث عن شركاء لها فى برنامجها النووى غير الدول الغربية . وبسبب الظروف السياسية والحظر الاقتصادى الذى فرضته أمريكا على إيران لم يتوفر كثرة من الشركاء الأجانب لمعاونة إيران فى برنامجها النووى . وقد زار مفتشو الوكالة الدولية للطاقة الذرية منجم تعدين اليورانيوم فى إيران عام ١٩٩٢ .

وفى ١٩٩٥ وقّعت إيران مع روسيا اتفاقًا لاستكمال مفاعل محطة بوشهر بتركيب مفاعل مضغوط (الألمانى كان مفاعل ماء خفيف) بقدرة ٩١٥ ميجاوات يمكن أن يصل إلى ١٠٠٠ ميجاوات MWE 915 VVer- 1000 Pressutized Water Reactor. وتولت الإنشاء الشركة الحكومية الروسية وهى ذراع رئيسية فى وزارة الطاقة الذرية الروسية . وليست هناك نية معلنة فى الوقت الحاضر لإنشاء المفاعل الثانى فى بوشهر .

وحاولت الولايات المتحدة دون نجاح فى عام ١٩٩٦ منع الصين من بيعها لإيران مصنع تحويل Conversion ، كما أن الصين زودت إيران بالغاز المطلوب لعملية تخصيب اليورانيوم .

اعتراضات أمريكا :

من قراءة بعض المنشورات الأمريكية يمكن تلخيص اعتراضات أمريكا على البرنامج النووى الإيرانى فى الآتى :

١ - قيام الثورة الإسلامية فى إيران ١٩٧٩ ونجاحها ، واستمرارها ونمو الصحوة الإسلامية على مستوى العالم وفى بلاد المسلمين . فأمريكا اعتبرت الإسلام هو الشيطان الأخضر على غرار الشيطان الأحمر (الشيوعى السوفييتى) . فالإسلام إيديولوچيا سياسية واقتصادية واجتماعية متكاملة ، وهى الأخطر من الإيديولوچيا الشيوعية السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، لأن الإسلام إيديولوچيا مؤمنة ، بينما الشيوعية إيديولوچية ملحدة كافرة . والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فطرة فى النفس السوية . أما الإلحاد فهو ضد الفطرة البشرية السوية . والإسلام محوره العدل الاجتماعى وقائم على الشورى . وينتشر الإسلام فى العالم بمعدل ٦,٥٪ سنويًا ، بينما لا تنتشر المسيحية إلا بمعدل ١,٥٪ سنويًا . وبدليل أن أمريكا لم يكن بها مسلم واحد من سكانها الأصليين فتحول إلى الإسلام ٢ - ٣٪ من جملة سكانها البالغين ٣٠٠ مليون نسمة فى الوقت الحاضر . وفتح الإسلام قارة أوروبا له التى كانت قارة خالصة للمسيحية . وتشن أمريكا وحلفاؤها حملة صليبية ضارية على الإسلام والمسلمين وعلى القرآن الكريم وعلى نبى الإسلام وعلى الحضارة الإسلامية استعانة بآلاتها الجهنمية المسماة الإعلام ووسائطه . وتحاول أن تزرع فى العالم وفى الغرب الخوف من الإسلام (إسلاموفوبيا) . ويقول الرئيس الأمريكى جورج بوش : لا نريد ملالى (علماء دين) بأنياب ذرّية .

وتجدر الإشارة إلى أن الدولة لا تصبح قوة نووية إلا بشرطين :

١ – أن تصنع المتفجرات النووية سواء القنبلة الذرية A- Bomb أو القنبلة الهيدروچينية H- Bomb . وتبلغ قدرة الثانية ٢٠٠٠ مرة قدر الأولى .

٢ – أن تكون لدى الدولة وسيلة توصيل المتفجرات النووية إلى أهدافها . وتتمثل هذه الوسائل في الطائرات والغواصات والصواريخ .

ويقولون إن إيران تطور الصاروخ شهاب . وفي اللاشعور الأمريكي أزمة الرهائن الأمريكيين الخمسين في السفارة الأمريكية ١٩٨٠ ، فقد احتجز الحرس الثوري الإيراني ٥٠ فرداً من موظفي السفارة الأمريكية كرهائن في أبريل ١٩٨٠ إلى حين تسليم أمريكا لشاه إيران الذي سافر إليها لمحاكمته على الجرائم التي ارتكبها في حق شعبه ، والإفراج عن أرصدة إيران في أمريكا . ورحل الشاه إلى مصر وتُوفِّي فيها . ولم تفرج إيران عن الرهائن الأمريكيين بالسفارة الأمريكية في طهران ، فقررت أمريكا الإفراج عنهم بالقوة بإنزال قوات كوماندوز أمريكية في إيران لهذا الغرض فاصطدمت طائرتان أمريكيتان إحداهما بالأخرى وقتل ٨ من الجنود المنفذين في هذا الاصطدام . وتم حل أزمة الرهائن الأمريكيين بعد ذلك في أول عهد الرئيس الأمريكي رونالد ريجان . وتعد إيران الدولة المركزية في العالم الإسلامي في الوقت الحاضر ، وتخشى أمريكا من تجمع الدول الإسلامية حولها كما تتجمع الدول الغربية حول أمريكا .

٢ - الخوف على البترول ، ليس بترول الشرق الأوسط والعالم العربى فقط ، ٣٠٪ من الإنتاج العالمى ، وثلثى الاحتياطى المؤكد للمستقبل ، بل أيضًا بترول منطقة بحر قزوين وغازها الطبيعى . وجاءت أمريكا وحلفاؤها بجيوشهم ومعداتهم العسكرية المتطورة إلى الخليج العربى وعسكرت فى دوله العربية إلى ما شاء اللّه ، وأنشأت لها قواعد عسكرية برية وبحرية وجوية فى هذه البلاد العربية . ليس الأمر كلامًا بل واقع عملى أمام أعين الناظرين .

٣ - الخوف على إسرائيل ، وهى الحارس الأمين الموثوق منه للمصالح الأمريكية فى الشرق الأوسط والعالم العربى . وللتشابه الكبير فى النشأة والتاريخ بين الدولتين : أمريكا وإسرائيل ، فهم مهاجرون استولوا على أوطان الغير ، وادَّعوا أنهم أصحاب الأرض الحقيقيون ، أما المواطنون الأصليون الهنود الحمر والفلسطينيون فعليهم السلام ، واعتماد كل من الدولتين على القوة العسكرية لتحقيق أهدافها على المسرح السياسى الدولى ، ومساندة كل من الدولتين للأخرى فى سلوكها الشائن وتبريره بالتضليل .

وتتوجس أمريكا وربيبتها إسرائيل خيفة من أن تصبح إيران قوة نووية ، لأن معنى هذا أنه سيكون فى الشرق الأوسط قوتان نوويتان هما إسرائيل وإيران ، وبذلك يتحقق التوازن الاستراتيجى فى المنطقة مما سيكون له أثر بالغ على المصالح الأمريكية فى الشرق الأوسط

وفى الجـهات المجـاورة له . وترى أمـريكا أن تحـول إيران إلى قـوة نووية سيفتـح الباب لسباق تسلح نووى فى الشرق الأوسط .

والمشكلة أن البـرنـامج النووى لإيران سـيكون رادعًـا لإسـرائيل ومـسـاندة أمـريكا لهـا على طول الخط ، ويؤيد كل الشـارع العـربى والإسلامى أن تكون إيران قوة نووية فى الشرق الأوسط ضد إسرائيل ، لكن الأنظمـة العـربيـة العـميلة تطالب بأن تكون منطقـة الشـرق الأوسط خالية من الأسلحة النووية وكأن إسرائيل ستستمع لنداءاتهم المتكررة البلهاء بهذا الخصوص .

وكانت إيران تتوجس خيفة من البرنامج النووى العراقى خصوصاً بعـد استـخـدام العـراق لأسلحـة الدمـار الشـامل الممـثلة فى الغـازات الكيمـاوية السامـة ضد إيران ، لكنه انتـهى إلى الأبد ، وتم تفـريق شمل القاعدة العلمـية والتقنية النووية التى كـان العراق يكونها بعـد سقوطه للاحتلال الأمريكى .

ولن يكون التـأثيـر النووى الإيرانى قـاصـراً على منطقـة الشـرق الأوسط ، بل سيمتد ليشمل منطقة بحر قزوين البترولية ووسط آسيا الإسـلاميـة ، وكـذلك جنوب آسـيـا . ولم توقِّع كل من إسـرائيل والهند وباكسـتـان على مـعـاهدة حظر الانتشـار النووى ، وأن البـرازيل تقـوم بتـخـصـيب اليـورانيـوم فى الوقت الحـاضـر ، ولم تطلب منهـا أمـريكا الامـتناع عن ذلك كـمـا تطـلب من إيران ! إنهـا المعـايـيـر الأمـريكيـة المزدوجة Double Standard .

٤ - المأزق الأمريكي في أفغانستان (القاعدة وطالبان) ، والمستنقع العراقي الذي وقعت فيه أمريكا بما يذكّرها بمأساتها في فيتنام الجنوبية ، وأن شيعة إيران ليسوا مع شيعة العراق . وانتظرت أمريكا مساعدة من إيران كي تخرج من المستنقع العراقي . وتعتقد أمريكا أن إيران من أسباب تفاقم الوضع في العراق .

٥ - الإرهاب ، فأمريكا تدّعي أن إيران دولة إرهابية ، وتصدّر الإرهاب ، وترعى جماعات الإرهاب حماس في فلسطين وحزب اللّه في لبنان ، عفواً ، المدافعون عن بلادهم ضد الاحتلال إرهابيون في عُرْف أمريكا التي أعلنت الحرب على الإرهاب .

٦ - ترى أمريكا أن إيران فتحت الباب لعودة نفوذ روسيا إلى الشرق الأوسط من خلال مساعدة إيران في برنامجها النووي ، بل عودة النفوذ الروسي إلى القلب النابض للشرق الأوسط وهو الخليج العربي الذي يضم كنز البترول الثمين . وترى أمريكا أن مساعدة روسيا لإيران في برنامجها النووي تعادل مساعدة الاتحاد السوفييتي السابق لمصر في بناء السد العالي على النيل . فالبرنامج النووي الإيراني معادل للسد العالي في مصر . وكان السد العالي أحد العوامل التي أدت إلى زيادة النفوذ السوفييتي في مصر والشرق الأوسط ، والبرنامج النووي الإيراني ومساعدة روسيا لإيران فيه يفتح الشرق الأوسط للنفوذ الروسي ، ولا ترضى أمريكا عن ذلك ، ولذلك فهي تصر على وقف هذا البرنامج تماماً كما حاولت قبل ذلك في مشروع السد العالي وفشلت .

والحرب الباردة مستمرة بين أمريكا وإيران منذ قيام الثورة الإسلامية في إيران ١٩٧٩ ، وأزمة الرهائن الأمريكيين في السفارة

الأمريكية بطهران ١٩٨٠ . وفى عُرْف أمريكا أن إيران دولة مارقة ، وهى إحدى دول محور الشر Axis of evil (كوريا الشمالية وإيران والعراق) ، والعراق حاليًا فى قبضة أمريكا بعد أن أسقطت نظامه السابق ، وأمريكا فى نظر إيران هى الشيطان الأكبر The Biggest devil .

البرنامج النووى الإيرانى موضوع سياسى :

لقد أصبح البرنامج النووى الإيرانى موضوعًا سياسيًا محليًا وعالميًا بطريقتين ، فمن الناحية الداخلية يستغل رجال السياسة البرنامج النووى الإيرانى لزيادة شعبيتهم بين شعبهم . ويرى الإيرانيون أن البرنامج النووى الإيرانى هو لتحديث الدولة علميًا وتقنيًا ، ولتنويع مصادر الطاقة فيها لأن البترول مادة فانية ناضبة طال الزمن أم قصر ، وأن سكان إيران (٧٠ مليون نسمة) يتزايدون بمعدلات مرتفعة ، وهم فى أمَسّ الحاجة إلى مصادر بديلة للطاقة ، وأن الطاقة النووية هى لرفاهية شعب إيران ، وأن تكلفة تنمية البترول الإيرانى أكبر من تكلفة الطاقة النووية ، وأن إيران موقِّعة على معاهدة حظر الانتشار النووى ولن تخرقها ، وأن البرنامج النووى الإيرانى زاد من وحدة الشعب خلف قيادته . وأصبح الملف النووى الإيرانى موضوع كرامة ولا يقوى أحد من الإيرانيين على عرقلته لأن من يعرقله يمس كرامة الشعب الإيرانى .

أما عالميًا فأمريكا وحلفاؤها يقولون إن إيران تخفى نواياها الحقيقية الكامنة وراء برنامجها النووى وهو صناعة القنبلة النووية ، وإن البرنامج النووى السلمى هو نفسه الذى يستخدم فى صناعة القنبلة النووية . وتسعى أمريكا بكل الطرق والأساليب لوقف البرنامج النووى الإيرانى ، وأن تتوقف إيران عن تخصيب اليورانيوم وإلى الأبد اعتماداً على أسلوب العصا والجزرة ، فهى تهدد إيران بضربة عسكرية لتدمير هذا البرنامج ، ومن جهة أخرى فهى تقدم مع الاتحاد الأوروبى مجموعة من الحوافز لتتوقف إيران عن تخصيب اليورانيوم وإلى الأبد . وتعلن إيران أنها ترغب فى التفاوض لحل الأزمة لكنها ترفض الشروط المسبقة ، وأنها لن تساوم على حقوقها التى كفلتها لها معاهدة حظر الانتشار النووى . وضغطت أمريكا حتى تم تحويل الملف النووى الإيرانى إلى مجلس الأمن، لكن روسيا والصين لم توافقا على المقترحات الأمريكية ، لأن إيران لم تخرق معاهدة حظر الانتشار النووى . وترى روسيا أن أمريكا تحاول استبعادها من مد يد العون النووى إلى الدول المتخلفة للأغراض السلمية ، وأن أمريكا تسعى لاحتكار هذه السوق لنفسها ولحلفائها .

أوراق فى يد إيران :

تمتلك إيران أوراقًا قوية يمكن أن تستخدمها كلٌّ فى وقته المناسب، مثل ورقة البترول ، وورقة الانسحاب من معاهدة حظر الانتشار النووى ، وورقة شيعة العراق ، وورقة حزب اللّه ، وورقة حماس ، وورقة الإسلام .

١ - ورقة البترول :

تجاوز سعر برميل البترول ٧٠ دولاراً في الوقت الحاضر ، فما بالك لو تطورت الأزمة النووية الإيرانية إلى الأسوأ ، ووقفت إيران ضخ بترولها أو لو تعطل مضيق هرمز الذى يخرج منه البترول إلى العالم الخارجى ، الأمر الذى يهدد كل الاقتصاد العالمى ، وسيكون كل بترول الشرق الأوسط ، والعالم العربى ، والعالم الإسلامى (نيجيريا وإندونيسيا وماليزيا وبرونى) ، ومنطقة بحر قزوين فى خبر كان ؟ فسمعة أمريكا فى الشرق الأوسط وفى العالمين العربى والإسلامى فى الحضيض .

٢ - الانسحاب من معاهدة حظر الانتشار النووى :

هددت إيران بأنه لو فرض مجلس الأمن عليها عقوبات أو جرى الاعتداء على برنامجها النووى فإنها ستنسحب من معاهدة حظر الانتشار النووى . فهذه المعاهدة أتاحت للدولة العضو الحق فى الانسحاب منها ، وقد انسحبت منها بالفعل كوريا الشمالية ، لكن بشرط أن ترسل الدولة العضو التى تريد الانسحاب خطاباً بنيَّة الانسحاب قبل الانسحاب بمدة ٣ شهور (خطاب إنذار) إلى الوكالة الدولية للطاقة الذرية ، وأن تبرر الدولة المنسحبة من معاهدة حظر الانتشار النووى هذا الانسحاب ، وأن استمرار عضوية الدولة فى هذه المعاهدة أسفر عن إلحاق الضرر بالأمن القومى لبلادها . وإن هذا التبرير جاهز لإيران ،

فالولايات المتحدة تهدد إيران وتحاصرها ، وضربت أمريكا حول إيران حلقة نارية ، فقوات أمريكا وقواعدها العسكرية موجودة فى أفغانستان الواقعة فى شرق إيران . ومدت أمريكا نفوذها إلى منطقة وسط آسيا الإسلامية الواقعة فى شمال إيران ، وقوات أمريكا وقواعدها العسكرية موجودة فى غرب إيران بالعراق وبالدول العربية المطلة على الخليج والواقعة فيه (البحرين) ، وأيضًا فى جنوب إيران ببحر العرب والمحيط الهندى . فأمريكا تحاصر إيران عسكريًا من الجهات الأربع الأصلية ، ولذا أصبحت إيران كالبندقة فى وسط الكسارة الأمريكية .

وتنتظر إيران اللحظة المناسبة لتعلن الانسحاب من معاهدة حظر الانتشار النووى ، وهذه اللحظة المناسبة هى وقت العدوان عليها أو وقت فرض عقوبات عليها من قبل مجلس الأمن . وإذا انسحبت إيران من معاهدة حظر الانتشار النووى فستواصل برنامجها النووى للتسليح ولا تستطيع أى دولة أن تتعرض لها .

٣ - ورقة الشيعة وحزب اللّـه وحماس :

تعانى القوات الأمريكية من المستنقع العراقى ، ولو تأزمت الأمور فستلعب إيران ورقة الشيعة فى العراق ، وفى الساحل الغربى للخليج العربى ضد الوجود الأمريكى والمصالح الأمريكية .

وإذا تدخلت إسرائيل ضد إيران وبرنامجها النووى فستلعب إيران ورقة حزب اللّـه فى شمال إسرائيل ، وورقة حماس فى فلسطين .

٤ - ورقة الإسلام :

الحرب الصليبية الباردة والساخنة ضد الإسلام من قبل أمريكا والغرب على أشدها ، فما بالك لو اعتدت أمريكا أو إسرائيل على إيران؟ فسيهب الشارع العربى والإسلامى من تلقاء نفسه لمساندة إيران بكل ما يملك ، ودع عنك الأنظمة الحاكمة ومن على رأسها .

بعض من التطور الزمنى للمشكلة :

١ - فى ١٩٧٩ وقفت الثورةُ الإسلاميةُ البرنامجَ النووىَّ الإيرانىَّ ، ووقفت العملَ فى محطة بوشهر النووية بعد انسحاب الشركات الأوروبية من العمل فيها .

٢ - فى ١٩٨٠ - ١٩٨٨ الحرب العراقية - الإيرانية .

٣ - فى ١٩٨٢ أعلن المسئولون الإيرانيون أنهم يخططون لبناء مفاعل نووى للطاقة يقوم باستخدام اليورانيوم المنتج محليًا فى مركز أصفهان للتكنولوچيا النووية .

٤ - فى ١٩٨٣ أعلنت الوكالة الدولية للطاقة الذرية أن مفتشيها قاموا بالتفتيش على المنشآت النووية الإيرانية ، واقترحوا برنامجًا للتعاون مع إيران لمدها بمساعدات فنية فى تخصيبها لليورانيوم للأغراض السلمية . وتم إلغاء هذا البرنامج من قبل الوكالة الدولية للطاقة النووية تحت ضغط من الولايات المتحدة .

٥ - أعلن راديو إيران فى ١٩٨٥ العثور على خام اليورانيوم فى إيران .

٦ - فى ١٩٩٦ أخبرت الصين وإيران الوكالة الدولية للطاقة الذرية أن الصين ستنشئ لإيران منشأة لتخصيب اليورانيوم ، إلا أن الصين توقفت عن ذلك تحت ضغط الولايات المتحدة ، وأبلغت إيران الوكالة الدولية للطاقة الذرية أنها ستمضى قدمًا فى إقامة المنشأة الخاصة بتخصيب اليورانيوم مهما كان الثمن .

٧ - فى أغسطس ٢٠٠٢ أعلن المنشق الإيرانى جعفر زاده عن وجود مكانين سريِّين للنشاط النووى فى إيران أخفتهما إيران عن أعين الوكالة الدولية للطاقة الذرية .

٨ - فى ١٦ يونية ٢٠٠٣ أعلن مدير الوكالة الدولية للطاقة الذرية الدكتور محمد البرادعى أن إيران لم توفِ بالكشف عن بعض المواد والأنشطة النووية لديها ، وتقوم بها ، وطلب من إيران زيادة تعاونها مع الوكالة الدولية .

٩ - فى أكتوبر ٢٠٠٣ بدأت إيران مفاوضات مع وفد أعضاء الوكالة الدولية للطاقة الذرية بخصوص تحديد قواعد التفتيش الأدق على منشآت إيران النووية .

١٠ - فى ٣١ أكتوبر ٢٠٠٣ أعلنت الوكالة الدولية للطاقة الذرية أن إيران قدمت خطة شاملة لها عن برنامجها النووى .

١١ – فى ١٨ ديسمبر ٢٠٠٣ وقَّعت إيران البروتوكولين الإضافيَّين ٩٢ + ٣ لمعاهدة حظر الانتشار النووى لكنها لم تصادق عليهما (البرلمان) بعد ، وينص البروتوكولان على أن لا تخفى الدولة العضو برنامجًا سريًا نوويًا عن وكالة الطاقة النووية . وتسمح الدولة العضو بالتفتيش المفاجئ للوكالة الدولية للطاقة النووية .

١٢ – فى ٢٧ يوليو ٢٠٠٤ فضَّت (كسرت) إيران الأختام التى وضعتها الوكالة الدولية للطاقة الذرية على أجهزة الطرد المركزى لليوارنيوم وبدأت فى إنشاء أجهزة طرد مركزى فى نتانز Natanz .

١٣ – فى ٣١ يوليو ٢٠٠٤ أعلنت إيران أنها استأنفت إنشاء أجهزة طرد مركزى لتخصيب اليورانيوم منهية بذلك تعهدها التطوعى لإنجلترا وفرنسا وألمانيا بوقف عمليات تخصيبها لليورانيوم ، وأعلنت أمريكا أن إيران تنوى إنتاج أسلحة نووية من اليورانيوم بتخصيبه .

١٤ – فى ١٠ أغسطس ٢٠٠٤ أعلنت الوكالة الدولية للطاقة الذرية أن إيران حصلت على أجهزة للطرد المركزى لتخصيب اليورانيوم من الصين وروسيا .

١٥ – فى ٢٤ أغسطس ٢٠٠٤ أعلن وزير خارجية إيران أن بلاده سترد بالقوة على إسرائيل أو أى دولة أخرى تعتدى على البرنامج النووى الإيرانى بهدف تدميره .

١٦ - فى ١٨ سبتمبر ٢٠٠٤ طلبت الوكالة الدولية للطاقة الذرية من إيران وقف كل أنشطتها المتعلقة بتخصيب اليورانيوم .

١٧ - فى ٢١ سبتمبر ٢٠٠٤ أعلنت إيران أنها ستستمر فى برنامجها النووى بتحويل ٣٧ طنًا من الكعكة الصفراء (أكسيد اليورانيوم) فى أجهزة الطرد المركزى .

١٨ - فى ٢٤ أكتوبر ٢٠٠٤ اقترح الاتحاد الأوروبى تزويد إيران بتقنية نووية للأغراض السلمية مقابل وقفها لعمليات تخصيب اليورانيوم وإلى الأبد . ورفضت إيران هذا العرض المشروط معلنة أنها لن تساوم على حقها فى تخصيب اليورانيوم للأغراض السلمية الذى كفلته لها معاهدة حظر الانتشار النووى .

١٩ - فى ٢٢ نوفمبر ٢٠٠٤ أعلنت إيران طواعية فى مفاوضاتها مع الثالوث الأوروبى (إنجلترا ، فرنسا ، ألمانيا) أنها ستعلق برنامجها لتخصيب اليورانيوم فى جولة مفاوضات أخرى أملاً فى الوصول إلى اتفاق وأن إيران ستراجع قرارها خلال ٣ شهور .

٢٠ - فى ٢٤ نوفمبر ٢٠٠٤ حاولت إيران أن تحصل من ممثلى الاتحاد الأوروبى على استمرار ٢٤ جهازًا لتخصيب اليورانيوم فى عملها .

٢١ - فى يونيو ٢٠٠٥ تم انتخاب فخامة الرئيس الدكتور المهندس محمود أحمدى نجاد رئيسًا لإيران .

٢٢ - فى ٤ فبراير ٢٠٠٦ صوَّت مجلس محافظى الوكالة الدولية للطاقة الذرية وعدد أعضائه ٣٥ عضواً بتحويل الملف النووى الإيرانى إلى مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة ، وكانت نتيجة التصويت ٢٧ مع التحويل منها مصر ، و ٣ ضد (سوريا ، وفنزويلا ، وكوريا) وغياب ٥ هى : (الجزائر ، وبلورشا ، وإندونيسيا ، وليبيا ، وجنوب إفريقيا) .

٢٣ - فى ١١ أبريل ٢٠٠٦ أعلن فخامة الرئيس الدكتور المهندس محمود أحمدى نجاد رئيس جمهورية إيران الإسلامية أن إيران امتلكت دورة وقود نووى كاملة I am Officially announcing that Iran joined the group of these countries which have nuclear technolgy ، وأنها خصبت اليورانيوم إلى نسبة ٣,٥٪ عبر ١٦٤ جهازاً للطرد المركزى . أما تخصيب اليورانيوم إلى ٩٠٪ فيحتاج إلى آلاف أجهزة الطرد المركزى .

وبذلك أصبحت إيران عاشر دول العالم التى تنجح فى ذلك . وهذه الدول هى : أمريكا ، وروسيا ، وإنجلترا ، وفرنسا ، والصين ، وإسرائيل ، والهند ، وباكستان ، والبرازيل .

٢٤ - فى ٢٤ أبريل ٢٠٠٦ نشر معهد العلوم والأمن الدولى The Institute for Science and International Security مجموعة من المرئيات (الصور) الفضائية للمنشآت النووية فى نتانز Natanz وأصفهان ، وأوضحت هذه الصور وجود مدخل نفقى جديد (مدخل فى صورة نفق) بالقرب من منشأة تحويل اليورانيوم فى أصفهان ، واستمرار إنشاء

معدات لتخصيب اليورانيوم فى نتانز Natanz . كما نشر مجموعة من الصور القديمة يرجع تاريخها إلى عام ٢٠٠٢ توضح مبانى تخصيب اليورانيوم الموجودة تحت الأرض وهى مغطاة بالخرسانة والأقذار وغير ذلك من المواد .

٢٥ – فى ٧ مايو ٢٠٠٦ هدد برلمان إيران بأنه سيجبر الحكومة على الانسحاب من معاهدة حظر الانتشار النووى فى الوقت المناسب .

بعض المنشآت النووية فى إيران :

١ – أناراك Anarak :

هو عبارة عن موقع لحفظ المخلفات النووية بالقرب من يزد Yazd .

٢ – أراك Arak :

هو أحد الموقعين النوويَّين اللذين كشف عنهما المنشقُّ الإيرانى جعفر زاده فى ٢٠٠٢ ، وقد أُنشئ فى هذا الموقع مفاعل للماء الثقيل ، وسيكون جاهزًا للتشغيل فى ٢٠١٤ .

٣ – أردخان Ardekan :

تم إنشاء منشأة للوقود النووى فى هذا الموقع بحلول منتصف ٢٠٠٥ .

٤ - بوناب Bonab :

فيه مركز أبحاث للطاقة النووية يعمل على استخدام التقنية النووية فى الزراعة وتشرف عليه وكالة الطاقة الذرية الإيرانية AEOI .

٥ - بوشهر Bushehr :

تقع جنوب غرب طهران بمسافة ١٢٠٠ كيلومتر على ساحل الخليج العربى لتوفير المياه للتبريد عند التقاء خط عرض ٤٨٤ً ٨٣َ ٢٨ْ شمالاً مع خط طول ٣٥٦ً ٨٩َ ٥٠ْ شرقًا ، وفيها محطة الطاقة النووية الأولى فى إيران ، وتقع المحطة إلى الجنوب من مدينة بوشهر بمسافة ١٧ كم ، وهى تقع بين قرية الصيد المسماة حاليح Halileh وبندرجاه Bandargah .

وترجع فكرتها إلى الشاه السابق حمد رضا بهلوى ، وانسحبت الشركات الألمانية من إنشائها بعد الثورة الإسلامية فى إيران ١٩٧٩ ، وقصفها العراق فى الفترة ١٩٨٨/٨٤ ، وتنشئها روسيا حاليًا ومفاعلها ماء مضغوط وذلك لتوفير الكهرباء لمدينة شيراز Shiraz ، وسبقت الإشارة إلى قصة هذه المحطة بالكامل سابقًا .

٦ - تشالوس Chalus :

هو أحد الموقعين الذين أعلن عنهما المنشقُّ الإيرانى المقيم فى أوروبا عام ١٩٩٥ ، وقال إن إيران تبنى فيه منشأة سرية للأسلحة النووية تحت الأرض ، ويبعد هذا الموقع ٢٠ كيلومترًا عن مدينة تشالوس . وظل هذا الادعاء قائمًا فى ٢٠٠٦ ، ولم يؤكد ذلك أى مسئول إيرانى .

٧ - أصفهان Isfahan :

تضم أصفهان المركز التكنولوچى النووى ، وهو مركز للأبحاث النووية ويشرف على أربعة مفاعلات صغيرة للبحث العلمى قدمتها الصين لإيران وتديرها الوكالة الإيرانية للطاقة الذرية . وتوجد فى أصفهان منشأة لتحويل اليورانيوم تقوم بتحويل الكعكة الصفراء (أكسيد اليورانيوم) إلى غاز سادس فلوريد اليورانيوم Hexa Fluoride . وفى عام ٢٠٠٤ كانت هذه المنشأة تعمل بنسبة ٧٠٪ من طاقاتها ، وتم إنشاء ٢١ ورشة من الـ ٢٤ المقررة هناك . كما يوجد فيها مصنع لمعالجة الزركون وإنتاجه ZPP يقع بالقرب من المكان ويقوم بإنتاج المكونات والأخلاط الضرورية للمفاعلات النووية .

٨ - خرج Karaj :

أُنشئَ فى خرج مركز لاستخدام الذرة فى الزراعة والطب فى هاشتجريد Hashtgerd عام ١٩٩١ ، وتديره وكالة إيران للطاقة الذرية .

٩ - لشخار عبد Lashkar Abad :

أُنشئ مصنع صغير فى عام ٢٠٠٢ لفصل النظائر المشعة Isotope ويقوم بعمل أبحاث وتجارب لتخصيب الليزر . وتم إغلاق هذا المصنع عندما أعلنت إيران عن عدم رغبتها فى تخصيب اليورانيوم اعتماداً على تقنية فصل النظائر المشعة Isotopes .

١٠ - لافزان Lavizan :

يقع هذا المركز عند التقاء دائرة عرض ٢٣ً ٤٦َ ٣٥ْ شمالاً بخط طول ٥٢ً ٢٩َ ٥١َ شرقًا . وتمَّت إزالة كل المبانى التى أقيمت لمركز الأبحاث التقنى فى لافزان شان Lavizan shian بين أغسطس ٢٠٠٣ ومارس ٢٠٠٤ ، وأخذت الوكالة الدولية للطاقة الذرية عيِّنات من التربة السطحية فى المنطقة لتحليلها . ولم تجد أى آثار للإشعاع . وأعيد هذا الموقع إلى مدينة طهران .

١١ - نتانز Natanz :

تقع هذه المدينة عند التقاء دائرة عرض ٢٤٤٣ً ٤٣َ ٣٣ْ شمالاً مع خط طول ٧٥٥ً ٢٢َ ٤٣ْ شرقًا ، وهى تقع فى شمال شرق أصفهان بمسافة ١٤٥ كيلومترًا ، وأُنشئَ هنا مصنع لتخصيب اليورانيوم لإنتاج الوقود النووى . وشغل هذا الموقع ١٠٠ ألف متر مربع (٢٥ فدانًا) ، وهو مبنى تحت الأرض بعمق ٨ أمتار ، أى أنه يقع تحت منسوب سطح الأرض بنحو ٨ أمتار ، ومحمى بحوائط خرسانية بسمك ٢,٥ متر من الخرسانة المسلحة ، وبجدار آخر خارجى سميك ، وتم تدعيم سقفه فى عام ٢٠٠٤ بالخرسانة المسلحة ، ومغطى بأتربة يبلغ سمكها ٢٢ مترًا . ويتكون المبنى من صالتين بمساحة ٢٥٠٠٠ متر مربع ، وبه بعض المكاتب الإدارية. وهذا الموقع هو أحد الموقعين اللذين أعلن عنهما المنشق الإيرانى جعفر زاده عام ٢٠٠٢ ، وفى ٢١ و ٢٢ فبراير ٢٠٠٣ قام

الدكتور محمد البرادعى مدير الوكالة الدولية للطاقة الذرية ومعه وفد من المفتشين بزيارة مصنع تخصيب اليورانيوم فى هذا الموقع . ووجد برنامجًا متقدمًا لتخصيب اليورانيوم بطريقة الطرد المركزى يضم ١٦٤ وحدة تعمل فى تتابع Cascade باستخدام سادس فلوريد اليورانيوم . وفى موقع مجاور يجرى تركيب ١٠٠٠ وحدة طرد مركزى غازىٍ إضافية ، ويجرى التخطيط لتجميع ٥٠٠٠ (خمسة آلاف) وحدة طرد مركزى بحلول عام ٢٠٠٥ لاستكمال مصنع تخصيب اليورانيوم .

١٢ - بارشين Parchin :

ليست هناك منشأة نووية ، وإنما مجمع عسكرى فى بارشين ، وتم التأكد من ذلك فى ١ نوفمبر ٢٠٠٥ عندما زار وفد من الوكالة الدولية للطاقة الذرية هذا الموقع ، وقام المفتشون بأخذ عينات من التربة لتحليلها ولم تسفر نتائج تحليلها عن أية آثار نووية .

١٣ - ساجهاند Saghand :

يقع هذا الموقع عند التقاء دائرة عرض ٤٥ً ٢٨َ ٣٢ْ شمالاً مع خط طول ٣٠ً ٢٤َ ٥٥ْ شرقًا، وهو أول منجم لاستخراج اليورانيوم فى إيران، وبدأ الإنتاج منه فى مارس ٢٠٠٥ ، ويقدر أن المنجم يحتوى على ٣٠٠٠ - ٥٠٠٠ طن من أكسيد اليورانيوم بتركيز ٥٠٠ جزء فى المليون فى مساحة تتراوح بين ١٠٠ و١٥٠ كم^{2} .

١٤ - طهران Tehran :

يقع فى طهران مركز طهران للأبحاث النووية Tehran Nuclear Research Center (TNRC) . وتديره هيئة إيران للطاقة الذرية The Atom Organisation of Itan Energy (AEOI) وبه مفاعل مستورد من أمريكا بقدرة ٥ ميجاوات يستطيع أن ينتج ٦٠٠ جرام من البلوتنيوم ناتجة عن الوقود المحترق به Spent Fuel سنوياً لمدة ١٧ عامًا تكفى لصناعة قنبلة ذرية واحدة ، ويجرى تخزين الوقود المحترق ، ولم تقم إيران باستخلاص البلوتنيوم منه لأنها موقِّعة على معاهدة حظر الانتشار النووى .

١٥ - يزد Yaz :

بها مركز للمعالجة بالإشعاع .

وهناك اعتقاد بأن إيران وزعت منشآتها النووية بين ١٦٣ موقعًا ، معظمها تحت الأرض ، وحصنتها بتحصينات كافية ، وأحاطتها بجدار هائل من السرية .

* * *

نتائج تحول إيران إلى دولة نووية

مبدآن أيديولوچيَّان : القومية العربية ، والإسلام السياسى :

كانت إيران وحاكمها الشاه الراحل صديقة للغرب بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية ، بينما كانت بعض الدول العربية التى تزعمت فكرة القومية العربية مثل مصر وسوريا والعراق بعد ثورته فى ١٤ يولية ١٩٥٨ تدور فى فلك الاتحاد السوفييتى السابق . ولما تمكنت إسرائيل من هزيمة العرب فى حرب ١٩٦٧ تلقت إيديولوچية القومية العربية طعنة قاتلة فى الصميم .

ولما قامت الثورة الإسلامية فى إيران ١٩٧٩ تبدل النظام الحاكم فى إيران من صداقة للغرب إلى عداوة له لأسباب كثيرة . وانتعشت الصحوة الإسلامية لأن ثورة إيران الإسلامية كانت بمثابة نفخة الملَك إسرافيل فى الصور الذى أيقظ المسلمين النيام . واعتقدت الحركة الإسلامية أنها ستشغل الفراغ السياسى الذى خلَّفه تراجع القومية العربية فى الشرق الأوسط ، وبالتالى صارت فى الشرق الأوسط فكرتان إيديولوچيتان راديكاليتان ضد الغرب : القومية العربية المتراجعة ،

والصحوة الإسلامية الصاعدة . وهنا دبرت أمريكا لضرب العصفورين ، عفواً ، القومية العربية والصحوة الإسلامية بحجر واحد للتخلص منهما وإلى الأبد . فاستغلت أمريكا الخلافات والتناقضات بين العراق وإيران (مشكلات الحدود وموضوع الأكراد) وأشعلت الحرب بينهما ١٩٨٨/٨٠، وانتصر العراق فى بداية هذه الحرب المشئومة . وزودت الدول الغربية - خصوصاً أمريكا - العراق بالغازات السامة التى ضرب بها الجيش الإيرانى ، لكن الدائرة دارت فى نهاية هذه الحرب المشئومة على العراق ، ولم تكن نتيجة الحرب العراقية - الإيرانية حاسمة لأى من طرفيها .

واستغلت أمريكا مرة ثانية طموحات النظام البعثى الذى كان يحكم فى العراق وشجعته على غزو دولة الكويت ١٩٩٠ ، وكان غزو العراق لدولة الكويت واحتلالها بمثابة الضربة القاضية التى مزقت الصف العربى . وهكذا نجحت أمريكا فى الإجهاز على فكرة القومية العربية لتعيش فى الأدبيات النظرية دون أن يكون لها واقع ملموس .

وحاولت إيران بعد انتهاء الحرب العراقية - الإيرانية إعادة بناء قدرتها العسكرية التقليدية ، إلا أن هذه المحاولات اصطدمت بمعوقات عديدة أهمُّها الحظر الدولى الذى فُرض على تصدير الأسلحة إلى إيران . وعلى الرغم من أن إيران نجحت فى إبرام عدة صفقات لشراء أسلحة تقليدية من الدول الأجنبية فقد كانت تنظر إلى هذه الصفقات كحد أدنى لا يُشبِع طموحات القيادة الإيرانية ، ولذلك قررت

إيران الاتجاه إلى التفوق النوعى فى السلاح وذلك بامتلاك قدرات نووية ، خصوصًا وأن إيران كانت تتوجس خيفة من البرنامج النووى العراقى . ولم يعد هذا الخوف له ما يبرره فى الوقت الحاضر ، ولا فى المستقبل القريب ، ولا البعيد بعد أن دمَّرت إسرائيل المفاعل النووى العراقى ١٩٨١ ، وأيضًا بعدِ أن احتلت أمريكا وإنجلترا العراق ، وفككت ودمرت البنية الأساسية للبرنامج النووى العراقى من مصانع ومعامل ومختبرات وأجهزة ومواد وعلماء ، فقد تم أسر جميع العلماء العراقيين الذين كانت لهم صلة بالبرنامج النووى العراقى ، وبتصنيع أسلحة الدمار الشامل : البيولوچية والكيماوية ، واستجوابهم ، واعتقالهم ، ومحاكمتهم ، وسجنهم ، واغتيال بعضهم ، ونقل بعضهم إلى أمريكا .

ولا شك فى أن إيران بمعيار عدد السكان ، والموارد الاقتصادية والطبيعية ، وبمستوى التقدم التقنى ، وبالقدرة العسكرية التقليدية ، هى قوة مؤثرة وبشكل فعَّال فى منطقة الخليج العربى وذلك مقارنة مع دول الخليج العربية ، فإيران أكبر من هذه الدول العربية مجتمعة سكانيًا ، وأرقى منها تقنيًا ، وأقوى منها عسكريًا على المستوى التقليدى . وصحيح أن دول الخليج العربية غنية بالموارد الطبيعية والاقتصادية ، لكن إيران لا تقل عنها غنًى فى هذا المجال .

وعندما تصبح إيران قوة نووية فإنها ستعزز مركزها كقوة إقليمية مؤثرة فى منطقة الخليج العربى ، وفى الشرق الأوسط ، وفى العالم الإسلامى .

وعندما تصبح إيران قوة نووية ضاربة فإنها ستعيد التوازن الاستراتيجى فى الشرق الأوسط بعد أن كانت إسرائيل هى الدولة النووية الوحيدة فى المنطقة ، وبالتالى سيتحقق التوازن النووى مع إسرائيل ، بل وستكون إيران فى موقف يمكّنها من ردع إسرائيل النووية إن هى اعتدت عليها . كما أن إيران تعارض التسوية الأمريكية الظالمة للعرب لقضية فلسطين .

وعلى المستوى العالمى ستعزز إيران النووية مكانتها على المسرح السياسى الدولى ، كما ستعزز مكانتها فى العالم الإسلامى (٥٧ دولة) كدولة إسلامية نووية تمامًا مثل باكستان ، والشىء الغريب أن أمريكا تدعم وتساند البرنامج النووى لكل من إسرائيل والهند ، لكنها عارضت البرنامج النووى الباكستانى الذى أصبح أمرًا واقعًا . وتعارض أمريكا البرنامج النووى الإيرانى فى الوقت الحاضر ، بل وغزت العراق واحتلّته بأكذوبة أسلحة الدمار الشامل ومنها النووية . ومن ثم يتضح أن أمريكا تعارض البرنامج النووى لأى دولة إسلامية أو عربية حرصًا على مصالحها ومصالح ربيبتها إسرائيل .

كما تأتى المعارضة الأمريكية للبرنامج النووى الإيرانى فى إطار اتهامات أخرى لإيران بأنها دولة تساند الإرهاب ، وأنها واحدة من دول محور الشر Axis of evil فى نظر أمريكا ، وأنها تقف خلف الحركات الإسلامية الراديكالية مثل حزب اللّه فى لبنان وحماس فى فلسطين . كما تعارض البرنامج النووى لكوريا الشمالية خوفًا على مصالحها

فى الشرق الأقصى ومصالح حلفائها هناك . وستحقق القدرة النووية لإيران تطلعاتها السياسية والاقتصادية والأمنية .

إلا أن امتلاك إيران لقوة نووية ضاربة سيشجِّع أمريكا على الاحتفاظ بقواعدها العسكرية المطوِّقة لإيران شرقًا فى أفغانستان ، وغربًا فى دول الخليج العربية . وسيعمق هذا الوضع الخلافات بين الدول العربية الخليجية وإيران ، لأن إيران ترى أن هذه القواعد العسكرية الأمريكية موجَّهة ضدها ، ولذا تطالب بتصفيتها . كما أن وجود قوات الاحتلال الأمريكية فى العراق يقلق إيران كثيراً . وهذا ما يدفع القيادة الإيرانية إلى التمسك ببرنامجها النووى وتطويره كرادع ضد الاعتداء عليها .

ولا شك فى أن نجاح إيران فى تخصيب اليورانيوم سيوفر لها الوقود المخصَّب الذى يمكِّنها من توليد الطاقة النووية الرخيصة كبديل بعد نفاد البترول . أما الدول الأخرى التى تعتمد على استيراد اليورانيوم المخصَّب من الخارج لتوليد الطاقة النووية فتضع نفسها تحت ضغط ورغبات من يزوِّدها بهذا الوقود المخصب .

وهكذا ستكون قوتان فى الشرق الأوسط نوويتان ضاربتان : إسرائيل وإيران . أما البُلْه فيطالبون بإخلاء الشرق الأوسط من الأسلحة النووية وكأن إسرائيل وإيران ستستمعان لبلاهتهم .

* * *

مصر والثورة الإيرانية

محمد السعيد عبد المؤمن

مدخل :

لقد مرت العلاقات المصرية الإيرانية خلال المرحلة الأولى من عمر نظام الجمهورية الإسلامية فى إيران بأسوأ فتراتها ، لكن يمكن القول بأن الأمم العظيمة أهدافها عظيمة ومسئولياتها جسيمة ، وهى تستعين بخبراتها الحضارية والثقافية فى اختيار أسلوب مناسب لتحقيق الأهداف والقيام بالمسئوليات ، ومصر وإيران قطبان فى منطقة الشرق الأوسط ممثلان لاتجاهين متوازيين فى الفكر والعمل، أحدهما يمثل يمين الوسط والثانى يمثل يسار الوسط، استطاعا التواصل خلال فترات مختلفة من تاريخ العالم ، والالتقاء عند محور الوسط لأصحاب الفكر الدينى الذى يجمع بين الوسط الإصلاحى والوسط الثورى ، وكان من أهم مظاهره نقطة الالتقاء حول فكر آل البيت مروراً بفكر الفاطميين وفكر جمال الدين ومحمد عبده إلى فكر محمود شلتوت حول التقريب بين المذاهب ، كما كان هناك تبادل لفكر الإصلاح الثورى بينهما خلال

فترات من التاريخ الإسلامى ، تمثلت مظاهره فى حركات الحكم الذاتى والاستقلال عن الخلافة ومواجهة الغزو المغولى والغزو الصليبى ، وتمثلت كذلك فى ثورات المطالبة بالحرية والحياة النيابية وحركات تأميم المصادر الطبيعية ، وتحديد الهوية الوطنية والثقافية . ومن منطلق إدراك كل منهما لقدراته الذاتية وإمكاناته ، وتزايد تأثير نشاطه فى المنطقة ، وإحساسه بحقه فى الريادة على سائر دول المنطقة ، ولرغبته فى القيام بدور قومى أو وطنى ، أو سعيه لتحقيق أهداف دينية أو مذهبية أو استراتيجية وطنية أو قومية ، فإن العلاقات بينهما ، سلبية كانت أم إيجابية ، كانت أحد أهم ضوابط الحركة فى عملية قيام كل منهما بدوره فى المنطقة ، وكان سوء اختيار الزاوية التى ينظر بها كل طرف إلى الآخر عاملاً سلبياً فى تنافسهما الإقليمى ، فمع إدراك كل طرف لأهمية العلاقات مع الطرف الآخر ، كان يصعب فى بعض الأحيان فهم معطياته ، ولا شك أن المتغيرات العالمية قد أدخلتهما مرحلة جديدة فى علاقاتهما مع العالم ، واكتسب دورهما فى المنطقة أهمية خاصةً ، جعلت من الضرورى إعادة النظر فى موقفهما أحدهما تجاه الآخر .

قضية تصدير الثورة الإيرانية :

هناك الكثير من القضايا التى بدأت بين البلدين مع قيام الثورة الإيرانية ، وينبغى على الطرفين بحثها ، ليس على سبيل تبادل الرأى واكتشاف قناعات كل طرف للطرف الآخر فحسب ، وليس لأن هذه القضايا قد فرضت نفسها على ساحة الثقافة الإسلامية فقط ، بل لأن بحثها

أصبح ضرورة دينية ووطنية وإسلامية ، ويأتى على رأس هذه القضايا : قضية تصدير الثورة الإسلامية التى تم الخلط فيها بين الجانب الثقافى والجانب العسكرى والأمنى ، مما أثار حولها الريب والتوجسات الأمنية ، فكانت سببًا مباشراً فى توتر العلاقات المصرية الإيرانية ، فقد أدى نجاح الثورة الإسلامية فى إيران ، وما ترتب عليه من انقضاء عهد الملكية ، وقيام الجمهورية الإسلامية ، إلى طرح ولاية الفقيه التى تستند إلى عقائد شيعية يظاهرها فقه حى متحرك ومرن يتيح لعلمائه إمكانية التعامل مع المستجدات ، والتواؤم مع الشخصية الإيرانية ، وكان لا بد من عرض هذا الطرح على شعوب العالم الإسلامى ، وأن يتخذ أسلوب طرح الثورة الإسلامية ، نوعًا من الوسائل العنيفة التى تخلق كثيراً من الحساسية لدى الشعوب والحكومات العربية .

وقد أضاف استقرار نظام ولاية الفقيه عمقًا فى تصدير الثورة الإسلامية إلى دول المنطقة والشعوب الإسلامية ، حيث أصبحت عملية أمنية فى المقام الأول ، لأن التصدير زحف إلى الخارج يقف أىَّ زحف إلى الداخل ، وثورة مبادأة تمنع الثورة المضادة من النفوذ ، ويستطيع الدارس لنظرية الأمن الإيرانية أن يدرك قيامها على أسلوب المبادأة بما لديها من مبررات عَقَدِيَّة وتاريخية وجغرافية وبشرية وسياسية ، حيث تركز النظرية على بعدين أساسيين : البعد الأول هو البعد العَقَدِىّ ، والبعد الثانى هو البعد النضالى ، أما البعد العَقَدِىّ فيهدف إلى تصدير الثورة ، عن طريق تغيير سلوكيات سكان المنطقة

فى اتجاه قيم الثورة الإسلامية من خلال منطلقين : الأول هو الالتفاف حول قيم آل البيت وتوجيهات أئمة الشيعة وتنفيذ وصاياهم ، والثانى هو إدماج السياسة بالعبادات فى صياغة جديدة لشكل العبادات وجوهرها وأبعادها . أما البعد النضالى فيهدف إلى إيجاد قوة ذاتية من دول المنطقة ، بكل إمكاناتها العسكرية والأمنية والاقتصادية بدعم بشرى وخبرات إيرانية ، وتبدأ نشاطها من خلال رفض المهادنة مع قوى الاستكبار العالمى ، ومواجهة هذه القوى وعملائها فى الداخل المتمثلين فى الرجعيين والسلبيين ، فضلاً عن دعم ومساندة وتمويل الحركات المعادية للاستكبار وعملائه فى المنطقة .

وقد اعتبر الخمينى إنشاء الحكومة الإسلامية فى إيران مجرد خطوة أولى تجاه إنشاء الدولة العالمية ، كما حث إيران بعد الثورة على دعم المستضعفين وحركات التحرر عبر العالم . وطالب حكومة إيران بأن يكون هدفها تحرير البشرية بأكملها . واعتمد الخمينى فى تصدير الثورة الإسلامية على كل من الحركات الإسلامية والأقليات الشيعية ، بوصفها رسل الجمهورية الإيرانية لنشر مبادئها التى فيها إنقاذ المستضعفين وخلاصهم . وبذلك نجد أن الخمينى ينطلق فى فكرته لتصدير الثورة من خلال بناء نموذج للثورة على مستوى السلوك بالنسبة إلى الفرد والمجتمع ، حتى يصبح نموذجاً للاقتداء الخارجى من الأفراد والمجتمعات الأخرى .

من هنا نجد أن المقصود بتصدير الثورة من وجهة نظر إيرانية هو تصدير حماسة إيران للإسلام ، كما أراد الخمينى والنظام الثورى

للجماهير الإسلامية أن تنهض وتخلّص نفسها من النظم الفاسدة ، وبهذا تكون الثورة الإيرانية فى محور الاتجاه الثانى بالنسبة إلى نشر الأفكار الثورية خارج الحدود .

ويرى بعض الدارسين أن الخمينى قد وقع فى أخطاء إيديولوچية جلبت المشكلات للبلاد والنظام فى حياته وبعد وفاته ، منها محاولة النظرية إدماج فكرة الثورة مع فكرة الولاية المطلقة للفقيه ، مع ما بين هاتين الفكرتين من تناقض ، لأن هذه المحاولة اتخذت شكل محاولة ضم قطبين متنافرين فى اتجاه واحد ، أو صهر مادتين غير متجانستين فى بوتقة واحدة ، لأن فكرة الثورة فى اتجاه الخروج على الواقع والتمرد على التقليد والجمود ، بينما فكرة ولاية الفقيه فى اتجاه الدخول فى الطاعة والسكون إلى مرجع التقليد ، كما أن انغلاق النظرية على فكرة الإمامية الشيعية جعل آفاقها لا تتسع باتساع الفكر الإسلامىّ العامّ ، كما جعلها لا تتجاوب مع النظريات الإسلامية الأخرى حول شكل الحكومة الإسلامية حتى تكتسب الشمولية المطلوبة ، وجعلها تمضى فى طريق التطرف الفكرى بعيداً عن الوسطية الإسلامية التى يألفها جميع مسلمى العالم ، بل جعلها تصطدم بالتيارات الفكرية الإسلامية فى المنطقة عند محاولة تصدير الثورة الإسلامية ، وتكتسب عداء حكومات المنطقة ، مما أدى إلى الصدام المسلح الذى تمخّض عن الحرب العراقية الإيرانية ، وسبب العزلة للنظام الإيرانى ، وأوقعه فى مضيق الحصار السياسى والاقتصادى والعسكرى .

تأثير الفكر الناصرى على الثورة الإيرانية :

عندما أجهض انقلاب زاهدى ثورة مصدق فى إيران دبَّ اليأس فى قلوب الإيرانيين ، وإن ظل الأمل يراودهم فى ظهور مخلِّص من ذلك الكابوس الذى تمثل فى السيطرة الأمريكية على مقدراتهم ، لذلك عندما قامت ثورة يوليو عام ١٩٥٢ فى مصر حملت لهم البشرى وقوَّت عزيمتهم ، فتشكلت الجماعات والأحزاب المعارضة للنظام وحماته الأمريكيين ، وأخذت تعمل فى السر والعلن ، وتتحمل ضغوط السلطة الحاكمة ، وتصبر على القمع والتنكيل ، ومع اتخاذ ثورة يوليو خطًا قوميًا معارضًا لمحاولات السيطرة الغربية ، وقيام الثورة بتأميم قناة السويس ، أدرك الثوار الإيرانيون أن طريقها هو طريقهم الذى اتسق مع تأميم مصدق للنفط الإيرانى ، فاتصلوا بها ، ورحب بهم قادة ثورة يوليو التى كانت تسعى لنشر الحرية والاستقلال وبعث الشعور الوطنى المناهض للاستعمار فى المنطقة ، وفتحوا لهم معسكراتهم ، فأرسل إليها الثوار الإيرانيون صفوة رجالهم ، وعلى رأسهم الثائر مصطفى چمران الذى تلقَّى تدريبه العسكرى فى معسكر إنشاص مع قوات الصاعقة المصرية ، ويُعتبر مصطفى چمران الذى أخلصت ثورة مصر فى تدريبه وزملائه ليكون لائقًا لتعيينه أول وزير للدفاع بعد نجاح الثورة الإسلامية فى إيران ، يُعتبر أحد القادة البارزين فى الثورة ، وهو رفيق آية اللّه طالقانى زعيم فدائيى الإسلام وآية اللّه مطهرى منظِّر الثورة ، كما وصفه شريعتى الأب الروحى لشباب الثورة بأنه شجاع جسور

ومقاوم . وبعد عودته من التدريب فى مصر أسس المقاومة الإسلامية التى تحولت بعد ذلك إلى جيش حراس الثورة الإسلامية ، وتمكن مع حراس الثورة الذين تدربوا فى مصر من فك حصار پاوة خلال الحرب العراقية الإيرانية ، كما انتصر فى معارك سوسنگرد ودهلاوية وخطط للهجوم على بستان ، لكن المنيَّة وافته بعد أن ترك رباطًا متينًا بين الثورة الإيرانية وثورة يوليو ، ويعتبر مصطفى چمران نموذجًا لحسن تلقِّى قادة الثورة الإسلامية فى إيران تعاليم الثورة المصرية . وأصبح الزعيم جمال عبد الناصر أحد رموز القدوة لديهم ، وأصبحت الناصرية أحد أهم مناهل ثورتهم ، فنهلوا من تعاليمها وأصبح كتاب فلسفة الثورة أحد أهم مراجعهم . لقد أدرك الإيرانيون أن ثورة يوليو ثورة شعبية حقيقية ضد الظلم والطغيان والاستعمار ، وأن من قاموا بها هم أبناء مصر الحقيقيون بعد خمسة وعشرين قرنًا تعاقبت فيها قوى البغى والاستعمار على حكم مصر منذ الأسرة الفرعونية السادسة والعشرين ، كما أدرك الإيرانيون أن ثورة يوليو يحكمها الميراث الثقافى المصرى الذى جمع بين الفرعونية والقبطية والإسلام .

لقد اعتبرت الثورة الإيرانية نجاح عبد الناصر فى إيقاظ شعوب الشرق بموقفه المترصد للغرب أمرًا يدخل فى إطار مقاومة الشرق لتراكم القهر الاستعمارى الغربى عليه ونهبه لثرواته ، واستشف الإيرانيون من فلسفة الثورة المصرية أن مركز الدائرة الإسلامية فى فكر الناصرية ليس مركز الدائرة العربية ، بل هى مكملة لها فى مقاومة

الاستعمار الغربى وحماته ، وأنه قد تعمق فى وجدان الناصرية وعيها منذ البداية بالدائرتين العربية والإسلامية ، وأن البعد الإسلامى للناصرية قد أصبح داعمًا للبعد القومى العربى بتوجهاته المدنية ، مما أضفى على الكفاح الثورى المحتوى الثقافى الشرقى بكل أبعاده ، واستشف الإيرانيون أيضًا أن الناصرية اعتبرت حروب تحتمس الثالث ورمسيس الثانى وصلاح الدين فى حطين وقطز والظاهر بيبرس فى عين جالوت ثورة للشرق ضد ظلم الغرب ، كما اعتبر الإيرانيون مؤتمر باندونج الذى كان الزعيم جمال عبد الناصر رئيس لجنة تدوين ميثاقه تجمعًا شرقيًا متحضراً ضم تسعًا وعشرين دولة إفريقية وآسيوية عانت من ويلات الغرب ، وقد اعتبرت الثورة الإيرانية هذا المفهوم الكفاحى أمراً مشتركًا بين الثورة والناصرية ، كما اعتبرت الثورة الإيرانية جمال عبد الناصر زعيمًا عظيمًا للعالم الثالث ، ورائداً لعدم الانحياز ومدافعًا عن حقوق شعوب الشرق ، وعاملاً على استقلال الشمال الإفريقى ، وساعيًا لحصول الشعب الفلسطينى على حقوقه ، بل اعتبرت صيحته "ارفع رأسك يا أخى" فى وجه الغرب تتماثل مع صيحة المسيح فى وجه الرومان واليهود ، وأنها قد عبرت الحدود إلى أبعد نقاط قارَّتَىْ آسيا وإفريقيا ، وهو ما يتجاوب مع اتجاه الثورة الإيرانية لتصدير الثورة فى المنطقة والعالم .

كما تؤكد الثورة الإيرانية أنه على الرغم من أن عبد الناصر ورفاقه كانوا يديرون أعمالهم من القصور ، فإنهم لم يعيشوا فيها عيش الملوك

أو الفراعنة ، وإن كان عبد الناصر قد مات مثل الفراعنة ، بدليل ما شهدته مصر من أمواج بشرية تملأ الشوارع والميادين ، تهدر مثل النيل فى صوت واحد : (لا إله إلا اللّه عبد الناصر حبيب اللّه) ، وهو ما لم يحدث فى مصر إلا عند تنحِّيه وخروج الجماهير المعارضة لهذا التنحِّى ، وهو ما يتناغم مع قيام الثورة الإيرانية بالعمل على وجود الجماهير فى الساحة وتنظيمهم .

لم يقلّ تقدير الثورة الإيرانية للناصرية مع نكسة يونيو عام ١٩٦٧ لإيمانها بأن الغرب يترصد الثورات الشعبية فى العالم الإسلامى ويحشد إمكاناته لإفشالها ، حيث يدرك الإيرانيون أن الناصرية فى تألقها على الساحة العربية التى كان عبد الناصر فارسها طوال ثمانية عشر عامًا لا يمكن فهمها من خلال حدث ضمن سلسلة أحداث مرت بها فى انتصاراتها أو انكسارها ، وإنما من خلال معرفة الشخصية الحضارية لمصر ، والتى كانت بوتقة صهرت جميع الحضارات التى تعرضت لغزو أصحابها مثل اليونانية الهيلينية والرومانية البيزنطية وحتى الفارسية الأكمينية والساسانية ، والتى قبلت المسيحية من خلال فكرها القبطى وأسست لها كنيستها القبطية ، كما قبلت الإسلام بروح ثقافتها المنفتحة، فكان إسلامها الوسط ومحبة شعبها لأهل البيت ، وترحيبه بفكر الإصلاح لجمال الدين الأفغانى ، تلك الشخصية الحضارية التى تمثلتها الناصرية اجتهدت فى أن تلعب دور الموحد كما فعل الفراعنة والبطالمة والزعماء المسلمون من الفاطميين إلى محمد على باشا ، وأن

استراتيجيتها فى التحرير بأبعادها العربية والإسلامية والإفريقية ناتجة عن إيمانها بالتاريخ الوسيط والمعاصر الذى يرفض النظرة الضيقة إلى الحرية فى إطارها الإقليمى العربى أو الإسلامى، وهو الدور الذى تسعى الثورة الإيرانية للقيام به .

وترى الثورة الإيرانية أن الناصرية كانت دائمًا عدواً للديمقراطية الليبرالية من ناحية ، وللماركسية من ناحية أخرى ، حيث لم تكن الليبرالية والماركسية هما محور البنية الفكرية للناصرية ، كما كانت محور البنية الفكرية الغربية التى لم يكن عبد الناصر يلقى بالاً لها حتى إنه لم يَزُرْ طوال فترة حكمه دولة غربية كبرى ، فكانت برجماتيته الحديثة على أساس إيديولوچية إسلامية ، وأن الناصرية قد حققت إنجازين واضحين فى العمل السياسى ، هما تصفية الشيوعية بعد تصفية الديمقراطية الليبرالية ، وإعادة تقاليد الحكم البيروقراطى المصرى الذى تشكل خلال سبعين قرنًا واتسم بالوحدة ، وحدة الوطن ووحدة المجتمع ووحدة الفكر والعمل ووحدة الحكم ووحدة الدين والفلسفة ، فكانت مصر أقدم الأمم الموحِّدة ، وكان طابع الأمن والنظام يسود نظام حكمها ، وإن كان عبد الناصر قد مثل هذه التقاليد فإنه لم يستخدم السلطة لمصلحته الشخصية ، ولم يمنح التاج والعرش والثراء لأسرته ، فكان يعيش فى بيت متواضع مع أسرته ، وهو ما فعله آية اللّه الخمينى زعيم الثورة الإيرانية وما يحاول أن يفعله خلفاؤه .

تلك العناصر التى استشفها الإيرانيون من الناصرية يعتبرونها أساسًا للتقارب بين فكر الثورة الإيرانية وفكر الناصرية فى مصر ،

ومدخلاً للتفاهم بين الإيرانيين والمصريين ، فى إطار مواجهة التحدى الغربى الذى يتكالب على محاولة قهر الروح الشرقية والثورات التى تمثلها .

تأثير حرب أكتوبر على الثورة الإيرانية :

رغم أن نحو ست سنوات تفصل انتصارات حرب أكتوبر ١٩٧٣م فى مصر عن انتصار الثورة الإسلامية ، وقيام الجمهورية الإسلامية فى إيران ١٩٧٩م ، فإن من قاموا بثورة إيران قد تربوا فى مدرستها واستفادوا من نتائجها ، ومن ثم كانت لهم رؤية محددة تجاه هذه الحرب ونتائجها ، وتأتى هذه الرؤية من منطلقات الثوابت الإيرانية تجاه مصر والمنطقة والعالم الإسلامى ، وهى ثوابت إيديولوچية تتداخل فيها العقائد والمصلحة ، ولعل من أهم هذه الثوابت نظرية (شيعة شعب مصر) ، إضافة إلى نظرية الجهاد الإسلامى وانعكاساتها على نظرية الأمن الإيرانية ، ونظرية الاستضعاف السياسية ، فضلاً عن الموقف الإيديولوچى تجاه كل من القدس وفلسطين وإسرائيل .

كان شعار مصر فى حرب أكتوبر استعادة الأرض لتحقيق السلام القائم على العدل ، ومن ثم فقد اتخذت مصر بعد انتصارات أكتوبر استراتيجية السلام والاستقرار فى المنطقة ، مما دفعها إلى مباحثات السلام مع إسرائيل ، ثم توقيع اتفاق كامب ديفيد ، الذى استطاعت

بمقتضاه أن تسترد جميع الأراضى المصرية التى احتلتها إسرائيل من قبل ، وتنهى حالة الحرب بينهما ، لكن بُعْد الرؤية المصرية تجاه مستقبل الشرق الأوسط لم يكن مفهومًا بوضوح لدى دول المنطقة ، حيث قامت معظم الدول العربية برفض دعوة مصر للسلام ومقاطعتها سياسيًا ، بحجة أن اتفاق كامب ديفيد يعنى خروج مصر من دائرة الكفاح ضد العدو الإسرائيلى ، مما يضعف هذا الكفاح ويدعم العدو ، وقد سارع ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية إلى إيران ، والتقى بآية اللّه الخمينى زعيم الثورة الإسلامية فى إيران ، وشرح له مخاوفه من الموقف المصرى ، ومخاطر اتفاق كامب ديفيد على القضية الفسلطينية التى تتبناها الثورة الإسلامية ، وحثه على اتخاذ موقف يدفع مصر إلى التراجع عن الاتفاق أو إلغائه . ونظرًا إلى أن الثورة الإسلامية فى إيران كانت فى قمة انفعالها الثورى وحماستها للشعارات التى أطلقتها ، فقد وجدت دعوة ياسر عرفات استجابة فورية لدى الزعيم الخمينى فأمر حكومته بقطع العلاقات مع مصر ، وجند الصحف ووسائل الإعلام لمهاجمة اتفاق كامب ديفيد ودعوة مصر إلى إلغائه ، لِمَا ظن أن يترتب عليه من تداعيات ، وكان للموقف العربى شبه الجماعى من مصر والاتفاقية ، واستقبال مصر للملك المخلوع محمد رضا بهلوى ، ورفض تسليمه لإيران ، ثم دفنه بعد وفاته فى القاهرة ، ثم قيام الحرب العراقية الإيرانية ، أثرٌ فى تصاعد الموقف الإيرانى ضد مصر ، فاتبعت إيران أسلوب تصدير الثورة دعائيًا وإعلاميًا فى السنة الأولى من عمر النظام ،

لأن الصـراعـات بين الرئيس أبو الحسن بنى صـدر وعلمـاء الدين كـانت على أشـدها ، والمخـاوف من جنرالات الجيش لم تكن قـد هدأت بعـد ، وحملات تطهيره كانت لا تزال مستمـرة ، والقوة السيـاسـية المختلفة الإسلامية وغير الإسلامية مثل حزب توده وجماعة مجاهدى خلق كانت تتصارع بدورها من أجل الإمساك بزمام الأمور ، والسـلام الذى حصلت عليه من ثكنات الجيـش فى أثنـــاء المواجهات الشـعبية مع هذا الأخير كان لا يزال بين أيدى هذه القوى والمنظمـات . من هنا لم يكن مـوضـوع تصدير الثـورة عنيفًا فى السنة الأولى حيث لم يكن النظام الإيرانى قد رسَّخ أركانه بعد ، وتم الاعتماد الأكبر على الدعاية والإعلان فى تصدير الثورة . وقد دافع الخـمينى عن ظاهرة تصدير الثـورة فى هذه الفتـرة فقـال فى إحدى خطبه : إننـا سنصدر ثورتنا إلى كل العـالم حتـى يعلم الجميع لماذا قمنا بالثورة . لقد كان هدفنا الاستقلال والحرية والجمهورية الإسـلاميـة ، الاستـقـلال بمعنـى التـحرر من القـيـود والتـبـعـية للشـرق والغرب ، والحرية أى التـحرر من أغلال استبداد إمبراطورية شاه إيران، والجمهورية الإسلامية أى أن يحقق الإيرانيون حلمهم بإقامة حكومة على أسـاس الإسـلام والديمقـراطيـة . إننا نريد أن يعـرف العـالم مبـررات ثورتنا ، فلو أن الناس فى العالم يعرفـوننا ، فإنهم سـيقومـون بالدفاع عنا ، ولن ينخدعوا بحيل وسـائل الإعلام الإمبريالية . إن بعض الأنظمة السيـاسية فى المنطقة كانت تعتبـر أى فكر جـديـد فى المنطـقـة خطـراً على حكومـاتهـا ، فـأطلقت عـلى تصـدير الثـورة ظـاهرة مـخـيفـة عـلى

مستقبل البشرية ، فى حين أن الثورة هى مشروع طويل الأجل تتشكل من خلاله أفكار ومعتقدات أمة ، مع الأخذ فى الاعتبار سماتها الفكرية والقومية .

كان دعم مصر للعراق فى مواجهة إيران ما جعل إيران تتمادى فى موقفها بالهجوم الإعلامى على مصر ، واتخاذ موقف متشدد حيالها، والإصرار على تصدير الثورة الإسلامية إليها ، والاتصال بالجماعات الإسلامية المناهضة لنظام الحكم فى مصر ، وما نتج عن هذا العمل من تحولات سياسية وعسكرية هامَّة فى منطقة الشرق الأوسط ، ثم قيام مباحثات طويلة بين العرب وإسرائيل قام على أثرها كثير من الدول بإعادة علاقاته مع النظام الصهيونى ، استناداً إلى أن أصحاب القضية قد حلوا مشكلتهم مع إسرائيل ، وأنهم ليسوا أفضل من أصحاب القضية ، فضلاً عن أن خروج مصر من مجموعة دول المواجهة أضاع احتمال نشوب حرب تقليدية كبيرة أخرى بين العرب وإسرائيل ، مما غيَّر استراتيجية الدول العربية حتى سوريا تجاه إسرائيل .

كل ذلك سبَّب تراكمات منعت أى صوت يرتفع فى إيران ليناقش حقيقة الموقف المصرى أو العلاقات مع مصر ، حتى انتهاء الحرب العراقية الإيرانية ووفاة الزعيم الخمينى . يقول المحلل السياسى سيد شهيدى : كان سبب قطع العلاقات مع مصر هو توقيعها معاهدة كامب ديفيد مع النظام الصهيونى الغاصب ، ولقد نتج عن هذا العمل الذى قام به السادات تحولات سياسية وعسكرية هامَّة فى منطقة

الشرق الأوسط ومباحثات طويلة بين العرب وإسرائيل قام على أثرها كثير من الدول بإعادة علاقاته مع النظام الصهيونى استناداً إلى أن أصحاب القضية قد حلوا مشكلتهم مع إسرائيل وأنهم ليسوا أفضل من أصحاب القضية ، ومن ناحية أخرى فإن خروج مصر من مجموعة دول المواجهة أضاع احتمال نشوب حرب تقليدية كبيرة أخرى بين العرب وإسرائيل ، ولذلك فقد تغيَّرت استراتيجية الدول العربية حتى سوريا تجاه إسرائيل ، كما أن دول الخليج العربية برفعها الحظر جزئيًا عن إسرائيل قد قربت المسافة بين إسرائيل ونشاطاتها المعادية وبين إيران ، حتى ولو كان فى صورة وصول منتجات إسرائيلية إلى منطقة الخليج ، لأن هذا يمثل مظهراً من مظاهر الاختراق الإسرائيلى للأمن الإيرانى بمعناه الواسع .

قضية فلسطين والعلاقات الإيرانية المصرية :

لقد كانت القضية الفلسطينية قضية محورية فى فكر نظام الجمهورية الإسلامية الذى أقامته الثورة فى إيران ، إلا أن إيران قد فرَّقت منذ البداية بين تعبيرين أساسيَّين هما اليهودية والصهيونية ، ويقوم الرأى الإيرانى حول اليهودية على نفس الأساس الذى وضعه الإمبراطور قورش الأول مؤسس أول إمبراطورية فارسية عند تحريره اليهود من السُّبْى البابلى ، وهو أن اليهود جنس له شبه كبير بالجنس الآرى ويمكن الاستفادة منه من خلال إغرائه بالمال ، وقد استفاد النظام

الإيرانى من اليهود استفادة كبيرة خلال الحرب مع العراق كوسطاء يعقدون الصفقات مع الدول الغربية واليهود غير الإيرانيين ، لإمداد إيران بما تحتاجه من المؤن والعتاد خلال فترة الحصار الأمريكى مقابل عمولات معقولة لإدراكه أن هذه الأموال سوف تعود من خلال دوران رأس المال اليهودى فى الاقتصاد الإيرانى . أما الصهيونية فهى العدو الحقيقى لإيران لأن استراتيجيتها تتعارض تعارضًا تامًا مع استراتيجية النظام الإيرانى ، كما أن أنشطتها الفعالة تتقاطع مع الأنشطة الإيرانية فى مختلف أنحاء العالم ، وتمثل إسرائيل بؤرة النشاط الصهيونى مما يجعلها قطبًا متنافرًا مع إيران ويجعل العلاقات بينهما تبدو مستحيلة ، ويؤكد الإيرانيون أن تحديات هذه العلاقات تحديات أمنية بالمعنى الواسع ، لذلك فإن الموقف الإيرانى من القضية الفلسطينية لا ينبع من فراغ ، بل من معطيات عَقَدِيَّة وسياسية واقتصادية وحضارية تجعل الإيرانيين يفصلون بين أمرين أساسيَّين فى القضية ، وهما حقوق الشعب الفلسطينى ومسألة القدس . وعلى هذا فإن المواقف الإيرانية ليست واحدة مع كلا الأمرين حيث تبدو متغيرة حسب الظروف والأحداث تجاه حقوق الفلسطينيين وتبدو ثابتة تجاه مسألة القدس ، فالقدس لها قيمة كبيرة لدى الإيرانيين منذ آلاف السنين عندما حررها الإمبراطور قورش الأول من أيدى البابليين وصاهر أهلها ، ثم أصبحت قضية جهادية لدى إيران تطبق عليها قواعد الجهاد الطويل المدى ، وقد جعلها الخمينى أحد رموز النضال خلال الحرب

العـراقـيـة الإيرانيـة ووضع خطة عـمليـتين كـبـيـرتين فى إطار هذه الاستراتيجية أَسْمَى الأولى عمليات طريق القدس وأَسْمَى الثانية عمليات بيت المقدس ، وإن كان الاهتمام الإيرانى بالقضية الفلسطينية لم يفتر قط فإنه قد حدثت تحولات فى كيفية التعامل معها ؛ لقد حاولت إيران أن تقنع الرأى العامَّ العربى والإسلامى أن المفاوضات مع إسرائيل لن تحل القضية وأن الجهاد هو السبيل الأمثل لحلها .

لكن إيران تتـمـسك بأمـرين هـمـا القـدس الإسـلامـيـة وحـقـوق الشعب الفلسطينى ، وهو ما يتفق مع السياسة المصرية ، وفى إطار ذلك تمت مراجعة الموقف الإيرانى من مصر ، وطرح عدد من الشروط لإعادة العـلاقـات مع مـصـر ، تلخـصت فى أن كل خطوة تفـصل مـصـر عن إسرائيل تقربها من إيران ، وكل عمل فى سبيل إنهاء التسلط الأمريكى على المنطقة يدعم العلاقات مع إيران ، وأن تقف مصر مساعيها من أجل المصالحة بين العرب وإسرائيل ، وأن تقف الحكومة المصرية عن قمع الجماعات الإسلامية ، فضلا عن وقف الهجوم الإعلامى ضد إيران ، وكان لا بد من تحرك إيرانى بحثًا عن الحقيقة ، وتبين أن الغالبية من الإيرانيين يقدرون التحول المصرى من استراتيجية الحرب إلى استراتيجية السلام ، وأن الكفاح ضد إسرائيل من أجل استعادة الحقوق الفلسطينية والعربية قد اتخذ شكلاً آخر يتفق مع طبيعة التحولات العالمية وسقوط الاتحاد السوفييتى وظهور الأحادية القطبية ونظام العولمة ، بل لعل القيادات الإيرانية قد أدركت أن الدور المصرى

فى هذا الكفاح لا يتعارض مع الدور الإيرانى وأنهما يكمل كل منهما الآخر ، لذلك خرجت التصريحات بأن إيران لا تعارض السلام فى الشرق الأوسط ، وليست معادية لليهود وإنما تريد استعادة الشعب الفلسطينى لحقوقه المشروعة .

الوجود المصرى فى الخليج وأثره على العلاقات مع إيران :

ما من شك أن مبدأ تصدير الثورة كان عاملاً هامًا من عوامل التوتر بين إيران ومجلس التعاون الخليجى ، خصوصًا حين ربط آية اللّه الخمينى تصدير الثورة الإسلامية ببقائها واستمرارها ، وقد شكل إعلان تأسيس مجلس التعاون فى مايو ١٩٨١م عاملاً آخر من عوامل التوتر بين الجانبين ، حيث نظرت إيران إلى ذلك المجلس نظرة سلبية ، واعتبرته بمثابة حلف موجّه ضدّها ، وأداة لإبعادها عن شئون المنطقة ، وخطوة للاندماج الاقتصادى والسياسى والعسكرى ، مما يشكل وضعًا غير ملائم لمصالحها ، ووصل بها الأمر إلى أن اعتبرته بمثابة غطاء لمد نفوذ المملكة العربية السعودية على كيانات شرق الجزيرة العربية . والواقع أن فكرة تصدير الثورة خلال شعائر الحج لم تكن مطروحة فى السنتين الأوليين من قيام الجمهورية الإسلامية فى إيران ، ويمكن أن نستدل على ذلك من رسالة الخمينى التى وجّهها إلى الحجاج الإيرانيين فى ٢٠ سبتمبر ١٩٧٩م ، وهى أول قافلة للحجاج تخرج من إيران بعد قيام الثورة الإيرانية ، وقد جاء فى الرسالة ما ترجَمَتُه : يجب على الإخوة

الإيرانيين والشيعة فى سائر البلاد أن يتجنبوا القيام بأعمال حمقاء تؤدى إلى تفرق صفوف المسلمين ، كما أن عليهم ضرورة حضور صلاة جماعة أهل السُّنَّة ، وتجنب إقامة صلاة الجماعة فى المنازل وغيرها ، وضرورة الالتزام فى أداء المناسك بحكم قضاة أهل السُّنة وتنفيذها ، حتى ولو كانت مخالفة تمامًا لأحكام مذهبنا ، مثل تحديد أول ذى الحجة ومواقيت المناسك .

من هنا نجد أن فكرة الاستفادة من الحج فى الدعاية إلى النظام الإيرانى لم تظهر إلا بعد عامين من تولى الخمينى الزعامة السياسية فى إيران ، حيث بدأ يؤكد منذ ذلك الوقت على الجوانب السياسية فى العبادات وأهميتها ، حيث قال فى رسالة إلى الحجاج الإيرانيين فى موسم حج عام ١٤٠١هـ ما ترجَمَتُهُ : إن فريضة الحج من بين الفرائض الإلهية التى تتمتع بميزات خاصة ، قد تغلب جوانبها السياسية والاجتماعية على الجوانب الأخرى مع أن جانبها العبادى له مميزات خاصة .

وكان قد طلب فى عام ١٤٠٠هـ من السلطات السعودية الموافقة للحجاج الإيرانيين على عقد ندوات والقيام بمسيرات سلمية فى المدينة ، تعبيرًا عن موقف إيران الإسلامى بعد أن مَنَّ اللّه عليها بنجاح الثورة . ثم أعلن الخمينى ضرورة تطبيق مبدأ التولى والتبرُّؤ ، وبتطبيق هذا المبدأ يمكن اعتبار المسلمين الذين يتعاملون مع الدول الغربية والشرقية ، ويرتبطون معها بمصالح ، فى عداد المنافقين الذين يتولون أعداء اللّه من دون المؤمنين ، ولذلك فإنهم يُعْتبرون من هؤلاء الأعداء ، ويسرى عليهم

ما على الأعداء من أحكام ومعاملات أولها التبرؤ منهم وآخرها تكفيرهم . واتخذ الخمينى من الربط بين أفكار الشيعة حول حادث كربلاء ومقتل الإمام الحسين بن علىّ ثالث أئمة الشيعة فيه ، وبين فكرة إعلان البراءة من المشركين فى الحج ، وسيلة لإثارة جماهيرالحجاج ، وإقناعهم بفكرته حول التظاهر باعتبارهم مقلدين لإمامهم الحسين، حيث يقول فى رسالته إلى الحجاج فى موسم حج عام ١٤٠٦هـ ما ترجَمَتُهُ : سلام بلا نهاية على الإمام علىّ بن أبى طالب الذى حارب المتسترين فى شكل المسلمين المدعين القداسة بأسوأ مما قاتل الكفار ولم يخش أية قوة ، والسلام على الحسين بن علىّ الذى نهض برفاقه المُعْدَمين لوقف ظلم غاصبى الخلافة ، ورغم قلة عدده وعدته لم يَدُرْ بخلده أن يتصالح مع الظالم وأطلق صيحة "هيهات منا الذلة" إلى أذن طلاب الحق ، والتى بدت فى نظر طلاب الدنيا ودعاة القومية مخالفة للعقل والشرع . إن عقلهم لا يستحسن الثورة دون تجهيزات كافية ، وشرعهم لا يسمح بذلك ، ويعتقدون أن الحركة من بلد إلى آخر له حكومة ونظم ، هى مخالفة للعقل والقومية فضلاً عن مخالفته الموازين الشرعية والإلهية .

لقد غدت مواسم الحج المتتالية مناسبات متكررة للصدام بين الحجاج الإيرانيين والحرس السعودى الذى ينفذ تعاليم صارمة تفصل بين الدين والسياسة ، فى دولة تتخذ الإسلام إيديولوجيتها السياسية ، وقع هذا الصدام فى عام ١٩٧٩م عندما تظاهر الحجاج الإيرانيون مطلقين شعارات تندد بأسرة آل سعود ، وتَكَرَّر ذلك فى عام ١٩٨١م ،

وردّت القوات السعودية باقتحام المسجد الحرام واستخدام الغاز المسيل للدموع ، واعتقال العديد من الإيرانيين ، وكان من الطبيعى أن تقف مصر إلى جانب السعودية فى مواجهة الإثارة الإيرانية ، وتزداد بذلك الحرب الإعلامية بين البلدين .

- من الطبيعى أن تكون كل الدول التى لها مصالح فى منطقة الخليج معنيّة باستقرار الأمن فى هذه المنطقة ، وأن يصل اهتمامها بهذا الأمر إلى الحد الذى ترسل فيه جيوشًا وقوات عسكرية إلى المنطقة ، وأن تبادر بتقديم مشروعات متواصلة لأمن الخليج ، ويعترض تنفيذ أحد من هذه المشروعات اختلاف الرؤى لدى دول الخليج من ناحية ، وبينها وبين الدول صاحبة المصلحة فى الخليج من ناحية أخرى ، حيث يرى الإيرانيون أنهم أصحاب الحق الشرعى منذ أقدم العصور فى وضع نظرية الأمن فى منطقة الخليج ، نظرًا إلى الموقع الجغرافى والوجود السكانى الإيرانى المؤثِّر والضاغط فى منطقة الخليج ، لذلك عارضت إيران الوجود المصرى فى الخليج من خلال فكرة وحدة الأمن العربى ، باعتبار أن القومية العربية قد تفككت بعد انتهاء زعامة مصر بقيادة عبد الناصر ، وعدم وجود مصداقية للزعم بأن أمن الخليج قضية عربية متصلة بالأمن العربى العامّ ، نتيجة لعدم وجود شواهد على أن التوتر فى الخليج يمكن أن يؤثر على أمن دول شمال إفريقيا العربية ، فضلاً عن احتفاظها بجزر الإمارات الثلاث طنب الكبرى وطنب الصغرى وأبو موسى ، وهو ما لا تقره مصر ، ومن ثم استمرت الحرب الإعلامية بينهما ، مع عدم وجود أية فرصة لتحسين العلاقات .

نتيجة :

إن تحرك المجتمع الدولى فى اتجاه ما أصبح يعرف بالعولمة ، وهى بالقطع مسيرة متحركة متطورة وتزداد فى أبعادها السياسية والاقتصادية والثقافية يوماً بعد يوم وتتخطى الحدود الجغرافية للدول ، يفرض علينا قواعد جديدة فى التعامل الدولى ، أهمها أن نمد أيدينا أولاً بعضنا إلى بعض ، وأن نجعل من التفاهم سبيلنا فى مواجهة تيار العولمة الجارف الذى يقتحم الخصوصية الوطنية ، ويحدث متغيرات سياسية واقتصادية وثقافية فيها تقتضى التقارب بين أبناء الأمة الواحدة ، وتفرض التعاون من أجل تحقيق المصلحة المشتركة ، وتحقيق إمكانية تقديم الثقافة الإسلامية إلى الثقافات الأخرى ، وتحقيق القدر المطلوب من التوازن بين الشأن الإسلامى والشأن العالمى ، كما تفرض علينا العولمة تنسيق المواقف تجاه الأوضاع الموجودة فى المنطقة ، والتعاون على حلٍّ مشكلاتها المعقَّدة ، وإقرار الأوضاع المناسبة للتعاون الفعال بين دول المنطقة ، ودعم السلام والأمن والصداقة .

إن زوال الفهم الخطأ والأسلوب الانفعالى فى تحليل كل من مثقفى مصر وإيران لسياسات الطرف الآخر الداخلية والخارجية ، واحترام كل منهما لمبادئ وقيم ومواقف الطرف الآخر ، ينهى المنافسة القطبية التى كانت تؤدى إلى المواجهة بين البلدين ، ويجعل للتعاون دوراً بديلاً عنها ، هذا التعاون لن يقضى على تحديات دعم العلاقات بين البلدين فحسب ،

بل إنه سوف يجعل الثقة تحل محل سوء الظن ، ولن يزيد من قوة كلا البلدين فحسب ، بل إنه سوف يزيد من قوة العالم الإسلامى .

من خلال ذلك كله يمكن استشراف فرصة للحديث عن عقد اتفاق أمنى بين مصر وإيران لما له من فائدة للطرفين فى الظروف الراهنة ، حيث يمكن من خلاله حل المشكلات الأمنية المعقدة بين البلدين ، كما أننا لا نستبعد مع بعض الدلائل وجود عناصر معادية لمصر فى إيران ، وقد آن الأوان لكى يتم تسليمها إلى مصر وإغلاق صفحة مساعدة إيران للإرهابيين الخارجين على النظام فى مصر ، وعدم تكرار حادث أديس أبابا ، ولن يحل تلك المشكلات التى تعوق قيام علاقات طبيعية بين مصر وإيران إلا البدء بحل المشكلات الأمنية ، من خلال مباحثات بين أجهزة الأمن فى البلدين ، من أجل الوصول إلى اتفاق أمنى ، يكون خطوة عملية تدل على حسن نوايا الطرفين ، ومقدمة لقيام علاقات صحية ومفيدة بين مصر وإيران .

* * *

العلاقات الثقافية بين مصر وإيران

فى التاريخ الحديث

بديع محمد جمعة

كانت العلاقات الثقافية بين مصر وإيران تمثل نقطة ارتكاز فى مجمل العلاقات بينهما ، حيث كان رواد الثقافة الإسلامية كلهم يسيحون هنا وهناك ، ولم تكن تحد نشاطهم أو ترحالهم أية حدود جغرافية ، وأية خلافات سياسية أو مذهبية ، وكانت المكتبات المصرية العامة والخاصة تعج بأمهات الكتب الفارسية ودواوين الشعراء الكبار ، والدليل على ذلك الكتب الفارسية المهداة إلى دار الكتب المصرية والتى تمثل ذخيرة لا تقدر بثمن ، وبالمثل كانت مكتبات إيران تزخر بالكتب المصرية ، بل تخصصت بعض المكتبات فى طهران فى بيع الكتب العربية وبخاصة المصرية منها .

ونتيجة لعمق هذه العلاقات الثقافية بين مصر وإيران كانت مصر تستقبل العديد من الوفود الإيرانية الراغبة فى السياحة والعلم ،

لدرجة أن علية القوم من الإيرانيين حينما كانوا يرغبون فى تأدية فريضة الحج خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، كان طريقهم إلى الأراضى الحجازية غالبًا ما يمر بالأراضى المصرية ، حيث تبدأ الرحلة من الأراضى الإيرانية وتتجه غربًا عبر الحدود الإيرانية التركية حتى يصلوا إلى إسطنبول ومنها يركبون البواخر إلى الإسكندرية ومن الإسكندرية يركبون القطار إلى السويس ، ثم البواخر إلى الموانئ الحجازية وبخاصة إلى ميناء جدة .

وإذا استعرضنا كتب الرحلات الإيرانية الصادرة خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، وأهمها :

١ - سفرنامة سيف الدولة والمعرف باسم "سفرنامة مكة" ١٢٧٩هـ = ١٨٦٢م .

٢ - سفرنامة فرهاد ميرزا ١٢٩٢ - ١٢٩٣هـ = ١٨٧٥ - ١٨٧٦م .

٣ - سفرنامة مكة للحاج مهديقلى هدايت ١٣٢١هـ = ١٩٠٣م .

... نجد أن هذه الرحلات قد اهتمت بوصف مصر عمومًا وبالأماكن التى نزلوا بها خصوصًا ، فأسهبوا فى الحديث عن جمال الإسكندرية وتميزها وعمرانها ، وأشادوا بالقاهرة وبحدائقها وبخاصة حديقة شبرا والمقصود بها حديقة قصر محمد علىّ الذى أعيد ترميمه أخيرًا ، وحديقة الأزبكية وما تقدمه من فنون موسيقية وحركة إبداعية كانت مثار

إعجابهم ، وكذلك وصفهم لميناء السويس وبواخر الحجاج وما تقدمه مصر فى ذلك الوقت من خدمات وتسهيلات لهؤلاء الحجاج .

ولا شك أن ما ورد فى هذه الكتب من إشادة بمصر وما حوته من إعجاب بالآثار القديمة والحديثة ، وكذلك ما جاء بها من وصف للمدن التى مرُّوا بها ، كل هذا يستحق أن يترجَم إلى اللغة العربية وأن يدرس ، حتى نتعرف على آراء الوافدين على مصرنا فى ذلك الوقت !

وإلى جانب هؤلاء الوافدين إلى الحج عن طريق مصر ، كانت مصر تستقبل بترحابٍ المفكرين أو الثائرين الإيرانيين ، ويكفى أن نضرب لذلك مثلا بالثائر جمال الدين الأفغانى الذى لجأ إلى مصر بعد خلافه مع حكومة ناصر الدين شاه القاجارى وكيف رحَّب به علماء مصر وقادة الأزهر وأنزلوه منهم منزلة العلم وساندوه فى دعوته لمحاربة الفساد والظلم والتخلص من النفوذ الأجنبى فى سائر البلاد الإسلامية ، ويكفى أن شيخ الإسلام الإمام محمد عبده قد تضافر معه فى دعوته وزامله فى إصدار جريدة العروة الوثقى ، وقد قال جمال الدين يوم أُبعد عن مصر : إننى خرجت من الديار وما ألَّفت كتاباً ، ولكن تركت لهم أثراً يغنى عن جميع الكتب ، وهو محمد عبده ، وكفى به لمصر عالماً .

ولعل الحديث عن ذلك التقارب الفكرى والروحى بين جمال الدين الأفغانى كما هو مشهور أو الأسد آبادى كما يلقبه الإيرانيون وبين الإمام محمد عبده يذكِّرنا بتقريب آخر ، وهو الدعوة إلى التقريب بين

المذاهب الإسلامية وبخاصة بين المذهب الإثنا عشرى الشيعى المنتشر فى إيران ، والمذهب السُنِّى المنتشر بين المصريين كافة ، فقد ظهرت هذه الدعوة إلى التقريب بقوة فى منتصف القرن العشرين ، قادها من إيران الشيخان محمد تقى القمى ويد اللّه بروجردى ، ومن مصر الشيخ عبد المجيد سليم والشيخ محمد المدنى والشيخ محمد شلتوت الإمام الأكبر فى ذلك الوقت والذى أصدر فتواه الشهيرة بجواز التعبد على المذهب الجعفرى .

وأسس هؤلاء المشايخ من شيعة وسُنَّة "دار التقريب بين المذاهب الإسلامية"، وتولت هذه الدار إصدار صحيفة بعنوان "رسالة الإسلام" ، تحدث فيها أصحابها عن فكرة التقريب ومحاولة الترويج لها بين المسلمين جميعًا دون تفرقة بين سُنَّة وشيعة ، ثم أصدر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية كتابًا عام ١٩٦٦م بالقاهرة عنوانه "دعوة التقريب من خلال رسالة الإسلام" ، وقد جاء فى تقديم هذا الكتاب للشيخ محمد المدنى قوله : لم يبق شك فى أن أمر الأمة الإسلامية لا يصلح الآن على الاحتفاظ بالعصبيات والاحتفال بالخلافات ، وإحياء ماضٍ فى أعماق التاريخ من ضغائن وعداوات .

وقد شارك فى كتابة مقالات هذاالكتاب نخبة كبيرة من علماء السُنَّة ، منهم على سبيل المثال الشيخ محمد أحمد المدنى والشيخ محمود شلتوت والشيخ عبد المجيد سليم ، والشيخ محمد عبد اللّه دراز والأستاذ أحمد أمين والأستاذ محمد فريد وجدى والشيخ

عبد العزيز عيسى ، ومن علماء الشيعة الشيخ تقى القمى والشيخ محمد جواد مغنية والشيخ صدر الدين شرف الدين والشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء .

وهكذا كانت دعوة التقريب بمثابة منبر تلتقى فيه الثقافتان المصرية والإيرانية .

وما أحوجنا الآن إلى تفعيل مبادئ هذه الدعوة حتى نجنب العالم الإسلامى تلك المخاطر التى تتهدده وبخاصة فى العراق ولبنان ومناطق الخليج العربى ، وأن تكون مؤسسة التقريب الإيرانية الحالية صادقة فى نواياها ، لا أن تكون الدعوة هذه وسيلة سياسية لنفاذ إيران إلى الأقليات الشيعية فى الأمصار الإسلامية والعربية ، واتخاذها درعًا لتوسعاتها الإقليمية والعالمية .

بدأت رياح الدعوة إلى التجديد والتحديث تهبُّ على الشرق مع قدوم الحملة الفرنسية إلى مصر ، وما تبع ذلك من وجود طباعة حديثة وإصدار مجلات ودراسة للآثار ، ثم جاء محمد علىّ وابنه إبراهيم وأحدثا نوعًا من التجديد وبخاصة فى مجال التعليم كإنشاء مدرسة الألسن وبعض المدارس الحديثة عسكرية كانت أو مدنية ، وإصدار أول جريدة مصرية وهى الوقائع المصرية والتى تعد أول جريدة رسمية فى الشرق كله . ولا شك أن هذه الدعوة التجديدية قد ظهرت فى مصر قبل أن تواصل مسيرتها إلى غيرها من بلدان الشرق الإسلامى مثل

العراق وإيران . وكانت هذه الحركة التنويرية التى قادتها مصر بعلمائها وبالنابهين من البلدان العربية الذين وفدوا إليها وبخاصة من الشام ولبنان ، قد جعلت مصر منارة للشرق كله ، وبدأ دعاة التحديد والتحديث في العالم الإسلامى يفدون إلى مصر للاطّلاع على صحافتها ودور الطباعة فيها وبخاصة مطبعة بولاق . وما أكثر الذين وفدوا من إيران ! وأذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر الحاج زين العابدين المراغى صاحب كتاب "سياحة نامة" والذى قارن فيه بين ما ترزح تحته إيران من تخلف وتعسف وما تنعم به مصر من تقدم وازدهار ، داعيًا الإيرانيين إلى الأخذ بنفس الأساليب التى أحدثت التحديث الفكرى والثقافى والعمراني في مصر ، ومن الوافدين كذلك اعتصام الملك والد الشاعرة الشهيرة بروين اعتصامى الذى ترجم البؤساء عن الفرنسية تشبهًا بما فعله المنفلوطى . وترجم كتابَىْ قاسم أمين : "تحرير المرأة" ، "والمرأة الجديدة" إلى الفارسية بمجرد صدورهما بالقاهرة . ولعل جو الحرية النسبية الذى كانت تتمتع به مصر فى ذلك الوقت قد شجع هؤلاء وغيرهم على السفر والكتابة فيها ، وطبع كتبهم فى مطبعة بولاق ، حتى قيل بأن عدد الكتب الفارسية التى طبعت فى مطبعة بولاق خلال السنوات الأولى من القرن العشرين يفوق كل ما طُبع فى إيران . أضف إلى ذلك أن بعض الثائرين من الإيرانيين وكذلك المهاجرين الإيرانيين الذى استوطنوا مصر قد أصدروا أربع صحف فارسية كانت تطبع

وتوزع في مصر ، وتُهَرَّب بعض أعدادها إلى إيران ! ومن هذه المجلات أنكر على سبيل المثال : حكمت وثريا وبرورش .

وإذا كنت قد ذكرت إنشاء محمد عليّ لمدرسة الألسن بعد اقتناعه بمطالب رفاعة الطهطاوى فى هذاالشأن ، وما قامت به هذه المدرسة الحديثة من الاهتمام بتدريس العلوم كالطب والنظم العسكرية والرياضيات ، وكذلك الاهتمام بتعليم اللغات الأجنبية واستقدام الأستاذة الأجانب للمشاركة فى التدريس بها ، فإن هذه المدرسة قد أحدثت ثورة تعليمية ونهضة ثقافية ، لا فى مصر وحدها ، بل فى الشرق كله ، حتى ظهر فى إيران أحد الدعاة إلى الإصلاح وهو أمير كبير الذى تولى الوزارة لناصر الدين شاه فأخذ يحثه على إنشاء معهد علمى يقوم بنفس المهمة التى تقوم بها مدرسة الألسن ، وتحت إلحاحه وضغطه وافق ناصر الدين شاه على إنشاء هذا المعهد العلمى الجديد وأطلق عليه "دار الفنون" ووضع حجر الأساس لإنشائها عام ١٨٥١م ، ولكن لم يحضر أمير كبير مراسم افتتاحها ، حيث سبق عزله ، وتم قتله بعد وضع حجر الأساس بأسبوع واحد ، وذلك لأن ناصر الدين شاه خاف على سلطانه من التفاف الناس حول هذا الوزير المصلح . وقامت دار الفنون بنفس المهامِّ التى قامت بها مدرسة الألسن من تعليم حديث ولغات جديدة وترجمة لأمهات الكتب العالمية ، وإنشاء جيل جديد من المترجمين .

حركة الترجمة بين اللغتين العربية والفارسية :

إذا كانت حركة الترجمة قد نشطت منذ القرون الإسلامية الأولى بين الكتب العربية والفارسية ، فإن هذه الحركة لم تتوقف فى العصر الحديث ، فمن يسافر إلى إيران ويتفقد مكتباتها العامة والخاصة يجد كمًا هائلاً من الكتب العربية معروضًا للبيع أو للقراءة ، كما سيجد كمًا هائلاً من الكتب العربية قد تُرجم إلى اللغة الفارسية فى جميع المجالات العلمية والأدبية ، ولا تنحصر تلك الكتب - كما يقول أحد الأساتذة الإيرانيين الذى نال شهادة الدكتوراه من مصر وهو الأستاذ الدكتور مرتضى آية اللّه زاده الشيرازى الأستاذ بجامعة طهران - لا تنحصر فى مجال واحد ، بل تشمل الأدب والتاريخ والحضارة والعلوم الإسلامية والتربوية ومعاجم اللغة ، وكذلك الكتب التى ألَّفها المستشرقون وقام بترجمتها الأساتذة المصريون ، كما لا يقتصر المعروض على الكتب وحدها ، بل تعدَّاها إلى المجلات والصحف الدورية والأسبوعية واليومية ، ويكفى أن ندلل على قيمة هذه الصحف بما قاله ملك الشعراء بها فى منتصف القرن العشرين : " كم تعلَّمنا من الصحف المصرية كالأهرام ومن المجلات كالمصور وإصدارات دار الهلال المصرية ". ولا أستطيع أن أحصى الكتب المصرية التى تُرجمت إلى الفارسية وسأكتفى بذكر أسماء بعض مؤلفيها : أحمد أمين وتوفيق الحكيم وخالد محمد خالد وزكى محمد حسن وسيد قطب وطه حسين وعائشة عبد الرحمن والعقاد

ومحمد حسين هيكل ومحمد الغزالى وصادق الرافعى ومصطفى المنفلوطى وقاسم أمين ، وغيرهم كثيرون .

وعلى الجانب الآخر نجد كثرة هائلة من دواوين شعراء الفارسية والكتب الفارسية قد تُرجمت فى مصر إلى اللغة العربية ، ويكفى أن أقول إن جميع الجامعات المصرية تلزم المتقدمين لنيل درجة الماجستير فى اللغة الفارسية أن يكون الجزء الأهم فى هذه الرسالة ترجمة لكتاب فارسى إلى اللغة العربية . وما أكثر ما تُرجم وما أقل ما نُشر من هذه الترجمات ، حيث بقى معظمها حبيسًا بأرفف المكتبات الجامعية يبحث عن فرصة للنشر، وفى هذا المجال ننوه حاليًا بالدور الذى يقوم به المجلس الأعلى للثقافة ضمن المشروع القومى للترجمة حيث حظيت اللغة الفارسية بترجمة ثمانية وثمانين كتابًا من إصدارات الألف الأولى لمشروع الترجمة .

ومع هذا نقول : هل من مزيد ؟

وبطبيعة الحال لم يقتصر نشر الترجمات عن الفارسية على ما صدر ضمن المشروع القومى للترجمة ، وهو مشروع حديث ، فقد سبقته إصدارات كثيرة ، إما على نفقة أصحابها وإما على نفقة بعض دور النشر الخاصة . ومن أشهر هذه الترجمات : ترجمات رباعيات الخيام ، وديوان كل من حافظ الشيرازى ، وجلال الدين الرومى

والسعدى والعطار والجامى وشاهنامة الفردوسى ، وأعمال محمد إقبال الفارسية . وكذلك كتب التصوف الفارسى ، ومنها : كشف المحجوب وأسرار التوحيد وحديقة الحقيقة ونفحات الأنس ، وغيرها من الكتب والدواوين .

ونتيجة لعمق العلاقات الثقافية بين البلدين ، فقد حرص كل منهما على إنشاء أقسام متخصصة فى معظم الجامعات ، إما لدراسة اللغة الفارسية والآثار الإيرانية فى الجامعات المصرية وإما لدراسة اللغة العربية والآثار المصرية فى الجامعات الإيرانية ، إذ لا توجد جامعة إيرانية واحدة ليس بها قسم للغة العربية يكون من مهامِّه دراسة الحركة الثقافية والأدبية فى مصر الحديثة والمعاصرة ، وفى المقابل تحظى دراسة اللغة الفارسية بأكثر من عشرة أقسام متخصصة فى الجامعات المصرية . إلى جانب اهتمام قسم الآثار الإسلامية بكلية الآثار بدراسة الآثار الإيرانية ، سواء الموجود منها فى المتاحف المصرية ، أو الموجود فى المدن الإيرانية ومتاحفها . وقد ناقشتُ عدة رسائل أنجزها قسم الآثار الإسلامية فى هذا المضمار .

ولما كانت إيران تعتبر الثقافة وسيلتها الأولى للعلاقات الدولية ، فإنها تنظم فى كل عام دورتين لتعليم اللغة الفارسية وتدعو إليها جميع القائمين بتدريس هذه اللغة فى جامعات العالم لحضور هذه الدورات والاطِّلاع على الجديد فى طرق تدريس الفارسية داخل إيران ، وقد دعى لحضور هذه الدورات عدد من المعيدين والمدرسين المساعدين بالجامعات

المصرية ، يسافرون على حسابهم الخاص ، بينما توفر لهم الحكومة الإيرانية الإقامة فى المدن الجامعية .

وإذا كانت إيران تفعل هذا تدعيماً لانتشار لغتها وثقافتها عالمياً ، فإن مصر لا تفعل المقابل ، ومن قبل كان الدارسون الإيرانيون يفدون إلى مصر لدراسة الأدب العربى والآثار المصرية وغير ذلك من التخصصات ، ولكن هذا اندثر تماماً ، ولم نعد نجد دارساً إيرانياً جاء ليستكمل دراساته العليا فى مصر لأن مصر لا تقدم مِنَحاً لمثل هؤلاء الدارسين كما كان يحدث فى منتصف القرن العشرين وحتى أيام المقاطعة السياسية بين عبد الناصر ومحمد رضا بهلوى !

وإذا تجاوزنا دور الأقسام المتخصصة فى الجامعة المصرية ، وما تقوم به من تدعيم لهذه العلاقات الثقافية ، وانتقلنا إلى المراكز البحثية والصحفية ، فإننا سنجد مؤسسة الأهرام تنشئ قسماً خاصاً مهموماً بالقضايا الإيرانية الثقافية وغيرها ، محاولة تقديمها للقراء المصريين والعرب شارحة أبعاد هذه القضايا والتعقيب عليها ، وذلك إلى جانب ما يقوم به مركز الشرق الأوسط بجامعة عين شمس ومركز الدراسات الشرقية ومركز الدراسات الآسيوية بكلية السياسة والاقتصاد التابعين لجامعة القاهرة .

كما تشارك الإذاعات الموجَّهة بدور محدود فى هذا المجال ، حيث ينطلق البرنامج الناطق بالفارسية والموجَّه إلى إيران وما جاورها بتقديم

صورة مصر الحضارية وصورة مصر الحديثة وتوجهاتها الثقافية والسياسية ، وذلك فى مقابل الإذاعة العربية الصادرة من منطقة خورستان الإيرانية وغيرها من الإذاعات العربية الموجَّهة من داخل إيران والحريصة على تدعيم العلاقات الثقافية بين إيران والعالم العربى وعلى رأسه مصر .

هذه بعض الملاحظات العابرة عن المسيرة الثقافية بين مصر وإيران فى العصر الحديث ، والتى تثبت أن هذه العلاقات الثقافية أقوى من العلاقات السياسية والاقتصادية ، ولتدعيم هذه العلاقات نقدِّم هذه التوصيات :

١ - إعادة العلاقات السياسية كاملة بين مصر وإيران .

٢ - تبادل الوفود الثقافية والفنية بين البلدين كما يحدث فى مهرجان القاهرة السينمائى سنويًا .

٣ - وجود قنوات دراسية مشتركة بين الجامعات المصرية والجامعات الإيرانية ، إذ ما أكثر القنوات التى اقتُرحت ولم تُفَعَّل .

٤ - ضرورة المشاركة فى معارض الكتب .

٥ - السماح بتبادل الصحف والمجلات وبخاصة ذات الطابع الثقافى .

٦ - رفع القيود عن تبادل الوفود الطلابية والجامعية بين البلدين .

٧ - تفعيل الدعوة الصادقة إلى التقريب بين المذاهب بعيداً عن توظيفها سياسياً .

٨ - تدعيم الإذاعات الموجَّهة بين البلدين وزيادة ساعات إرسالها وتطوير برامجها بما يخدم القواسم المشتركة بعيداً عن مواطن الخلاف أو النزاع !

* * *

قضايا المد الشيعى
وأثره على الوضع الثقافى بالمنطقة العربية

عصام عبد الشافى

مقدمة :

شهدت المنطقة العربية فى السنوات الأربع الأخيرة ، وتحديداً فى أعقاب الاحتلال الأمريكى للعراق ، تصاعداً فى الحديث ، الذى وصل إلى مرحلة الجدل الفكرى ، ثم تخطاها إلى مرحلة الصدام ، المصحوب بالاتهامات المتبادَلة ، ليس بين دولة الاحتلال ، والدولة المحتلة ، أو من جانب الدول التى تضررت من جراء هذا الاحتلال ، ضد المحتل ، ولكن بين أنصار المذهبين الرئيسيَّين فى العالم الإسلامى ، السُّنَّة والشيعة ، حيث نجح الاحتلال ليس فقط فى السيطرة على الأرض والثروة ، ولكن فى خلق نوع من الفتنة ، وحالة من التوتر والصراع الدامى ، بين المنتمين إلى المذهبين ، وكانت ساحة المعركة الأولى فى العراق ، ومع

أحداث لبنان (يوليو / أغسطس ٢٠٠٦) ، والدور الذى قام به حزب اللّه (ذو التوجُّه الشيعى) فى هذه الأحداث ، وتوجيه الانتقادات إليه من جانب العديد من الدول العربية ، وفى مقدمتها المملكة العربية السعودية (ذات التوجُّه السُّنى) ، انتقلت ساحة الصراع ، لتمتد ليس فقط من العراق إلى لبنان ، ولكن من العراق ولبنان إلى معظم الدول العربية ، وبخاصة المشرقية منها ، فى دول الخليج العربية وسوريا ومصر والأردن وكذلك فلسطين .

وأصبح المسلمون فى هذه المنطقة ، على شفا فتنة مذهبية ، تدخَّل فيها العديد من العوامل المحفزة والمثيرة للاشتعال ، فى مقدمتها توجهات السياسة الأمريكية فى المنطقة ، ومواقف الدول العربية من البرنامج النووى الإيرانى ، وما يثار عن خطط أمريكية ، بدعم الدول العربية ، لتوجيه ضربات إجهاضية إلى الطموحات الإيرانية ، وكذلك تطورات الأوضاع على الساحة العراقية ، واللبنانية ، والفلسطينية ، إضافة إلى الدور الذى قامت به الجماعات الشيعية فى الدول ذات الأغلبية السُّنية ، بجانب حالة الجدل الفكرى ، بين أقطاب المذهبين ، على امتداد العديد من الدول والمؤسسات .

فى ظل هذه الاعتبارات تأتى هذه الورقة البحثية حول :

قضايا المد الشيعى

وأثره على الوضع الثقافى بالمنطقة العربية

والتى رأينا تقسيمها ، وفق اقتراب تحليلى للأحداث والمشاهد ، إلى أربع مراحل أساسية ، وذلك على النحو التالى :

المرحلة الأولى : الابتداء .

المرحلة الثانية : الاستمرار والبقاء .

المرحلة الثالثة : التصعيد والإذكاء .

المرحلة الرابعة : الانتهاء .

* * *

المرحلة الأولى : الابتداء :

تبدأ هذه المرحلة مع نجاح الثورة الإسلامية فى إيران عام ١٩٧٩ فى القضاء على حكم الشاه وإعلان قيام جمهورية إيران الإسلامية ، ورفعها شعارات تصدير الثورة إلى الدول العربية والإسلامية ، ثم التصعيد الخارجى ضد الثورة للقضاء عليها فى مهدها ، وكانت الورقة الرئيسية التى تم الاعتماد عليها لتحقيق هذا الهدف هى شن حرب طاحنة ضدها ، كان العراق تحت حكم صدَّام حسين هو رأس الحربة الأساسى فيها ، ومن خلفه معظم الدول العربية ، وتحديداً دول الخليج العربية ومصر ، وخلف جميع الأطراف المتحاربة والمتداخلة فى الأزمة تقف الولايات المتحدة الأمريكية من خلف الستار ، لتحرك العرائس على مسرح المعركة ، أو المأساة الملهاة .

فقد قاد الإمام الخمينى ثورة انقلابية على الشاه فى إيران حققت نجاحًا جعله يحاول نشر هذه الثورة فى أماكن أخرى من دول الجوار (العراق ، ودول الخليج العربى ، ولبنان ...) ، وكان يطلق على هذه الطريقة مصطلح "تصدير الثورة" ، وأعلن فى بيان الذكرى السنوية لانتصار الثورة فى ١٩٨٠/٢/١١ : " إننا نعمل على تصدير ثورتنا إلى مختلف أنحاء العالم " . وهذه الثورية هى مبدأ حزب الخمينى ، كما قال على خامنئى : " أول أهداف حزبنا هو بث التوعية الإسلامية السياسية والتربية الثورية بين صفوف الشعب الإيرانى " .

وبسبب هذا الهدف والغاية أُنشئت التنظيمات الداخلية والخارجية الخاصة بتصدير الثورة على أسلوب العمل الثورى الانقلابى وقامت بالعديد من الأعمال فى لبنان والكويت والسعودية وأقامت العلاقات مع أغلب الحركات الإسلامية التى فى حالة صراع مع الأنظمة القائمة .

وتصدير الثورة نابع من عقيدة الشيعة بأن أهل السُّنة كُفَّار يجب قتالهم وتغيير دينهم إلى دين الشيعة ، ولكن بسبب تداعيات الحرب مع العراق والتحولات فى العلاقات الدولية ووفاة الخمينى تغير أسلوب تصدير الثورة لضرورات ذاتية وموضوعية ، من بينها أنه بعد وفاة الخمينى عاشت الثورة خلطًا هدف إلى كسب الشارع الإيرانى حيث أبقت على الشعارات الثورية لكنها فى نفس الوقت بدأت تميل إلى ضرورة تغيير اللغة الثورية والعمل وفق المصالح السياسية [١] .

* * *

المرحلة الثانية : الاستمرار و البقاء :

وتمتد من عام ١٩٨٨ حتى عام ٢٠٠٠ ، حيث فرضت متطلبات مرحلة ما بعد الحرب العراقية - الإيرانية ، أولويات جديدة على برامج الحكم في إيران ، مثل التنمية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية ، هذه الأولويات دفعت إلى ظهور تيارات سياسية جديدة من داخل النظام الإسلامي تدعو إلى رسم استراتيجيات عمل واقعية ، وضرورة تفعيل الدبلوماسية الإيرانية من خلال رسم استراتيجية طويلة الأمد ، تقوم على المصالح الوطنية العليا بما يؤمِّن شروط ما اصطُلح على تسميته في إيران بالحكمة والمصلحة والعِزَّة .

ومع انهيار الاتحاد السوفييتي وتفرُّد أمريكا بزعامة العالم وزيادة انتشار القيم الليبرالية مثل الحرية والديمقراطية واقتصاد السوق ، كان لا بد أن يأخذ قادة إيران ذلك بعين الحسبان، وكان لا بد للثورة الإيرانية من أن تنحني للعاصفة حتى تحافظ على نفسها ولو تَطَلَّبَ ذلك تطويراً في بعض مبادئها ونظرياتها (٢) .

ولهذا فإن هذه السياسات الجديدة والواقعية للرئيس هاشمي رفسنجاني ، ثم للرئيس محمد خاتمي ، وإن كانت نابعة مَن قلب النظام الخميني ولمصلحته ، كانت مختلفة في الآليات والسياسات . وهذه الواقعية استطاعت تخليص إيران من أزمات خطيرة عديدة وربما تأهيلها لتأخذ مقعداً دوليًا مناسبًا لها في نادي الأمم بعد أن

كانت فى نهاية الحرب العراقية الإيرانية على شفا الانعزال التامً ، فمرحلة رفسنجانى ، قامت على مبدأ "إيران أولاً" ، سعياً نحو بناء الدولة الإيرانية القوية ذات العلاقات المتشعبة ، أما مرحلة خاتمى فقامت على مبدأ "المجتمع أولاً" ، سعياً نحو بناء مجتمع مدنى إيرانى قوى قادر على الأخذ بأسباب النهضة الحديثة فى مختلف المجالات (٣) .

وفى ما يتعلق بفكرة تصدير الثورة فقد أشارت بعض المصادر إلى أن مؤسسة تنظيم ونشر تراث الإمام الخيمنى فى طهران ، أصدرت كتاباً عام ١٩٩٧ بعنوان : "تصدير الثورة كما يراه الإمام الخمينى" ، أكدت فيه أن تصدير الثورة هو منهج ثابت للخمينى ، ولكن هذا المبدأ لا يعنى الهجوم العسكرى وتحشيد الجيوش ضد البلدان الأخرى ، بل تصدير المعنويات التى وُجدت فى إيران (٤) .

وتناول الكتاب تحليل مضمون الخطة التى تقوم عليها فكرة التصدير ، فى المرحلة الراهنة ، فيقول : " الخطة التى رسمناها لتصدير الثورة ستُثمِر دون ضجيج أو إراقة للدماء أو حتى رد فعل من القوى العظمى ، وهنا يجب علينا أن نزيد نفوذ الثورة فى المناطق السنية داخل إيران وبخاصة المدن الحدودية ، ثم تحسين العلاقات مع الدول المجاورة وتهجير عدد من العملاء إليها ، وبخاصة تلك الدول التى يمارس فيها الشيعة نشاطهم بسهولة ودون معوقات مثل تركيا والعراق وأفغانستان وباكستان والبحرين ، ثم التحرك فى مرحلة لاحقة إلى الدول الأخرى التى نشاط الشيعة فيها صعب مثل دول الخليج والأردن ومصر وغيرها .

كما تناول الكتاب ، وفقًا للمصادر التى تناقلته (٥) ، المراحل المختلفة التى يمكن أن تقوم عليها الخطة :

الأولى : التأسيس ورعاية الجذور : وتقوم على إيجاد السكن والعمل لأبناء الشيعة المهاجرين فى هذه الدول ، توطيد العلاقات مع أصحاب رءوس الأموال والمسئولين الإداريين فى هذه الدول ، ومحاولة خلخلة التركيبة السكانية عن طريق إيجاد تجمُّعات شيعية فى الأماكن الهامَّة .

الثانية : التمهيد : وتقوم على العمل من خلال القانون القائم وعدم محاولة تجاوزه ومحاولة الحصول على إذن للأنشطة التى تتم ممارستها ، ثم محاولة التسرب إلى الأجهزة الأمنية والحكومية والسعى للحصول على الجنسية للمهاجرين الشيعة ، ثم العمل على الوقيعة بين علماء السُّنة والدولة من خلال تحريض العلماء على المفاسد القائمة وتوزيع المنشورات باسمهم ، وإثارة الاضطرابات ، ثم تحريض الدولة عليهم .

الثالثة : الانطلاق : وفيها يتم العمل على ضرب اقتصاد هذه الدول ، والعمل على تحويل رءوس الأموال إلى إيران مع إعطائهم الحرية فى العمل الاقتصادى فى إيران من أجل المعاملة بالمثل فتزداد السيطرة على اقتصادياتهم .

الرابعة : بداية قطف الثمار : وفيها تتم السيطرة على مقاليد الأمور ، من خلال الوقوف دائمًا مع الحكام وحث الناس على الهدوء

وعدم الفوضى ، وزيادة نفوذهم والتوسع فى شراء الأراضى والعقارات ، والعمل على زيادة سخط أهل السُّنة على الحكام بسبب نفوذنا .

الخامسة : النضج : وفيها تكون الدول المستهدَفة قد فقدت مقومات القوة (الأمن والاقتصاد والاستقرار) ، وتواجه السلطة اضطرابات شديدة ، عندها يقدم الشيعة أنفسهم كمخلِّصين من خلال اقتراح تشكيل مجلس شعبىٍّ لتهدئة الأوضاع ومساعدة الحكام على ضبط الأمور ، ويكون عملاؤهم هم أغلب أعضاء المجلس فتتحقق السيطرة على هذه البلدان ونتمكن من تصدير الثورة دون إراقة دماء أو حرب ، وإذا لم يتحقق هذا من خلال عمل هادئ فلا مانع عند ذلك من إثارة ثورة شعبية والاستيلاء على السلطة من الحكام .

وقد نجحت إيران فى تحقيق نجاح كبير على العديد من المستَويات ، فقد تحسنت علاقاتها بأغلب الدول الإسلامية والعالمية ، وعقدت فى طهران مؤتمر القمة الإسلامى الثامن واستعادت إيران التبادل الدبلوماسى مع العديد من الدول الإسلامية التى لم تكن لها بها علاقات من قبل بسبب الحرب العراقية الإيرانية ، دون أن تتنازل إيران عن شىء من سياستها الخارجية (٦) .

* * *

المرحلة الثالثة : التصعيد والإذكاء :

يمكن التأريخ لبداية هذه المرحلة بنهاية عام ٢٠٠١ ، حيث ترتبط معظم المؤشرات التى شهدتها هذه المرحلة ، وتطورهاصعوداً وهبوطًا ، بعامل حاكم ، بدور الولايات المتحدة الأمريكية فى المنطقة ، وتنامى هذا الدور فى مرحلة ما بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر ورفع شعارات الإصلاح السياسى ونشر الديمقراطية ، والقضاء على الفساد ، والدفاع عن حقوق الإنسان ، وغيرها من شعارات تم رفعها فى إطار التسويق السياسى لأجندة أمريكية جديدة فى المنطقة ، شارك الجميع فى الترويج لها إما بصورة سلبية أو إيجابية .

ومن أهم الأزمات التى شهدتها هذه المرحلة الاحتلال الأمريكى للعراق ، وما ترتب عليه من تداعيات ، ثم التحركات الأمريكية للوصول بأزمة البرنامج النووى الإيرانى إلى حافة الهاوية ، والتركيز فى إطار هذه التحركات على إثارة الصراع المذهبى (السُّنِّى - الشِّيعى) بين دول المنطقة .

وقد تصاعد الاهتمام بالصعود الشيعى واحتمالات الفتنة بين السُّنة والشيعة فى المنطقة العربية ، فى لبنان ، وبخاصة فى أعقاب العمليات العسكرية بين حزب اللّه وإسرائيل (١٢ يوليو - ١٤ أغسطس ٢٠٠٦) ، فقد تضامن الشيعة العرب فى البحرين والسعودية مع

حزب اللّه ، فتظاهروا ودعوا إلى مقاتلة إسرائيل إلى جانب حزب اللّه ، وأدانوا تخاذل الأنظمة العربية .

وقد دأب مسئولو حزب اللّه منذ أكثر من عام على التحذير من الفتنة بين السُّنَّة والشيعة على وقع تفاقم المذابح بالعراق ، وعلى وقع الصراع السياسي فى لبنان بعد مقتل الحريرى ، فتكونت جبهة "١٤ مارس" من السُّنة والمسيحيين ، ودعت إلى خروج سوريا من لبنان ، وواجهتها جبهة "٨ مارس" ، التى تضم عناصر من حزب اللّه وحركة أمل ، ثم انضم إليها التيار الوطنى بزعامة ميشيل عون ، وعدد من الأحزاب والشخصيات الموالية لسوريا .

وهنا يرى الدكتور رضوان السيد أن احتمالات الصدام الشيعى – السُّنى بلبنان بعد العراق يتجاوز مسألتَيِ الصراع على السلطة ، والكراهية الطائفية الموروثة . حيث يرى البعض أن إيران تدخلت فى أفغانستان والعراق ، مستعملة الشيعة الأفغان والشيعة العراقيين فى هذين التدخُّلين ، وأن الشيعة بأفغانستان يقيمون دويلة شبه مستقلة فى الوسط ، كما أن الشيعة العراقيين استلموا السلطة بالبلاد ، ويقاتلون من يعارضون النفوذَيْن الإيرانى والأمريكى . ولبنان هو النموذج الثالث للتدخل الإيرانى من خلال المجموعة الشيعية بالبلاد ، فقد أرادوا إيذاء الولايات المتحدة من طريق إيذاء الكيان الصهيونى لدفعها إلى التنازل فى الملف النووى .

ويضيف : إن الوضع بلبنان غير الوضع بالعراق ، فالشيعة ليسوا أكثرية ، وما سعوا حتى الآن لنشر الفوضى أو الاستيلاء على السلطة رغم تحريض أطراف خارجية لهم على ذلك . وليس من المرجح أن إيران تريد دفع الشيعة اللبنانيين إلى الاصطدام بالطوائف الأخرى . فمشروع إيران الاستراتيجى هو مشروع سياسى حتى الآن ، وهى لا تستخدم فيه الشيعة فقط ، بل السُّنة أيضًا ، وقد تظهر حساسيات طائفية إن حاول حزب اللّه الاستيلاء على السلطة ، أو مواجهة الحكومة ، لكن لا شواهد على ذلك حتى الآن (٧) .

أما عن المواقف العربية من الحرب الإسرائيلية على الأراضى اللبنانية فقد جاءت لتعكس تطوراً نوعيًا فى رؤى بعض القوى الإقليمية العربية ، وتحديداً الفاعلة منها ، تجاه القضايا العربية ، لكنه تطور فى الاتجاه السلبى ، تطور قام على تغيُّر فى المدركات السياسية للقيادات السياسية والنظم الحاكمة فى هذه الدول حول أولوية الأخطار والتحديات التى تواجهها ، وكيفية التعامل معها ، فبعد أن كانت إسرائيل تمثل العدو الأول لمعظم الدول العربية ، وبخاصة تلك التى اختارت لنفسها أن تشكِّل خطًا أول فى مواجهة السياسات الإسرائيلية ، تراجعت الرؤى وتغيرت الاتجاهات وأصبحت إيران تحتل هذه المكانة ، ولم يكن ذلك وليد اللحظة الراهنة ، استناداً إلى علاقات إيران بحزب اللّه ، ولكنه جاء امتداداً للعديد من المواقف التى تبنَّتها هذه القوى من إيران فى أعقاب الاحتلال الأمريكى للعراق وحتى الآن .

والمقصود بتلك القوى فى هذا الإطار ، السعودية - مصر - الأردن ، فقد تبنَّت الدول الثلاث سياسات أقرب إلى التصادمية ، تجاه إيران ، عكستها تصريحات ومواقف مسئولى هذه الدول ، نحو إيران (٨) .

واتفقت البيانات التى صدرت عن هذه الدول ، حول توصيف هذه العمليات ، وتحميل حزب اللّه المسئولية عن تصاعد الأحداث ، والفشل فى تقديم أىٍّ من صور الدعم للبنان التى تُدَمَّر ، وكأن ما يحدث فيها لن تكون له أية تداعيات على أمن واستقرار هذه الدول ، بل واتخاذ مواقف متشددة حيال عقد قمَّة لمناقشة الأزمة .

واتجهت الدول الثلاث لتدشين حملات إعلامية مكثفة ، للدفاع عن تصوراتها ، لتقع لبنان ضحية خطأ وخطيئة هذه الأنظمة ، الخطأ المتمثل فى الخوف من إيران ومن تصاعد دورها الإقليمى فى المنطقة ، ومن تهديدها لشرعية هذه النظم ، واعتبارها عدوَّها الأول ، والخطيئة قبولها بتدمير دولة لا ذنب لها ، إلا أن أحد فصائلها ينتمى فكرياً إلى إيران .

وهنا يثار التساؤل : أين كانت هذه الدول والعراق يتم تدميره منذ احتلاله وحتى اليوم ؟ لماذا تركته مرتعًا لإيران ، كما تدَّعى ؟ هل إيران أكثر قدرة وتأثيراً أو حتى تحالفًا مع الولايات المتحدة ، التى تحتل العراق ، من هذه الدول الثلاث ؟ وأين كانت هذه الدول حينما طلب حسن نصر اللّه دعمها ، وتحديداً مصر والسعودية ؟ (٩)

وتبرز خطورة الوضع بالنسبة إلى هاتين الدولتين ، مع ما أثير من قضايا المد الشيعى ، ووجود أزمات وتوترات داخلية فيهما بسبب وجود الشيعة ، كان لها انعكاساتها على مواقف الدولتين من إيران ، ومن تطورات الأوضاع فى العراق ولبنان .

فبالنسبة إلى المملكة العربية السعودية ذكر تقرير صادر فى سبتمبر ٢٠٠٥ عن مجموعة إدارة الأزمات الدولية ، أنه منذ تأسيس المملكة والأقلية الشيعيّة من سكانها تخضع للتمييز والتحريض الطائفى، إلا أنه ابتداءً من عقد التسعينيات من القرن العشرين ، وبتأييد من ولىِّ العهد الأمير عبد اللّه آنذاك ، قامت الحكومة باتخاذ خطوات لتحسين العلاقات بين الطوائف . ولكن هذه التدابير كانت متواضعة ، وكانت التواترات تتزايد . وكان للحرب فى العراق أثر بارز ، حيث عملت على تعزيز أمانى وتطلُّعات الشيعة وشكوك السُّنَّة ، وقامت بوجه عامٍّ بتعميق الانقسامات العَقَدِيَّة فى أنحاء المنطقة كافة . وأصبحت هناك حاجة إلى العمل بتصميم وعزم لتحسين مجموع الطائفة الشِّيعيَّة القوية التى يبلغ تعدادها مليونَىْ شخص وكبح جماح التصريحات المحلية المعبرة عن العداء المناوئ للشيعة .

فى الوقت الذى تقاوم فيه المملكة النداءات الصادرة بقمع الشيعة بعنف ، فقد قامت منذ البداية بتهدئتهم وتهميشهم . ويظل الشيعة ممثَّلين بأقلّ مما يجب فى المناصب الرسمية ، ويتذمَّر الطلاب من العداء الصريح من جانب المعلمين السُّنَّة . إن الوظائف فى الشرطة والجيش

نادرة ، كما أن احتمالات الترقية هناك لا تزال أكثر ندرة . وفى حين تمَّ تخفيف القيود ، فلا يزال الشيعة يواجهون عقبات فى وجه ممارسة عقيدتهم بحريَّة وعلانية .

ويضيف التقرير أن القيادات الشيعية قامت بالتخفيف من حدة آرائها تدريجيًا ، حيث اعترفت بالقيود على الإثارة والعنف وسعت الإقامة علاقات جيدة مع النظام ، وقَبِلت بدوره كحصن فى وجه العناصر الأكثر تشدداً من السنَّة . ففى عام ١٩٩٣ وعد الملك فهد زعماء الشيعة بتخفيف القيود السياسية مقابل قيامهم بإنهاء المعارضة الناشطة من الخارج .

ولكن إذا كانت أنشطة القاعدة منذ سبتمبر ٢٠٠١ قد أتاحت الفرصة لتحسين العلاقات بين السُّنة والشيعة فى المملكة ، فإن الحرب فى العراق قد سارت فى الاتجاه المعاكس ، فبعض الشيعة الذين تشجَّعوا بقدوة الأخوَّة الدينية العراقية ، يعتقدون أن عليهم أن يضغطوا بشكل أكبر ، ويزيد من توتر الأوضاع أن عدداً متزايداً من السعوديين السنَّة قد انتقل إلى العراق بدافع معارضتهم للولايات المتحدة ، وبسبب معارضتهم لدور الشيعة المتزايد .

وإذا كانت التوترات الطائفية أعلى مما كانت عليه فى أىّ وقت منذ عام ١٩٧٩ ، فإن احتمال حدوث مواجهة طائفية عنيفة فى الوقت الراهن يبدو ضعيفًا ، وهذا لا يعنى بقاء الأوضاع على ما هى عليه ، بل

يجب اتخاذ خطوات جدِّيَّة لنزع فتيل أية أزمات محتمَلة . لقد أعلن الملك عبد اللّه تأييده ، حين كان وليًا للعهد ، لمزيد من الحقوق للشيعة ، من خلال تعزيز الحوارات الوطنية الشاملة وجلب أعضاء بارزين من رجال الدين السنَّة للمشاركة فيها ، إلا أن الأمر يتطلب التزامًا طويل الأجل نحو الاندماج السياسي والاجتماعي ومحاربة الخطاب المحلى الذى يحثّ ، فى جانب منه ، على الكراهية (١٠) .

أما فى مصر ، فإن الوجود الشيعى يثير العديد من القضايا ، يمكن رصدها وتناولها فى عدة مشاهد يحكمها إطار عامٌ عنوانه الرئيسى **"فوضى التصريحات والشعارات وتعدد الزعامات"** ، ومن أهم مشاهد هذه الفوضى :

أولاً : فوضى الصدامات بين الحقوق المدنية وثقافة الأقلية :

وفقًا لتقرير الحالة الدينية للخارجية الأمريكية ٢٠٠٦ ، يقدَّر عدد الشيعة فى مصر بـ ٧٥٠ ألف شخص ، بينما تزيد تكهُّنات محمد الدرينى ، الأمين العام للمجلس الأعلى لآل البيت ، من هذا الرقم، مشيراً إلى أنه يعتقد أن عدد الشيعة يفوق هذا العدد بكثير ، على اعتبار أن هناك ما يزيد على عشرة ملايين صوفى فى مصر ، ويوجد بينهم ما لا يقل عن مليون يتبعون الفكر الشيعى ، كما أن كثيراً من الشيعة فى مصر لا يعلنون عن معتقدهم نتيجة الضغوط الأمنية والإعلامية .

وأيًا كان الرقم ، فالشيعة موجودون فى مصر ، ولا يمكن تجاهلهم أو التقليل من شأنهم ، أو إنكار امتداد تأثير الفترة الشيعية التاريخية على الواقع المصرى إلى الحد الذى بسببه وصف "الخمينى" مصر بأنها "سُنِّيَّة المذهب ، شيعيَّة الهوى" ، فالاحتفالات بموالد آل البيت (مولد الحسين ، والسيدة زينب ، والسيدة نفيسة) لا تفرِّق بين سُنِّى وشيعى .

فهناك موالد ثابتة هجرياً كالمولد النبوى ، ومولد السيدة زينب(١١) ، وتحدد وزارة الأوقاف مواعيد الاحتفال بالموالد التى تضمُّ إلى جانب آل البيت موالد الأولياء وشيوخ الطرق الصوفية ، ولا يقتصر الهوى الشيعى عند المصريين على الموالد ، وإنما يضاف إليها الاعتقاد فى جدوى الشكوى إلى السيدة زينب، والتى تشكل جزءاً من الوجدان الشيعى المصرى.

وهناك حالة من التعايش بين السُّنة والشيعة ، ترعاه فطرة السلام وعدم الشقاق التى تسيطر على المصريين ، والتى ترجع فى جانب منها إلى طبيعة الثقافة التسامحية التى تغلب على تفاعلاتهم ، لكن فى ظل سيطرة وسائل الإعلام ، والحديث الكثيف عن "خطر المد الشيعى" على المنطقة ، كل ذلك جعل الشيعة محلاً للتساؤل لدى المصريين ، بل محاولة للبحث عن الشيعة فى المجتمع .

وبجانب حالة التعتيم فى مؤسسات الثقافة والتربية الرسمية ، فإن ذلك أدى إلى إشعال فضول المصريين للتعرف على الشيعة من خلال الكتب التى انتشرت كردٍّ على أسئلة تدور فى أدمغة الكثيرين ، وتتوزع

هذه الكتب بين "الكتب المفاتيح" التى تتناول موضوع الشيعة بشكل مبدئى بسيط دون التوغل فى التفاصيل والخلفيات التاريخية والسياسية والعَقَدِيَّة (١٢) ، والكتب والدراسات التى تناولت موضوعات معيَّنة خاصَّة بالشيعة بشكل أكثر تفصيلاً (١٣) ، والكتب التى تعرض للشيعة بأقلام المرجعيات الشيعية ذاتها (١٤) .

وعلى المستوى الرسمى كانت هناك دعوة إلى التقارب بين الشيعة والسُّنَّة فى أربعينيات القرن الماضى ، وهو تقارب ليس هدفه دعوة أحد الطرفين إلى اعتناق مذهب الآخر ، وإنما هدفه "التواصل بالاتحاد حول الأصول المتفق عليها ، وأن يعذر بعضهم بعضًا فى ما وراء ذلك مما ليس شرطًا من شروط الإيمان ولا ركنًا من أركان الإسلام ، ولا إنكارًا لما هو معلوم من الدين بالضرورة" (١٥) .

وبدأت دعوة التقريب بين السُّنة والشيعة عام ١٩٤٦ ، بدعم من جماعة الإخوان المسلمين فى ذلك الوقت ، وتبناها الكثير من رجال الأزهر الذين ارتبطوا بعلاقات حميمة مع كثير من علماء الشيعة طوال تلك الفترة ، وحتى أواخر السبعينيات (١٦) .

ومن حيث الوجود المؤسسى فقد تأسست بعض الجمعيات والهيئات الشيعية ، فى مقدمتها :

- **جمعية "آل البيت"** : ظهرت عام ١٩٧٣ ، وتُعتبر مركز الشيعة فى مصر ، استندت فى عملها إلى فتوى الشيخ "محمود شلتوت"

بجواز التعبُّد بالمذهب الجعفرى الذى يُعَدُّ المذهب الفقهى المعتمد لدى الشيعة الإثنا عشرية ، وكان يتبعها عدد من الفروع تسمى "حسينيات" ، ولم تكن الجمعية تظهر السمة الشيعية علانية كما لم تكن فكرة التشيُّع واضحة فى أهدافها ، خصوصاً وأنها ضمَّت بين عناصرها سُنَّة وشيعة ، وانحصرت أنشطتها فى المساعدات الاجتماعية والخدمات الثقافية والعلمية والدينية ، وهو ما اعتبره البعض امتداداً لجماعة التقريب ، واستمرت الجمعية حتى عام ١٩٧٩ (١٧) .

- **المجلس الأعلى لرعاية آل البيت** : أسَّسه ورأسه محمد الدرينى عام ١٩٩٨ ، وكان يصدر منه جريدة "صوت آل البيت" ، وبعد اعتقال "الدرينى" تولى رئاسته "محمد المرسى" ، وعانى المجلس من حدوث انشقاقات ، جعلته يفقد فاعليته وقوَّته .

أما التُّهم التى تم توجيهها إلى عناصر التنظيمات الشيعية التى تم القبض عليها منذ الثمانينيات فتتراوح بين الحصول على تمويل أجنبى ، وتحديداً من جهات إيرانية ، وهى تهمة وُجِّهت إلى الكثيرين . والاتصال بجهات خارجية (١٨). إلا أنه لم ينسب إلى أى من المجموعات أو العناصر الشيعية القيام أو الدعوة إلى القيام بأعمال تتصف بالتطرف والغلوّ (١٩) .

وقد جاءت زيارة لجنة الحريات الدينية الأمريكية لمصر (١٦ - ٢٣ يونيو ٢٠٠٤) لتفتح ملف الشيعة بشكل أكبر بعدما سعى أعضاء اللجنة

للحديث مع مسئولين مصريين وعلماء دين ، عن التضييق على البهائيين والشيعة، وعدم تمتعهم بالحرية الدينية، وأعقب هذا صدور تقارير حقوقية أخرى لمنظمات مصرية تشير إلى تاريخ هذه الانتهاكات ضد الشيعة .

وجاء الحديث عن انتهاكات ضد الشيعة فى الوقت الذى يؤكد فيه مسئولو الأزهر الشريف أن مذهبهم معترَف به دينيًا فى مصر منذ فتوى الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر عام ١٩٥٩ بجواز التعبد على مذهب الشيعة الإمامية الإثنا عشرية ، وتأكيد الشيخ سيد طنطاوى شيخ الأزهر الحالى لذات الفتوى واعتباره مذهبًا جائزًا شرعًا كسائر مذاهب السُّنة .

كما أكد الشيخ على جمعة مفتى مصر أنه ردّ على ما أثاره وفد لجنة الحريات الدينية فى هذا الصدد بتأكيد أن المذهب الشيعى معترف به ، لكنه لا يُكتب اسمه فى خانة الديانة بالبطاقة الشخصية كبقية أهل السُّنة وجرى العُرْف على كتابة كلمة "مسلم" فقط لا مذهب المسلم .

وقد ألقت أجهزة الأمن المصرية القبض على عدد من المتهمين بتبنِّى وترويج الفكر الشيعى عام ١٩٨٦ ومجموعة أخرى عام ١٩٨٨ ووجهت إليهم تهم الاتصال بإيران ، كذلك جرى اعتقال مجموعة أخرى عام ٢٠٠٢ ، وقد أفرجت السلطات عن أعضاء ما سُمِّى "تنظيم رأس غارب" الشيعى بالبحر الأحمر شرق مصر الذين جرى اعتقالهم فى ديسمبر ٢٠٠٢ .

وفى بيان منظمة "المبادرة المصرية للحقوق الشخصية" قالت إن هناك انتهاكات متكررة لحقوق الشيعة في مصر منذ عام ١٩٨٨ وإن بعضهم لا يزال رهن الاعتقال وإن حملات الاعتقال التى جرت ضدهم بلغت ست حملات شملت ١٢٤ شيعيًا . وتعتبر قضية رأس غارب هى السادسة فى سلسلة اعتقالات ضد أفراد ناشطين ينتمون إلى الشيعة فى مصر بتهم مختلفة ، منها : قلب نظام الحكم ، والسعى لتغيير المبادئ الأساسية للهيئة الاجتماعية ، وترويج المذهب الشيعى الجعفرى [٢٠] .

ثانيًا : فوضى الفضائيات : الهوية الشيعية فى ضوء التصريحات الفضائية !!! :

أدلى الرئيس حسنى مبارك بعدة تصريحات فى أثناء لقائه على قناة "العربية الفضائية" (مساء السبت ٨ أبريل ٢٠٠٦) ، وقد أثار الجدل وتعددت التداعيات حول فقرتين فقط تضمنهما الحوار ، حول طبيعة الأوضاع الداخلية فى العراق من ناحية ، والتأثير الإيرانى فى هذه الأوضاع من ناحية أخرى ، وكان نص الفقرتين كما يلى :

الأولى : عندما سُئل الرئيس : "كيف العراق اليوم ؟ هل تعتقد أن العراق على أبواب حرب أهلية ؟". قال : "الحرب الأهلية فى العراق بدأت فعلاً .. مش على أبواب ، هى فى حرب أهلية تقريبًا بدأت ، مش أبواب شيعة أو سُنَّة وكردى والأصناف اللى جاية من آسيا ، العملية

صعبة ، أنا مش عارف العراق دى رح تتلم إزاى ، أنا شخصيًا مش شايف لها شكل ، العراق يعنى تقريبًا شبه مدمرة دلوقت" .

الثانية : عندما سُئل : "انت تعتقد إن التأثير الإيرانى اللى جعل يعنى هذا الوضع متأزم جداً فى العراق ؟" . قال : "بالقطع يعنى إيران لها ذراع فى الشيعة مش كلام لأن عندهم ناس كثيرة جداً ، والشيعة موجودة فيه حوالى ٦٥٪ من العراقيين شيعة ، وفيه شيعة فى كل الدول دى كلها نسب كبيرة جداً ، والشيعة دائمًا ولاءها لإيران ، أغلبهم ولاءهم لإيران مثل ولاءهم للدول " .

وفى إطار هذه العبارات ، اختُصر حديث الرئيس فى عبارتين فقط "أن هناك حربًا أهلية فى العراق" ، "أن الشيعة فى الدول العربية أغلبهم ولاؤهم لإيران" .

وكردٍ فعل على هاتين العبارتين تعددت ردود الأفعال المضادة ، رسمية وشعبية ، من العديد من الأطراف العربية والدولية على النحو التالى :

١ – **الرئيس العراقى جلال طالبانى** قال : "يعز علينا الاختلاف مع الشعب المصرى بسبب تصريحات الرئيس المصرى حسنى مبارك" . ورفض طالبانى تصريحات مبارك حول شيعة العراق وولائهم لإيران وقال : "سبَّبَتْ إزعاجًا ، للشعب العراقى بمختلف طوائفه وقومياته وأثارت استياء الحكومة العراقية " ، وقال : "ما سمعناه هو اتهام خطير

لأكثرية الشعب العراقى الذين حددهم الأخ حسنى مبارك بـ ٦٥٪ وأن الواقع هو أن الشيعة فى العراق وطنيون وعروبيون وأن انتماءهم إلى العراق لا يوازيه أى انتماء آخر" ، وأضاف : "أثار استغرابنَا توصيفُ المشكلات الأمنية فى العراق بأنها حرب أهلية فى الوقت الذى أثبت فيه شعبنا بأنه بعيد كل البعد عن الحرب الطائفية فضلاً عن الحرب الأهلية" باعتبار أن أحداث سامراء وما سبقها وما تلاها "لم تكن إلا اختبارات مهمة ، خرج منها أبناء الشعب العراقى على اختلاف مذاهبهم منتصرين على أعدائهم ومجسدين الوحدة الوطنية" .

٢ - **رئيس الوزراء العراقى إبراهيم الجعفرى** قال : "إن توصيفه لما يجرى فى العراق بأنه حرب أهلية غير دقيق" وأضاف أن هناك مجرمين سُنَّة ومجرمين شيعة يتحدثون باسم الطائفتين لأهداف خبيثة مشدداً على أن ما يحدث ليس حرباً بين هاتين الطائفتين .

ثم قرأ الجعفرى بياناً رسمياً حول تصريحات مبارك جاء فيه : "إن ما ورد فى تصريحات الرئيس المصرى بشأن ولاء الشيعة فى العراق لإيران طعْن فى وطنيتهم وحضارتهم وإن كان عن غير قصد ، وهذا سَبَّب إزعاجًا للشعب العراقى بجميع مكوناته وطوائفه وقومياته" ، وأضاف البيان أن ما تتوقعه الحكومة العراقية من الرئيس المصرى أن يتلافى هذه الاتهامات من أكبر دولة عربية .. وقد وجهت وزارة الخارجية طلب إيضاح من الحكومة المصرية حول ذلك ، وأضاف أن الحكومة العراقية استغربت توصيف ما يجرى فى العراق من إرهاب بأنه حرب أهلية" .

وفى تصريحات نقلتها "رويترز" (٢٠٠٦/٤/٩) قال الجعفرى : "إن تصريحات مبارك طعْن فى وطنية شيعة العراق وحضارتهم" . مشيراً إلى أن الحكومة أبلغت وزير الخارجية العراقى بأن يطلب إيضاحًا لتلك التصريحات من مصر .

٣ - **وزير الخارجية العراقى** : أفاد بيان لوزارة الخارجية العراقية (٢٠٠٦/٤/١٠) بأن وزير الخارجية العراقى "هوشيار زيبارى" بحث مع نظيره المصرى أحمد أبو الغيط تصريحات الرئيس مبارك ، وأعرب زيبارى عن استغراب الحكومة العراقية من هذه التصريحات ، و "الحاجة إلى معالجتها لتقليل الضرر بطريقة عقلانية ، وبما يخدم العلاقات الأخوية الراسخة بين الشعبين والبلدين الشقيقين" .

٤ - **الائتلاف العراقى الموحد (الحاكم)** طالب مبارك بالتراجع عن تصريحاته ، وقال فى بيان له : "الائتلاف العراقى الموحد وعموم الشيعة فى العراق يطالبون الرئيس المصرى بالاعتذار ، كما يطالب الحكومة العراقية ممثلة برئيس الجمهورية ورئيس الوزراء ومجلس النواب ووزير الخارجية أن يسجلوا رفضهم واستنكارهم الرسمى لهذه التصريحات اللامسئولة التى نخشى أن تصدع التلاحم العربى الإسلامى [٢١] .

٥ - فى المملكة العربية السعودية صدر بيان وقَّع عليه نحو ١٢٢ ناشطًا شيعيًا من مختلف الطبقات والفئات الدينية والأكاديمية والثقافية ورجال الأعمال ، ووُجِّهت نسخ منه إلى وزارة الخارجية السعودية وديوان

الرئاسة المصرية والسفارة المصرية فى المملكة ، من بين ما جاء فيه : "إن هذا التصريح ، الذى يغاير الواقع ، قد أساء إلى المواطنين الشيعة فى العالم العربى والإسلامى لتجاهله المواقف الوطنية الأصيلة للمواطنين الشيعة تجاه دولهم تاريخًا وحاضرًا ، مما يُخْشَى أن يؤدى إلى الفُرْقة الطائفية ونحن فى وقت نحن بأمسِّ الحاجة فيه إلى تعزيز الوحدة بين المسلمين . ولِمَا لجمهورية مصر العربية من موقع ريادى فى المنطقة ، إذ كانت ولا تزال تقدم مواقف احتوائية للأزمات ، مما يُلْزِمها الاستمرار على هذا النهج ، نأمل من فخامة الرئيس توضيح ، وتصحيح ، ما أدلى به لقناة "العربية" لكى لا يُسْتغل هذا التصريح لضرب الوحدة العربية والإسلامية" .

٨ - أصدر الشيخ حسن الصفار (أحد زعماء الشيعة فى المملكة) بيانًا جاء فيه : "إن ما نُقل عن الرئيس حسنى مبارك من تصريحات تشككٌ فى ولاء شريحة كبرى من الشعب العراقى (الشيعة) لوطنهم لا يخدم المأمول من العالم العربى ومن مصر بالذات ، كما أن التشكيك فى ولاء جميع المواطنين الشيعة لأوطانهم ظلم وإجحاف يتنافى مع تاريخهم الناصع فى الدفاع عن أوطانهم والإخلاص لمجتمعاتهم ويخدم مخطَّطات الفتنة وتمزيق الأمة ويخالف مقررات قمَّة مكَّة الاستثنائية والتى ما جفّ حبرها بعد وكان الرئيس المصرى فى طليعة المشاركين فيها [٢٢] .

٩ - **أعلن رئيس الوزراء الكويتي الشيخ ناصر الصباح** : "إن تصريح الرئيس المصرى حسنى مبارك حول ولاء الشيعة لإيران لا يعني الكويت من قريب أو بعيد" ، وأكد على "التلاحم الوطنى الرائع" فى الكويت .

وأضاف : "إن التاريخ يشهد لشعبها (الكويت) سُنَّة وشيعة بمواقفهم الوطنية الراسخة والواضحة فى الحفاظ على تلاحم نسيجهم الاجتماعى ووحدتهم الوطنية وشريعتهم فى السرَّاء والضرَّاء" .

وأضاف : "خير شاهد على ذلك التلاحم الوطنى الرائع فى وجه العدوان الصدَّامىّ الغاشم على دولة الكويت والذى لم يفرق بين شيعتها وسنتها ، حيث وقف الجميع صفًا واحدًا سُنَّة وشيعة حاملين السلاح والقلم مضحِّين بالغالى والنفيس فى سبيل الحفاظ على وحدتهم الوطنية وشريعتهم القائمة على عدم التفرقة بين أبناء المجتمع قاطبة" ، "وهو أمر نفتخر ونعتز به وندعمه ، وسيبقى شعارنا قولاً وعملاً ما بقيت الكويت وبقى أهلها" .

١٠ - **قال رئيس مجلس الأمة الكويتى جاسم الخرافى** : "إن المجتمع الكويتى محصَّن أمام كل ما يسىء إلى وحدته وترابطه"، مستبعدًا فى هذا السياق أن "يكون الرئيس حسنى مبارك قد عنى فى تصريحه أخيرًا مواطنى دولة الكويت" ، وقال الخرافى : "إن الجميع على هذه الأرض الطيبة يقدر ويحترم بعضهم بعضًا" مضيفًا أن "الجميع يعرف مدى ترابط المواطنين فى الكويت وحرصهم على نبذ الطائفية

وعدم إثارة الفتنة" . وأضاف : "أنا على يقين بأن فخامة الرئيس حسنى مبارك لم يقصد الإساءة أو التشكيك بوطنية أى مواطن كويتى" ، وأوضح أن أهل الكويت "سُنَّة وشيعة أكدوا ولاءهم لهذا البلد الطيب فى أحلك الظروف" (٢٣) .

١١ - أصدرت قيادتا حركة "أمل" و "حزب الله" اللبنانيتين بيانًا ، من بين ما جاء فيه : "في الوقت الذى نعتز فيه بأخوَّتنا وصداقتنا بالجمهورية الإسلامية الإيرانية ، ونرى فيها عونًا وسندًا قويًا للعرب والمسلمين جميعًا فى مواجهة التحديات والأخطار وفى خدمة القضايا الكبرى للعالمين العربى والإسلامى ، نؤكد أن شيعة لبنان قد أخذوا شهادة بوطنيتهم ومصداقيتهم وإخلاصهم لوطنهم وشعبهم من التضحيات والدماء والجهود التى بذلوها فى خدمة هذا الوطن ، وإننا نأمل من الرئاسة المصرية تصحيح الصورة والموقف لما تمثله مصر من موقع ومن مقام فى العالم العربى" .

١٢ - قال المرجع الشيعى السيد محمد حسين فضل الله فى بيان له : "فى الوقت الذى كان فيه اللبنانيون ومعهم العرب يتابعون بكثير من الاهتمام السعى المصرى لرأب الصدع داخل الساحة اللبنانية والحركة المصرية المثيرة للاهتمام لتوطيد العلاقات بين لبنان ومحيطه العربى والإسلامى ، فوجئوا ، ومعهم العرب والمسلمون ، بالموقف الأخير للرئيس حسنى مبارك ، الذى حاول التأكيد فيه أن أغلب الشيعة يوالون إيران

لا دولهم . ولعل المفاجأة الكبرى تنطلق من أن هذا الموقف لا يتسم بالدقة ، ويأتى مغايراً للحركة المصرية فى لبنان ومحيطه (٢٤) .

١٣ - **أعلن المتحدث باسم وزارة الخارجية الإيرانية ، حميد رضا آصفى** ، أن بلاده "تسعى إلى تأمين الاستقرار والأمن فى المنطقة" ، وقال : "إن لإيران تأثيراً كبيراً في العراق ، لكننا لا نستخدم هذا التأثير مطلقًا للتدخل فى الشئون الداخلية العراقية . تأثيرنا روحى واستخدمناه دائمًا لتعزيز التفاهم والتقارب بين المجموعات الدينية والعرقية" .

١٤ - **رَفَضَ السفير الأمريكى لدى العراق زلماى خليلزاد** اتهام الشيعة بأنهم "يتلقون الإرشاد من إيران وأنهم موالون للنظام السياسى والدينى فيها" ، ونقل بيان أصدرته السفارة الأمريكية فى العراق (٢٠٠٦/٤/١١) عن خليلزاد قوله : "نحن لا نتفق مع ذلك ، ونحن مقتنعون بأن الشيعة هم عرب يريدون عراقًا مستقلاً" . وأضاف : "فعلاً إن فاتيكان المذهب الشيعى هو هنا فى النجف ، فى العراق . ولقد اعتنقت إيران المذهب الشيعى مؤخراً ، منذ نحو ٣٠٠ سنة ، أما وجود الشيعة فى العراق فهو منذ أكثر من ١٠٠٠ سنة " . وتابع "إن الشيعة العراقيين هم وطنيون عراقيون ، ولا يتلقّون الإرشاد من إيران" .

وأمام الجدل الذى أثارته تصريحات الرئيس مبارك ، جاءت التداعيات سريعة و وفى الاتجاه الخطأ ، الذى يزيد من أزمات العرب والمسلمين ، ومن بين هذه التداعيات :

(أ) إعلان الحكومة العراقية عن مقاطعتها لأعمال مؤتمر دول الجوار العراقي الذي عُقد (الأربعاء ١٢/٤/٢٠٠٦) بالقاهرة ، وأعلنت أنها لن تشارك في الاجتماع احتجاجًا على التصريحات التي أدلى بها الرئيس مبارك عن ولاء الشيعة العراقيين لإيران .

(ب) تصاعد الدعوات بين عدد من القوى الشيعية بمقاطعة المنتجات والبضائع المصرية ، وظهور تيارات سُنِّيَّة مصرية وخليجية ، تدعو إلى مقاطعة إيران ردًا على أية مقاطعة لمصر. فدخلت المنطقة ، من أزمة بين القيادات السياسية ، إلى أزمة بين الشعوب ، والخطر هنا سيكون أكثر تدميرًا .

وفي هذا الإطار تعددت الاتجاهات والتحليلات حول توقيت هذه التصريحات ومغزاها ، ومن ذلك :

١ - إن التصعيد المصري المفاجئ تجاه إيران ، جزء من الحملة النفسية التي تشنها الولايات المتحدة ضد إيران بهدف كسر حدة التعاطف العربي والإسلامي مع حق إيران في امتلاك برنامج نووي سلمي ، وإن تصريحات مبارك قد تكون الطلقة الأولى في سلسلة خطوات قادمة ، تشارك فيها عدة دول غربية ، من أجل الترويج لإيران كخطر وشيك على الأمن القومي العربي .

٢ – إن العلاقات المصرية الإيرانية ستشهد مزيداً من التوتر فى المرحلة المقبلة على خلفية هذه التصريحات .

٣ – إن توقيت هذه التصريحات كان محسوباً بدقة ، كما أن إطلاقها عبر قناة "العربية" لم يكن أيضاً مجرد مصادفة ، ويشير إلى تنسيق مصرى سعودى للتصعيد مع إيران ، على الأقل فى ما يتعلق بالملف العراقى .

٤ – ألقت هذه التصريحات بظلالها على اجتماع اللجنة الوزارية العربية المعنيَّة بالعراق ، حيث أبدى دبلوماسيون عرب فى القاهرة مخاوفهم من عدم مشاركة العراق فى هذا الاجتماع ، الأمر الذى قد يجعل الاجتماع غير ذى جدوى فى حال غياب الطرف المعنىِّ بالاجتماع وهو العراق ، عن اجتماع خُصِّص لتدارس شئونه (٢٥) .

٥ – إن هذه التصريحات لا تخدم بأى شكل من الأشكال المساعى لإيجاد دور عربى فى عراق ما بعد الحرب ، كما أنها ستخلق صعوبات أمنية ضد المصالح العربية فى العراق وستزيد من المعارضة الشيعية لأى دور عربى فى العراق (٢٦) .

٦ – إن هذه التصريحات تأتى فى سياق التخبط الذى يحكم الدبلوماسية والسياسة الخارجية المصرية ، فلم يكن من الموفَّق إطلاق هذه التصريحات فى هذا التوقيت رغم أنها تكشف عن تعاظم النفوذ الإيرانى واقتراب العراق من الحرب الأهلية ، إلا أنها تضر بأى دور

عربى متوقَّع فى العراق ، كما أنها تشير إلى افتقاد السياسة الخارجية المصرية استراتيجيةً واضحةً فى الدفاع عن مصالحها ، معتبراً أن هذه التصريحات سوف تسهم فى خلق حالة البعاد بين العراق والدول العربية وستكرس النفوذ الإيرانى .

وأن الرئيس مبارك قد هدف من وراء هذه التصريحات إلى إيصال رسالة إلى واشنطن بأن القاهرة ستبقى الحليف الأقوى فى المنطقة وأن رهانها على أى دور إقليمى هو رهان خاسر ، وأنه سعى لكسب دور واشنطن وتأييدها للتوريث الذى أصبح يشكِّل الهمَّ الأول لدوائر صناعة القرار فى مصر (٢٧) .

وفى محاولة لاحتواء التأثيرات السلبية لتصريحات مبارك ، أكَّد المتحدث الرسمى باسم الرئاسة المصرية السفير سليمان عواد ، حرص الرئيس حسنى مبارك على وحدة العراق وشعبه واستعادة الهدوء والاستقرار وتحقيق الوفاق الوطنى ، منوهاً بأن بلاده تتعامل مع جميع طوائف وأطياف الشعب العراقى من دون تفرقة أو تمييز" .

وقال : عمَّا ذكره الرئيس مبارك عن تأثير إيران على شيعة العراق : "إن ما قصده هو التعاطف الشيعى مع إيران" .

وهنا تأتى أهمية الإشارة إلى أن ما قال به الرئيس مبارك ليس جديداً ، فالكثيرون فى الدول العربية يدركون حقيقة وخطورة ما قال ، بل إن عدداً من المسئولين العراقيين والأمريكيين أنفسهم أكدوا على أن الحرب الأهلية فى العراق واقعة بالفعل ، وليست متوقعة .

إلا أن الخطأ كان فى اختيار التوقيت الذى تصدر فيه هذه التصريحات ، لأكثر من اعتبار ، فمن ناحية أن هذه التصريحات لا تساعد على احتواء الموقف فى العراق بل تزيده اشتعالاً ، ومن ناحية ثانية أنها لا تساعد على إمكانية قيام دور عربى فاعل فى العراق مستقبلاً ، وإفشال كل الجهود المبذولة فى هذا الإطار ، بل إنها تجعل من أى دور عربى هدفًا للقوى الرافضة ، والتى أصبحت أكثر استعدادًا لمنعه ولو بالقوة . ومن ناحية ثالثة أنها ترسل الرسالة الخطأ فى الوقت الخطأ ، والمتمثلة فى التصعيد ضد إيران ، فى وقت تُصعِّد فيه الولايات المتحدة من تهديداتها ضدها ، وبالتالى سيتم الربط تلقائيًا بين هذه التصريحات وتلك التهديدات ، بما يظهر الدور المصرى تابعًا للأمريكى ، ومنفِّذًا لسياساته فى المنطقة .

ثالثًا : فوضى العلماء بين التصريحات الغاضبة وبيانات التهدئة :

حذر الشيخ يوسف القرضاوى ، رئيس الاتحاد العالمى لعلماء المسلمين ، فى ندوة عُقدت بمناسبة افتتاح الموسم الثقافى بنقابة الصحفيين المصرية بالقاهرة (الخميس ٢٠٠٦/٨/٣١) ، فى كلمته "عن الرؤية المستقبلية للعالم العربى" من محاولات اختراق الشيعة للسُّنة ، واختراق السُّنة للشيعة، إلا أنه طالب فى الوقت نفسه بالتقريب ، وقال : "ولكن لا يمكن أن نقبل أن يكون هذا التقريب سببًا فى اختراق البلاد السنية ، لأن هذا سيؤدى إلى نار تأكل الأخضر واليابس ، ويجعل

ما يحدث فى العراق بين السُّنة والشيعة نموذجًا لكل الدول" . وركز على أن تحـقـيق التـقـريب المذهبى يتطلب أن يمتنع كل طرف من السُّنة والشيعة عن أن يبشر بمذهبه فى البلاد التى تتبنى المذهب الآخر .

وقال : "إن حسن نصر اللّـه لا يختلف عن الشيعة المتعصبين ، فهو متمسك بشيعيته ، وعقيدته ، ولا يمكن أن ننكر هذا ، ولكنه أحسن بكثر من القاعدين والمتخلفين عن الحق" (٢٨) ، وقال : "إننا ندعو دائمًا إلى أن يقف السُّنة والشيعة ضد عدوهما الصهيونى والأمريكى، حيث إن أعداءنا يريدون أن يفرقونا ، لذا علينا أن نؤيد إيران فى موقفها النووى ، ونشد على يدها فى ذلك ، فنحن نؤيد منطق القوة" (٢٩) .

وحـذر القـرضـاوى من اخـتـراق الشـيـعـة لمصـر ، منبهًـا إلى أنهم يحاولون نشر مذهبهم فى مصر لأنها تحب آل البيت وبها مقام الحسين والسيدة زينب ، ووصف فى الوقت نفسه حسن نصر اللّـه الأمين العامُّ لحزب اللّـه اللبنانى الشيعى "بالمتعصب" لمذهبه ، ولكنه أشاد به رغم ذلك معتبرًا أنه أفضل من غيره من المتخاذلين القاعدين ، وأكد أن الشيعة أخذوا من التصوف نقطة ارتكاز للتشيع ، وأنهم اخترقوا مصر فى السنوات الأخيرة من هذا الجانب .

وقـال القرضـاوى : "أدعـو إلى التـقريب بين المذاهب ، وأؤيد حـزب اللّـه فى مقاومته ، ولكن لا أقبل أن يخترقوا بلادنا ، محذرًا من وقوع مذابح مثل ما يحدث فى العراق بين السُّنة والشيعة إذا حدث اختراق

كبير شيعي لمصر ، فيجب أن نكون على يقظة" . وأضاف : "حسن نصر اللّه لا يختلف عن الشيعة المتعصبين ، فهو متمسك بشيعيته ومبادئه ، ولا يمكن أن ننكر هذا ، ولكنه أفضل من غيره من القاعدين والمتخاذلين" .

وانتقد القرضاوى أصحاب الفكر الدينى ممن يعيشون الماضى وحده ويحبسون أنفسهم فى الكتب الصفراء ولا ينظرون إلى المستقبل ، فهؤلاء لا يمثلون الإسلام . وأكد القرضاوى أنه لا يمكن تطبيق الشريعة الإسلامية إلا فى مناخ الحرية قائلاً : توفير الحرية عندى مقدَّم على الشريعة ، فلا نريد أن يساق الناس بالعصا ونريد الإسلام التجديدى ، أو أن نجمع بين السلفية والتجديد .

وذكر القرضاوى لقاءه كبار المسئولين فى إيران ، مشيراً إلى أنه "طلب منهم ضرورة الكف عن الكلام بأن القرآن ناقص ، فأغلبهم يؤمنون بأن القرآن كلام اللّه ولكن يقولون هذا ليس القرآن كله وقالوا إن مصحف فاطمة كان ضعف هذا المصحف " .

وقال : "طالبتهم بالتوقف عن سب الصحابة ، فهم يتقربون إلى اللّه بسبهم ولعنهم ، وأنه لا ينبغى أن يبشر أحدنا بمذهبه فى البلاد الخاصة بالمذهب الآخر ، وأن التقارب ليس معناه أن يتحول السُّنى إلى شيعى ولكن نتعاون فى ما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضاً فى ما اختلفنا فيه" .

ودعا القرضاوى إلى وقوف السُّنة والشيعة فى جبهة واحدة ضد عدوهم المشترك قائلاً : موقفنا بأننا لا نسمح باختراق المذهب الشيعى لنا ولكن المواجهة للقوى الاستعمارية شىء آخر" (٣٠) .

وفى بيان أصدره الدكتور محمد سليم العوا ، الأمين العامُّ للاتحاد العالمى لعلماء المسلمين (٢٠٠٦/٩/١) ، نفى ما نُشر عن الدكتور القرضاوى من انتقادات للشيعة أو السيد حسن نصر اللَّه زعيم حزب اللَّه اللبنانى ، وقال الدكتور العوا إن تصريحات الدكتور القرضاوى فى ما يخص التعصب الشيعي كانت "سبق لسان" مضيفًا قوله : وإذا كان لفظ التعصب قد جرى على لسان فضيلته فى هذا السياق فإن حقيقة المقصود به هى التمسك بالمذهب وبالآراء التي يعبر عنها أو يتبناها علماء الشيعة الإمامية ، وهو أمر محمود لا عيب فيه ولا مأخذ عليه ، ولم يكن ذكر التعصب إلا سبق لسان مقصوداً به معنى التمسك المحمود بالمبدأ جملة وتفصيلاً .

وبخصوص اتهامات القرضاوى للشيعة بالعمل على اختراق المجتمعات السُّنية قال الدكتور العوا : ما ذكره القرضاوى عن رفضه لمحاولات بعض الشيعة التأثير على أفراد من أهل السُّنة لتحويلهم إلى المذعب الشيعى كان المقصود به تلك المحاولات الفردية غير المسئولة التى تبثُّ الفرقة والفتنة بين أبناء الدين الواحد فى الأقطار التى غالبيتها من أهل السُّنة بالدعوة إلى التشيع ، أو فى الأقطار التى غالبيتها من الشيعة بالدعوة إلى الانتقال إلى مذاهب أهل السُّنة (٣١) .

وأوضح الدكتور العوا (٣٢) : "أحببنا من خلال هذا البيان أن نضع النقاط على الحروف فى ما يخص المسائل الجوهرية حتى نزيل بسرعةٍ اللبس الذى حدث ، ثم نقوم من خلال تلك المحاضرة بتكملة الباقى" . واستطرد بأن بيان الاتحاد العالمى لعلماء المسلمين "حرص فى أوله على أن ينفى عن المتصوفة والصوفية ما تناولهم فى هذا الموضوع . هناك نفى تام لذلك ، وهذا الكلام كله عنهم غير صحيح ومجرد سبق لسان ، فجميع علماء الأزهر صوفية ، هذا تاريخ ، فالأزهر على مدار ١٢ أو ١١ قرنًا كله تصوف ، فكأن فى ذلك اللبس الذى حصل عند البعض ، اتهامًا للأزهر كله ، لذلك فما قيل عن المتصوفة والصوفية ليس أكثر من "سبق لسان" .

وشدد على أنه "لا خلاف فى الاتحاد العالمى على هذا التصحيح وإزالة اللبس ، وقد تم الاتفاق عليه تمامًا مع الشيخ القرضاوى وصدر بعد أن اطّلع عليه" .

وقال البيان : "تود الأمانة العامة أن توضح أن ما نُقل عن فضيلة الدكتور يوسف القرضاوى فى هذا الشأن لم يكن كلامًا فى أصل محاضرته التى ألقاها فى نقابة الصحفيين بالقاهرة ، وإنما كان جوابًا عن أسئلة وُجهت إليه يحكمه بالضرورة سياق السؤال وكيفية صياغته . ولم يكن فى كلام فضيلته أى اتهام للسادة الصوفية أو لفكرة التصوف نفسها على النحو الذى فهمه بعض من حضر اللقاء أو قرأ ما نُشر عنه . كما أن فضيلته كرر مواقفه المعروفة من ضرورة وحدة الأمة ،

ومن كون إخواننا الشيعة الإمامية فرقة من فرق المسلمين ، ومن كون المذهب الجعفرى مذهبًا إسلاميًا معتبراً . وهو الموقف القديم الثابت لسماحته من هذه المسألة .

كما عبَّر فضيلة العلاَّمة القرضاوى مرات لا تُحْصَى عن تقديره لسماحة السيد حسن نصر اللَّه الأمين العامٍّ لحزب اللَّه ، وعن اعتزازه بالصلة الأخوية التى تربطهما ، وعن وقوفه بكل ما يملك إلى جوار المقاومة الإسلامية المشروعة فى لبنان ، كوقوفه مع المقاومة الإسلامية المشروعة فى فلسطين ، وفى غيرهما من البلدان المستعمَرة أو المحتلة .

وأضاف : "إذا كان لفظ التعصب قد جرى على لسان فضيلته فى هذا السياق فإن حقيقة المقصود به هو التمسك بالمذهب وبالآراء التى يعبر عنها أو يتبناها علماء الشيعة الإمامية ، وهو أمر محمود لا عيب فيه ولا مأخذ عليه ، ولم يكن ذكر التعصب إلا سبق لسان مقصوداً به معنى التمسك المحمود بالمبدأ جملة وتفصيلاً" .

وجاء فى البيان : "ما ذكره فضيلة الدكتور يوسف القرضاوى عن رفضه لمحاولات بعض الشيعة التأثير على أفراد من أهل السُّنة لتحويلهم إلى المذهب الشيعى كان المقصود به تلك المحاولات الفردية غير المسئولة التى تبث الفرقة والفتنة بين أبناء الدين الواحد فى الأقطار التى غالبيتها من أهل السُّنة بالدعوة إلى التشيع ، أو فى الأقطار التى غالبيتها من الشيعة بالدعوة إلى الانتقال إلى مذاهب أهل السُّنة" .

وأوضح أن "الاتحاد العالمى لعلماء المسلمين و الذى يضم العلماء من المذاهب جميعًا ، ولرئيسه نواب ثلاثة من الشيعة والسُّنة والإباضية ، يؤكد على موقفه الثابت من ضرورة وأد أى فتنة بين المسلمين فى مهدها ، ومن ضرورة التقريب بين أهل المذاهب الإسلامية وعلمائها وأتباعها ، ومن ضرورة التعاون بين المسلمين كافة فى ما اتفقوا عليه وأن يعذر بعضهم بعضًا فى ما اختلفوا فيه" (٣٣) .

وقد صدرت تصريحات مضادة عن السيد أبو العلا ماضى رئيس حزب الوسط (فى ندوة مركز آفاق اشتراكية) لتصريحات القرضاوى ، حيث اعتبرها خطأ كبيرًا وفادحًا ، على حد وصفه .

ومن جانبه وجَّه محمد الدرينى (الذى يقدَّم له فى بعض المصادر الإعلامية برئيس المجلس الأعلى لرعاية آل البيت فى مصر) انتقادات لتصريحات الدكتور القرضاوى واصفًا إياها بأنها تحرض ضد آل البيت والطرق الصوفية ، مقدرًا عددها بستة وسبعين طريقة ، وقال الدرينى : ما قاله القرضاوى تحريض واضح وصريح ضد آل البيت فى مصر ، لأنه يتسق مع مجموعة من الإجراءات التى لجأت إليها الحكومة ممثَّلة فى إعطاء توجيهات إلى خطباء المساجد للتحريض ضد آل البيت عمومًا والشيعة بصفة خاصَّة ، مشيرًا إلى أن المجلس أصدر بيانًا فى ما يتعلق بهذا الأمر ، قلنا فيه : "إن ثمة مخططًا أمنيًا يستهدف الشيعة فى المرحلة اللاحقة" .

وأضاف: عقب غزو إسرائيل للبنان وما ترتب عليه ونجاح حزب اللّه في استقطابٍ لقلوب الجماهير ، انعكس علينا ، جاءت تصريحات القرضاوي لتعطي للأمن مبرراً لملاحقتنا ، وتضيء لمبات حمراء في رءوس كل المهتمين بهذه القضية وبأن ما يحدث في العراق ممكن أن يحدث في مصر ، ناسين أن مصر تتميز بعبقرية الزمان والمكان التي شكلت وجداناً غاية في العطاء والتسامح ، ولا يمكن أن تنطبق عليها هذه المخاوف التي أثارها الشيخ القرضاوي ، اللهم إلا إذا كانت تأتي في إطار توجُّه يستهدف التحريض ضد الشيعة في مصر ، خصوصاً عندما تناول قضية التصوف التي ينضوي تحت لوائها ما بين ١١ و ١٢ مليون شخص في ٧٦ طريقة صوفية تحظى برعاية رئاسة الجمهورية .

وأضاف : الشيخ القرضاوي وما يمثله وكل الاتجاهات الراديكالية السُّنية المنظمة الممنهجة ، تعي وتدرك تماماً حجمها الحقيقي قياساً بالتصوف ، وبالتالي لا يحق لها مبدئياً أن تهاجم هذه الكتلة الكبيرة وتعرضها للخطر والتدخل الأمني . وهذا التصريح لا يستهدف آل البيت في مصر فقط بل يستهدف التصوف ، خصوصاً وأن في المعتقلات متصوفين لا تذكرهم الصحف ، مثل جماعة الفرماوية ، وجماعة أحمد إبراهيم .

وقال : كيف نتحدث دائماً عن الحرية ومفاهيمها ، ونتجاهل أن ألف باء تلك الحرية وما تقره القوانين والأعراف الدولية ، هو احترام

خصوصية الإنسان فى تعبُّده لربه ؟ فلماذا إثارة أن هذا سنى أو شيعى أو غير ذلك ؟ لا أحد وكيل عن اللّه ليحاسبنا فى الأرض عن معتقداتنا .

وأضاف : إن الحديث عن دور إيرانى فى نشر المذهب الشيعى فى مصر يعطيها حجمًا أكبر من حجمها ، فلا نعتقد ونحن فى مصر أن هناك عملاً إيرانيًا من هذا القبيل ، ولا أحد يجرؤ عليه . هم يبحثون عن إقامة علاقات طيبة لا فرِق عمل تعمل فى التبشير أو الدعوة . نحن فى مصر كشيعة نعانى من ذلك الربط بيننا وبين إيران أو أن ينسبنا البعض إليها . نحن لا نردد ما تقوله طهران وليس لهذه المخاوف أى نصيب من الحقيقة . كل ما نستطيع قوله أن جهوداً إنسانية تكاملت فيما بينها لنشر المعرفة فى مختلف مجالاتها .

وحول مصحف فاطمة قال الدرينى : أنت تتكلم معى الآن باعتبارى واحداً من زعماء الشيعة المصريين ، ومن هنا أقول لك إننى لم أقرأ قط مصحف فاطمة هذا ولا أعرفه ، فقط أعرف المصحف الذى يقرأ فيه جميع المسلمين ، سُنَّة وشيعة . إن هناك تلفيقًا مقصوداً خلط بين المصحف والصحيفة ، فالسيدة فاطمة كانت تكتب فى صحيفةٍ ما يمليه عليها أبوها الرسول محمد ﷺ ، والقرآن الكريم لم يقل إنا أنزلنا إليك المصحف ، بل قال إنا أنزلنا إليك الكتاب ، إذن هناك فرق بين الكتاب والمصحف ، والذى يتردد حول ذلك المصحف يأتى فى إطار التلفيقات الدينية ضد آل البيت والتحريض ضدهم كأن يقال إن الرسالة كانت

قادمة لعليّ وذهبت إلى محمد ﷺ ، وهذا منتهى الاستخفاف بالعقول في عصر المعلومات الذى نعيشه .

وحول جزئية سبٍّ الصحابة التى جاءت فى كلام القرضاوى قال الدرينى : أى صحابة ؟ الصحابة رضوان اللّه عليهم ، صحابة وقفت وصمدت ونصرت دين اللّه . من الذى يطلق عليه صحابى ؟ وما المعايير؟ أين أبو ذر الغفارى ؟ أين عمار بن ياسر رضوان اللّه عليهم جميعًا ؟ فلماذا تقحموننا وتجرُّوننا إلى مئات القضايا الفرعية ؟. لننظرْ بدلاً من ذلك إلى الثوابت والقواسم المشتركة التى توحِّد الأمة وتمكِّنها من مجابهة هذه التحديات ، وكفى لعبًا بهذه الأمور (٣٤) .

رابعًا : فوضى المفكرين : الارتداد .. والعودة .. والتعلق فى الهواء :

ويمثل أبرز نموذج لهذه الفوضى مشهد الكاتب الصحفى صالح الوردانى (٣٥) ، وهو يعلن ترك المذهب الشيعى الذى اعتنقه عام ١٩٨٥، وتأكيده أنه انتهى من إعداد مذكرات شخصية تحوى مراجعاته الفكرية حول هذه الفترة والتى ينتقد فيها المرجعيات والأخماس ، بالإضافة إلى كتاب آخر ، ودعوته بعض المثقفين إلى تأسيس جماعة باسم "الخطاب الجديد" تخلو من التقسيم المذهبى وتتبنى "الإسلام الواحد" .

ويُعَدُّ الوردانى من أبرز قادة التيار الشيعى فى مصر وأكثر مفكِّريهم تأثيراً وله كتب كثيرة تدعو إلى التشيُّع والهجوم على المذهب

السُّنى . وتطلق عليه بعض الدوائر صفة فيلسوف التشيُّع المصرى ، ومفكر التشيُّع ، والناطق الرسمى باسم الشيعة المصريين . وقد ارتبط بعلاقات وثيقة مع إيران حيث قام بزيارتها عدة مرات ، وجلب كتبًا شيعية تولى توزيعها فى مصر ، مما عرَّضه لاتهامات حصوله على دعم مالى إيرانى مع متشيعين بارزين آخرين ، وهى اتهامات كانت مجال صراع داخل الأوساط الشيعية المصرية نفسها .

وكان الوردانى فى مقدِّمة مؤسِّسى الجماعات الإسلامية فى مطلع السبعينيات ، قبل ظهور قيادات الجماعة الإسلامية المصرية وتنظيم الجهاد الذى انضوى فيه فيما بعد ، وكان من أشهر القياديين فيه ، وبعد دخوله المعتقل بسنوات فاجأ الناس أيضًا بإعلان تحوله إلى المذهب الشيعى فى عام ١٩٨٥ .

وقال إنه انتهى من مذكراته الشخصية حول تلك الحقبة بعنوان "سيرة أصحاب اللِّحَى" قائلا : ستتعرض هذه المذكِّرات لقضايا كثيرة تمتد إلى ما قبل فترة انخراطى فى تنظيم الجهاد ، فأنا من أوائل مؤسِّسى الجماعات الإسلامية فى وقت سابق لظهور هذا التيار" ، وأضاف : هذه المذكرات ترصد تاريخ الحركة الإسلامية بأجنحتها المختلفة فى مصر منذ السبعينيات إلى الآن ، شاملة السلفيِّين والإخوان والجهاد والتكفير والجماعات الإسلامية والقطبيِّين والشيعة فى ما بعد ، لأن التيار الشيعى ظهر مع أواخر الثمانينيات .

واستطرد : "عاصرت كل هذه التيارات وعشت بينها وكنت من زعمائها ، ولنا فيها كثير من الحوادث والوقائع والطرائف أيضًا التى مررنا عليها وعايشناها وعشنا معها من خلال هذه الفترة الطويلة" . وقال : لم أجد عنوانًا لهذه المذكرات أفضل من هذا العنوان "سيرة أصحاب اللحى" ، فهى فعلاً تتناول سيرة هؤلاء لا سيرة تيارات تعبر عن الإسلام تعبيراً دقيقًا ، بمعنى أنها تعبر عن أفراد وتوجهات ومصالح وجهات ، أكثر من كونها تعبر عن الإسلام .

وأشار إلى جزء من المذكرات يتعلق بسيرة المعتقلات :"لأننى اعتُقلت فترة طويلة مع الجماعات الإسلامية بالتالى دونت كل ما عايشته وعاصرته فى داخل المعتقلات والتى تضم طرائف ستلفت انتباه الناس" . كما وصف هذه المذكرات بأنها تشريح داخلى للتيارات الإسلامية لا يملكه أحد غيره ، مستطرداً بأنه لا يعتبر "اعتناقه للمذهب الشيعى ، فى منتصف الثمانينيات ، تحوُّلاً" . فهذه المذكِّرات ترصد طبعًا هذا الانتقال أو التغير فى المنهج والمعتقد والتصور (٣٦) .

واستمراراً لهذا المشهد الفوضوى يقول الوردانى : أنا مكثت فى الوسط الشيعى أكثر من ٢٠ عامًا ، يعنى من ١٩٨٥ حتى الآن ، وهى فترة طويلة تشمل زياراتى لإيران واتصالات ولقاءات مع مراجع وعلماء ومؤسسات . وتعايشت مع الشيعة والحوزات والهيئات العلمية ، ومن ثم هضمت هذا التيار ، وأستطيع الآن أن أكتب رؤية نقدية عنه ، فلا يمكن أن أنقد الآخر دون أن أكون مُلماً به" .

وأضاف : أنا أنتقد السُّنة لكونهم التيار الغالب ، والطرح السائد الذى يمثله أغلبية المسلمين ، وكلامى دعوة إلى تصحيحه ، ولذلك كل كتبى السابقة عن السُّنة لا توجد فيها أى مصادر أو مراجع شيعية ، بل كل المراجع سُنِّية . واعتمدت فى رؤيتى حول تجديد التشيع وانتقاداتى للتيار الشيعى على مراجع شيعية فقط ، وهذا هو منهجى فى الكتابة"[٣٧].

خامساً : فوضى الزعماء بين تصريحات القادة والتنافس على الزعامة !!

لقد تفجرت أزمة حادة بين الشيعة فى مصر بسبب الزعامة والمرجعية والتحالف مع الإخوان المسلمين ، أدت إلى انقسام رموزهم إلى عدة جبهات واتهامات متبادلة بينهم بتلقِّى مساندات من جهات خارجية ، وقد وَصلت الأمور إلى ذروتها عبر تصريحات الدكتور أحمد راسم النفيس [٣٨] ، أحد الرموز الشيعية المصرية ، يتهم فيه محمد الدرينى الأمين العامَّ للمجلس الأعلى لرعاية آل البيت "بالهبوط بالباراشوت" وتنصيب نفسه زعيماً للشيعة والإعلان عن نيته تأسيس حزب للشيعة دون استشارتهم [٣٩] .

وجاء رد الدرينى قوياً إذ صدر بيان من المجلس الأعلى لرعاية آل البيت ينتقد بشدة راسم النفيس وصالح الوردانى [٤٠] .

ولم يقف الأمر عن حد الانتقادات المتبادلة ، بل تطور الأمر إلى حدوث بعض الاشتباكات بالأيدى خلال ندوة مناقشة كتاب الدكتور أحمد راسم النفيس "الشيعة والتشيُّع لأهل البيت" ، بين عدد من أنصاره وعدد من مشايخ الأزهر وجمعية أنصار السُّنة المحمدية بالأيدى ، عقب اتهامات متبادَلة بالوهابية والجعفرية فى الندوة (٤١) .

واستمراراً لمشهد فوضى الزعماء فقد صرح عدد من زعماء الطائفة الشيعية فى مصر أنهم يعتزمون التقدم بطلب إلى لجنة الأحزاب ، لتشكيل أول حزب سياسى شيعى فى مصر يطلق عليه "شيعة مصر" ، وسط توقعات برفض اللجنة للطلب باعتباره حزبًا دينيًا يخالف مواد قانون الأحزاب . وأكد محمد الدرينى وكيل مؤسِّسى حزب "شيعة مصر" أنه سيتقدم بأوراق الحزب إلى لجنة شئون الأحزاب المصرية عقب الانتهاء من صياغة البرنامج ، وبلورة الأفكار فى شكلها النهائى ، مؤكداً أن برنامج الحزب الجديد سوف يتميز عن بقية أطروحات الأحزاب المصرية الموجودة على الساحة ، وأهم ما فيه هو حرية الاعتقاد ، وإعادة بناء الاقتصاد ، وتوازن العلاقات الإقليمية خصوصًا مع إيران ، وأنه يقبل انضمام الأقباط إلى حزبه .

وشدد على أن الحراك السياسى الذى تشهده مصر دفعه إلى التفكير فى هذا الأمر الذى ظل يراود شيعة مصر طوال السنوات الماضية ، لإعلان حزب شرعى يعبر عن مليون ونصف مليون شيعى فى مصر على حد قوله (٤٢) .

ويسود اعتقاد لدى كثيرين من المراقبين السياسيين فى مصر أن مشروع هذا الحزب غرضه دعائى ، لأنه لا فرصة أمامه للاعتراف الرسمى ، وأن الهدف هو إلقاء الضوء على الشيعة فى مصر وقضاياهم الرئيسية (٤٣) .

سادساً : فوضى المؤسسات الدينية : المشاهدة عن بعد !!

اكتفت المؤسَّسات الدينية الرسمية فى مصر بالتأكيد على الأمور المتعارف عليها ، من أنه لا خلافات جوهرية بين السُّنة والشيعة ، وأن الأمر قاصر على بعض الفروع التى لا تؤثر على جوهر الدين ، وكررت هذه المؤسسات الدعوات التقليدية حول التقريب بين المذاهب الدينية وبخاصة بين السُّنة والشيعة (٤٤) .

ومن جهة أخرى أشارت بعض المصادر إلى أن تقريراً للجنة المتابعة بمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف قد حذَّر من تنامى موجة انتشار الفكر الشيعى فى مصر بالآونة الأخيرة ، والذى يعتمد فى ترويجه على الحرب التى خاضها "حزب اللَّه" مع إسرائيل فى جنوبى لبنان فى يوليو ٢٠٠٦ . وأوضح أن الترويج للفكر الشيعى داخل المجتمع المصرى يعتمد على نشر العديد من مطبوعات الشيعة فى مصر وعلى رأسها مجلة "آل البيت" التى طالب المجمع بحظر نشرها وتداولها فى مصر .

وتضمَّن التقرير الإشارة إلى توزيع مئات من المنشورات التى تدعو إلى التشيع وبخاصة داخل جامعتَىْ عين شمس والأزهر ، وحذَّر التقرير من تزايد العلماء المنتمين إلى المذهب السُّنى المتعاطفين مع الشيعة وفكرهم وبخاصة الذى لا يتعرض بالسب والقذف للصحابة الأجلاَّء من أمثال أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان . واتهم شيعة مصر بالسعى لنشر الفكر الشيعى بين المصريين ، وقال إن هناك العديد من المراكز الدينية الشيعة التى تمارس عملها بدعوى التوعية الدينية وتتخذها ستاراً لنشر أفكارها الخاصة بالشيعة بين المصريين . وحث التقرير العلماء على ضرورة التصدى للتغلغل الشيعى ووقف المطبوعات وحظر الكتب التى تروج له فى أوساط المسلمين ، فى وقت تعالت فيه التحذيرات من توغل المد الشيعى بالمنطقة العربية بعد الاحتلال الأمريكى للعراق والمقاومة التى بدأها "حزب اللَّه" أمام إسرائيل .

وكان رئيس جامعة الأزهر الدكتور أحمد الطيب أشار فى "مؤتمر الدوحة لحوار المذاهب الإسلامية" ، إلى توزيع كتب شيعية فى مصر فى إطار الترويج لنشر التشيُّع بين المصريين . وقال إن هذه الكتب "تدعو إلى ترك المذهب السُّنى واتباع المذهب الشيعى" ، ولفت الانتباه إلى "أنها تأتى من خارج مصر وتسىء إلى السُّنة ومكتوبة بأقلام كبار علماء الشيعة ويتناول بعضها عدالة الصحابة" (٤٥) .

سابعًا : فوضى الحروب الورقية !!

شهدت الشهور القليلة الماضية نوعًا آخر من الفوضى ، يمكن تسميته "بفوضى الحروب الورقية" ، والمقصود به هنا تلك الصراعات والاتهامات المتبادَلة بين عدد من الصحف المصرية بالعمالة وتلقِّي تمويل خارجي وبخاصة من إيران ، والعمل على نشر الفكر الشيعي ، هذا في مقابل عدة صحف أخرى تم اتهامها بالعمالة للمملكة العربية السعودية ، وأنها تقوم على قيادة الحملة ضد الصحف المحسوبة على إيران .

وفى إطار هذه الحروب كانت تلك الحرب بين صحيفة "المصريون" وكل من صحيفتَى "الغد" و "الفجر" ، وكان محور الحرب الملحقَين اللذين أصدرتهما الصحيفتان الأخيرتان ، فقد أصدرت صحيفة "الغد" التى يصدرها حزب "الغد" الليبرالى ، ملحقًا خاصًا مع عدد الأربعاء (٣ أكتوبر ٢٠٠٦) بعنوان "أسوأ عشر شخصيات فى الإسلام" ، ووضعت ضمن أسوأ الشخصيات فى الإسلام أم المؤمنين السيدة عائشة رضى اللَّه عنها ، والخليفة الراشد عثمان بن عفان رضى اللَّه عنه ، وكذلك بعض الصحابة المبشرين بالجنة مثل الصحابيَّيْن الجليلين : طلحة بن عبيد اللَّه والزبير رضى اللَّهَ عنهما .

وذكرت "المصريون" أن مصادر فى حزب الغد رفضت الإفصاح عن صاحب هذا الكلام الذى نُشر دون توقيع ، أو أسباب نشره ، خصوصًا

وأنه يسيء إلى الحزب ، وإلى زعيمه المسجون الدكتور أيمن نور ، ومن شأن ما نشر أن يفقده أى تعاطف شعبى معه ، لحساسية الموضوع وخطورته ، كما رفضت المصادر التأكيد على أن الملحق المنشور تم باختراق أمنى لجريدة الحزب .

وأشارت الصحيفة إلى أن الفصيل الآخر المتنازع على حزب الغد والمعادى للدكتور أيمن نور ، متهم بانتمائه الشيعى من خلال أحد قادته وهو رجب هلال حميدة الذى يُعْرَف فى الأوساط السياسية بانتمائه الشيعى ، وكان المستشار مرسى الشيخ ، أحد قادة فصيل حميدة ، قد أعلن استقالته وعودته إلى فصيل "أيمن نور" ، وجاء فى أسباب هذا التحول أنه رفض تحول صحيفة الحزب إلى "بوق" للتطرف الشيعى والاختراق الإيرانى .

وقد أبدى السفير ناجى الغطريفى رئيس الحزب دهشته من نشر هذا الموضوع فى صحيفة الحزب ، وأكد على أنه لا يتصور أن ينشر مثل هذا الكلام فى صحيفة تصدر باسم حزب الغد ، وأنه سوف يحقق بنفسه فى ما حدث لمعرفة خلفياته لأنه عمل يسيء إلى حزب الغد قبل أى أحد آخر .

يأتى هذا وسط ما أسمته "المصريون" بوجود قلق متزايد فى أوساط ثقافية ودينية مصرية من اختراقات شيعية إيرانية لبعض الصحف واتهامات بتلقِّى أموال من إيران وبعض الشخصيات الشيعية

فى الخليج ، وأن هذا الملحق المفاجئ يأتى ليعزز من مصداقية هذه المخاوف ويؤكد على جديتها (٤٦) .

وعادت نفس الصحيفة (المصريون) لتنشر تحقيقًا موسعًا بعنوان "المال الشيعى يخترق الصحافة المصرية" (٤٧) . من بين ما جاء فيه أنه بالتوازى مع تلك الهجمة الإجرامية فى الخارج على نبى الإسلام ، نجد مكملاتها فى الداخل بالحملات الصفوية الشيعية مدفوعة الأجر على أصحاب النبى ﷺ وأمهات المؤمنين رضى اللّه عنهن ، ومسلسل الهجوم على الصحابة وأم المؤمنين عائشة رضى اللّه عنها على وجه الخصوص يتوالى فى حملة منظمة يقودها أعداء الصحابة من متطرفى الشيعة الذين أخذوا على عاتقهم مهمة تشويه صورة من رضى اللّه عنهم ورضوا عنه ، ويبدو أنهم نجحوا فعلاً فى اختراق الصحافة المصرية بالأموال الحرام وخراب الذمم .

ويستعرض الكاتب نماذج ، يعتقد أنها تمثل مظاهر لهذا الاختراق ، منها :

- ملحق صحيفة الغد بعنوان "أسوأ عشر شخصيات فى تاريخ الإسلام من أم المؤمنين عائشة إلى عثمان" نقل فيه تخرصات وأكاذيب الشيعة على أم المؤمنين عائشة رضى اللّه عنها والخليفة الراشد عثمان رضى اللّه عنه ، وبعض الصحابة المبشرين بالجنة كطلحة والزبير وغيرهم ، ونقل كلامًا لغلاة الشيعة المتطرفين .

– ملحق صحيفة الفجر عدد (٢٠٠٦/١٠/٩) والذى تم توزيعه يوم السبت (٢٠٠٦/١٠/٧م) والذى جاء فى ١٦ صفحة تضمنت مقالات عن الشيعة يدور أكثرها على فكرة تشويه صورة مذهب أهل السُّنة فى قالب التنابز بالألقاب ووصفهم بلقب "الوهابية" .

ويتولى كاتب التحقيق عرض ما جاء في عدد من هذه المقالات والرد عليها مستخدمًا عبارات قاسية فى النقد والتحليل ، أبسطها التشويه والتحقير والاستهزاء والتسفيه (٤٨) .

* * *

المرحلة الرابعة : الانتهاء رؤية استشرافية :

لأننا لم نصل إلى مرحلة النهاية ، ولن نصل إليها ، تأتى أهمية الإشارة إلى عدد من الرؤى التى حاولت الاقتراب من قضايا المد الشيعى وانعكاساتها على مستقبل الأوضاع فى المنطقة ، وعلى مجمل العلاقات العربية الإيرانية بصفة عامة ، والإيرانية - المصرية بصفة خاصة ، ومن بين هذه الرؤى :

أولاً : الاتجاهات التصادمية ، ومن بينها :

الأول : يرى أنه ليس على مصر خطورة من أى فكر أو وجود شيعى ، فطوال تاريخها تحت الحكم الفاطمى الذى استمر لثلاثة قرون لم تتغير أو تتأثر ولم يتبقَّ من هذا الفكر إلاَّ بعض فلكلور الموالد ، لكن الفكرة الشيعية فى عمقها وجذورها بعيدة عن الشعب المصرى السُّنى ، والسُّنية عميقة الجذور فى الشعب المصرى الذى يقبل التعددية ، أما الفاطميون والشيعة عمومًا فلهم طابع ثيوقراطى يتبنى الفكرة الواحدة ، وهذا لا يتفق مع المصريين ومع السُّنة ومذاهبها الأربعة ، فصلاح الدين الأيوبى عندما جاء إلى مصر وأعادها إلى السُّنة كان هذا سهلاً ، لأن الباطنية كلها غموض وأسرار ، والشعب المصرى يحب الصراحة والظاهر وليس له طبيعة جدلية وعصبية عشائرية .

أما فى ما يتصل بالأمن القومى المصرى ، فمصر مستقرة على المستوى السُّنِّى ولكى أحدث داخلها مذهبًا جديدًا فهذا مستحيل لأنه يمثل تغييرًا للعقيدة . والمفهوم العَقَدىُّ مثل الإمامة والهجوم على الصحابة غير وارد مطلقًا . وفى فترة من الفترات بعد الثورة الإيرانية ظهرت بعض المجموعات التى أيدت الخمينى ، والبعض منها تطور وكانوا فرادى ولم يكن لهم أى تأثير على أى مستوى .

ومن المنظور النفسى فإن الشخص الذى يتحول من سُنى إلى شيعى تُثار حوله علامات استفهام حول شخصيته النفسية ، فهو غير سوى ومصابٌ بتوتر وقلق وليس له أى قبول شعبى . وإذا كان ثمة خطر من الهلال الشيعى فى تلك المرحلة فإنه خطر على دولة مثل السعودية لا مصر لأن هناك نسبة نحو ٢٠٪ من السكان الشيعة يتركزون فى الدمام والمنطقة الشرقية ، وكذلك الوجود الشيعى فى الخليج كله ، وانتصار أية أقلية يدعم الأقلية المجاورة .

وهذا الوجود الشيعى مستقر وله تواصله العِرْقى والعُقَدى ورياح التأثير الجغرافى لها قوتها وأمريكا تستخدم ورقة الأقليات للضغط على الدول لفرض سياساتها ، فنحن الآن فى عصر صعود الأقليات . أما الخطر أو أى مستقبل للشيعة فى مصر فلا أرى له تأثيرًا ، ومسألة الصوفية فى مصر موجودة ومتعمقة فى السياق السُّنى ، والسياق الصوفى لا يطرح مطلقًا عقيدة جديدة (٤٩) .

الثاني : يرى أن الحديث عن الهلال الشيعي لا يمثل أي خطر على العالم الإسلامي ، كما أنه ليس للفكر الشيعي في مصر أي مستقبل ، وهو يرى أنه لا توجد خطورة من كلا من المذهبين السُّني والشيعي على الآخر ، واحتج بأن في الإسلام أكثر من ٧٠ فرقة ولم تشكِّل خطورة على هذا الدين (٥٠) .

الثالث : يرى أن مصر طوال تاريخها متسامحة ومعتدلة ولم تتبع أي تشيُّع لأن الفكرة الشيعية غير صحيحة في جوهرها .. والزيدية والإثنا عشرية جاء منشؤهما نتيجة النصوص . ومصر لها دور حضاري وتاريخي ، أما التشيع فتاريخه سيئ ، وكان الشيعة دائمًا يتحالفون مع أعداء الأمة ، وحزب اللّه اللبناني حاول خلال السنوات الماضية غسل هذه المسألة بمواقفه ضد الصهاينة ، لكنه في المسألة العراقية لم يكن موفَّقًا ، وكان طرحه مغايرًا لمواقف الأمة ، وقد سحب هذا من رصيده كثيرًا .

ويضيف : إننا مع حزب اللّه ضد أمريكا ومع الثورة الإيرانية ضد أمريكا ، لكن مصالحنا الإسلامية والقومية أكبر من هذا وذاك . وقد كان موقف مصر من العدوان الأمريكي على أفغانستان أفضل من الجارة إيران ، فولاؤنا أولاً يجب أن يتحدد وفقًا لمصالح الأمة الإسلامية ، وموقفنا يجب أن يتحدد وفق تحدِّيات العالم الإسلامي ، لكن الواقع القريب يؤكِّد دائمًا أن الخيارات الشيعية كانت طائفية ، وأن مشروع الهلال الشيعي سيخسر كثيرًا إذا راهن على مصالحه الطائفية في تلك

المرحلة ، والغباء التاريخي والاستراتيجي الشيعي سيجعلهم يخسرون المسلمين والعرب ، وبعد هذه الخسارة لن تتركهم الولايات المتحدة (٥١) .

الرابع : يرصد عدة مواقف يخلص من خلالها إلى أنه لا يمكن أن يكون للفكر الشيعي أى عمق ، بل ولا أى وجود فى مصر ، ومن ذلك :

- **طبيعة مصر السُّنية** : مصر منذ أن فتحها عمرو بن العاص وهى سُنية فكراً وحركة وما حدث فى العهد الفاطمى كان طارئًا غير ذى أساس ، والصبغة الشيعية التى حدثت للمجتمع المصرى كانت صبغة للدولة السياسية فقط بما فيها من قادة وقضاة وشيوخ لهم علاقة بالسلطة ، ولذلك فحينما جاء صلاح الدين الأيوبى أعاد الأمر إلى وضعه الطبيعى ، وأعاد إلى مصر هويتها السُّنية . وصلاح الدين لم يحارب الوجود الشيعى ويرتكب المذابح ضده ويُبِد القرى والمدن الشيعية - كما يزعم الشيعة - وإنما كل جهد صلاح الدين كان جهداً ثقافياً بحتًا لا عسكريًا أو استئصاليًا ، وإلا لحدث رد فعل ومقاومة من الفكر الشيعى والمؤمنين به ، ولبقى لهذا الفكر بريق إلى يومنا هذا ، ولكن أن يُنْسَى الفكر الشيعى تمامًا ويصبح كأن لم يكن فهذا يدل على أنه كان طارئًا وغير متناغم من النفسية والشخصية المصرية .

ومصر دائمًا هى قائدة العالم السُّنى فكرًا وحركة : فعلى مستوى الحركة فهى التى قادت العالم الإسلامى فى حطين وعين جالوت ضد الصليبيين والمغول ، وهى التى قادته فى العصر الحديث منذ ظهور حسن البنا وحتى وقتنا الراهن .

وعلى المستوى الفكرى كان الأزهر هو مدرسة الفكر السُّنى التى أضاءت للعالم الإسلامى . ولا يمكن فى هذا السياق أن ننسى ريادة جمال الدين الأفغانى ، الذى انطلق من مصر ، ومعه محمد عبده ، وبعدهما رشيد رضا ، الشامى الذى انطلق من مصر - أيضًا - فى قيادة الفكر السُّنى للتحرر من التبعية والاستعمار ، وفى الانطلاق للانعتاق من حالة الجمود والتخلف .

- **قيام الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩ بقيادة الخمينى** وما مثله ذلك من حالة إلهام للضمير الحركى الإسلامى فى مختلف الدول العربية والإسلامية ، وما مثله من نموذج يمكن أن يُحتذى ، فقد انبهر الشباب الإسلامى فى مصر ، مثلما انبهر فى باقى الدول العربية والإسلامية ، بفكر الثورة الإيرانية فى جانبه السياسى وفى تعاطيه مع الغطرسة الأمريكية ، وقبل ذلك خلْعه لنظام سياسى فاسد وعميل ، ولنجاحه فى إيجاد نظام جديد يُطَبِّق الشريعة ويتمنى الشباب فى مصر والعالم الإسلامى أن يطبَّق فى بلادهم .

وقد رفعت الثورة الشعارات الإسلامية الجامعة وغير المذهبية لتجذب إليها الشباب السُّنى ، ولكن مع مرور الوقت انكشف القناع وظهر الوجه المذهبى ، وكان لسقوط نظام صدام حسين العامل الكبر فى كشف الطائفية والمذهبية الإيرانية ، هذا كله أذهب الوهج والانبهار بالثورة الإيرانية ودعايتها السياسية ، وحل محل ذلك حالة من الاستياء الشديد لمجمل السياسات الإيرانية ، وسياسات الشيعة فى العراق ، من تحالف مع الاحتلال الأمريكى ضد سُنَّة العراق .

– **الانبهار بحزب اللّه اللبنانى وموقفه ضد إسرائيل** : فهذا الدور أكسب حزب اللّه شعبية كبيرة فى كل أنحاء العالم الإسلامى ، ولكنه يخسر الآن هذه الشعبية بسبب تأييده المطلق للموقف الإيرانى ولموقف شيعة العراق ضد السُّنة وتوافقه مع المشروع الأمريكى وتغطيته للاحتلال الأمريكى . فهذا أكد أنه يتحرك من منظور طائفى ومذهبى ضيق ، فى إطار المشروع الشيعى العامٍّ فى المنطقة بقيادة إيران (٥٢) .

ثانياً : الاتجاهات التعاونية :

وتقوم على أن هناك جذوراً تاريخية وحضارية ودينية عميقة تربط الشعبين المصرى والإيرانى ، فالحضارتان الفرعونية والفارسية من أقدم الحضارات التى عرفتها البشرية ، والتى وثَّقها الإسلام واللغة العربية

بالمزيد من الأواصر بِعُرًى أبدية لا تقبل الانفصام ، واللغة العربية منتشرة فى إيران بصورة كبيرة ، وأكثر من ٤٠٪ من اللغة الفارسية كلمات عربية معروفة ودارجة فى لغتنا الفصحى والعامية .

وأن مصر وإيران تُعتبران أهم وأكبر دولتين فى المنطقة ويجمعهما العديد من عوامل التشابه والاتفاق والأهداف والقواسم المشتركة التى تدفع إلى المزيد من التقارب والتعاون ، وتمثلان قوة استراتيجية مهمة تملك تأثيراً كبيراً على قضايا الأمن والاستقرار بالمنطقة فضلاً عما تملكه كل منهما من قوة عسكرية وسكانية وعلمية واقتصادية كبيرة ، وثقافية رفيعة ، مما يؤكِّد أهمية التنسيق المصرى - الإيرانى المتواصل لمواجهة الأخطار الخارجية ، والتى من صالحها دائمًا إحداث الفتنة والتشكيك والتباعد بين مصر وإيران ، وضد المصلحة المشتركة للشعبين والدولتين الإسلاميتين الكبيرتين .

وأنه إذا كانت فى بعض الأمور خلافات فى الرأى ، فعلى الشعوب أن تبتعد عن الأمور الخلافية ، خصوصاً السياسية ، وتترك الحوار فى شأنها لرجال السياسة ، وأن تسعى الشعوب إلى تكثيف التعاون بينها فى المجالات الاتفاقية ، بما يعود بالخير المشترك على كلا الشعبين والدولتين .

فمصر من أقرب الشعوب العربية إلى الشعب الإيرانى ، كما أن الكثيرين من الإيرانيين يتمنَّون زيارة مصر والأضرحة والمساجد الإسلامية التى يقدِّسها الشعب الإيرانى ، وفى مقدمتها مسجد الإمام

الحسين ، وضريحا السيدة زينب والسيدة نفيسة ، والتى يتجاوز عددها أربعين أثرًا دينيًا يقدسها الشعب الإيرانى ويقدر الخبراء عدد السياح الإيرانيين لمصر فى السنة الأولى بما لا يقل عن مليون سائح ، ويتزايد ويتضاعف العدد باستمرار ، مما يحقق دخلاً يتجاوز خمسة مليارات دولار سنويًا (٥٢) .

ثالثًا : أنصار نظرية المؤامرة :

وفق المقولات التى تقوم عليها نظرية المؤامرة فى المنطقة العربية ، فإن الولايات المتحدة الأمريكية تقف وراء معظم - إن لم يكن كل - الأزمات والاضطرابات التى تشهدها دول المنطقة ، وأنها تعتمد فى ذلك على العديد من الآليات ، من بينها نشر الصراعات الطائفية ، الدينية منها والعرقية ، وبعد أن أشهرت سلاح الأقليات فى مرحلة من المراحل ، اتجهت الآن لاستخدام سلاح المذهبية ، فى أخطر صورها فى العالم الإسلامى ، فى انقسامه الأشهر بين السُّنة والشيعة ، ونجحت فى ذلك حتى الآن ، بدرجة كبيرة فى العراق ولبنان ، وسعيًا نحو توسيع الدائرة ، فإنها تكثف الآن جهودها ، لخلق جبهتين متصارعتين ، بين الدول العربية ، ذات الأغلبية السنية ، وإيران ذات الأغلبية الشيعية ، وذلك على خلفية صراعها مع إيران حول البرنامج النووى الإيرانى .

وقد كشف الكاتب الأمريكي سيمور هيرش عن سعى الإدارة الأمريكية لتوسيع "النزاع الطائفى" بين السُّنة والشيعة فى الشرق الأوسط بهدف الحد من نفوذ إيران ، فى ما يعرف باستراتيجية "تغيير المسار". وقال : تعتمد هذه الاستراتيجية بالنسبة إلى الحالة العراقية على تراجع تأييد الولايات المتحدة المطلق للشيعة الذى كان واضحًا منذ سقوط نظام صدام حسين عام ٢٠٠٣ ، وبالنسبة إلى الحالة اللبنانية على تشكيل جبهة سنية إقليمية ضد حزب اللّه الشيعى .

وأضاف : إن إدارة الرئيس جورج بوش قررت إعادة تشكيل أولوياتها فى الشرق الأوسط من أجل القضاء على إيران ذات الأغلبية الشيعية . ففى لبنان تعاونت الإدارة مع الحكومة السعودية السنية فى عمليات سرية تهدف إلى إضعاف حزب اللّه الشيعى المدعوم من إيران ، كما شاركت فى خطوات سرية مشتركة ضد إيران وحليفتها سوريا ، الأمر الذى كان له أثر كبير فى دعم الجماعات السُّنية المتطرفة المعادية لأمريكا ، والمتعاطفة مع تنظيم القاعدة . وقبل غزو العراق فى مارس ٢٠٠٣ قال مسئولون أمريكيون : "إن حكومة شيعية هناك قد تحدث توازنًا لصالح الأمريكيين ضد المتطرفين السُّنة" ، متجاهلين تحذيرات الاستخبارات بشأن الصلات التى تربط زعماء الشيعة فى العراق وإيران" (٥٤) .

ومن دعم الشيعة فى السنوات الأولى من احتلالها العراق ، تحولت الولايات المتحدة إلى دعم السُّنة ، وعملت على توريط عدد من الدول العربية ، بدعوى دعم السُّنة ضد المجازر التى يرتكبها الشيعة ، وهو ما نجحت بالفعل فى تحقيقه يؤكد ذلك حالة الاستنفار العامِّ التى تعيشها معظم النظم السياسية العربية ضد إيران .

وفى إطار هذه الاتجاهات يمكن القول إن الملف الشيعى - السُّنى فى العالمين العربى والإسلامى قد انفتح ، وإن الأمر يتطلب مبادرة جادَّة للحوار والتواصل بين طرفَى الملف (العرب وإيران) وصولاً إلى تسوية حول القضايا العالقة بين الطرفين ، خصوصًا وشيطان الفتنة حاضر دائمًا !!

* * *

الهوامش

(١) مفكرة الإسلام : أضواء على الخطة السرية لتصدير الثورة الشيعية ، الخميس ٥ صفر ١٤٢٣هـ ١٨ أبريل ٢٠٠٢ http://www.islammemo. com/news/Asia/18 4 02/7.htm .

(٢) يقول الرئيس خاتمي في إحدى رسائله : "مصلحة النظام كما أراها وأفهمها أنا ، هي في المواجهة مع أشكال الجمود والتحجر والرجعية والتخلف ، والتي أعتبرها من أكبر آفات الحكومة والنظام الديني المتصدي لشئون السلطة ، وهو ما كان يشغل ذهن الإمام المبارك لا سيما في السنوات الأخيرة من عمره" .

(٣) مفكرة الإسلام : أضواء على الخطة السرية لتصدير الثورة الشيعية ، الخميس ٥ صفر ١٤٢٣هـ ١٨ أبريل ٢٠٠٢ http:// www.islammemo.com/news/ Asia/18 4 02/7.htm .

(٤) ومن بين ما جاء في الكتاب : "نحن لا نريد أن نشهر سيفًا أو بندقية ونحمل على الآخرين ، بل نتطلع إلى تصدير ثورتنا الثقافية ، نتطلع إلى إيجاد مصالحة بين الشعوب وحكوماتها ، نتطلع إلى تصدير الثورة عن طريق الإعلام والتبليغ ، فهدفنا أن نعرِّف الإسلام على حقيقته في حدود قدراتنا الإعلامية وعن طريق ما بحوزتنا من وسائل الإعلام المسموعة والمرئية والمقروءة ، وكذلك من خلال الوفود التي تُبْعَث إلى الخارج" .

(٥) موقع مفكرة الإسلام : أضواء على الخطة السرية لتصدير الثورة الشيعية ، الخميس ٥ صفر ١٤٢٣هـ ١٨ أبريل ٢٠٠٢ http://www.islammemo. com/news/Asia/ 18 4 02/7.htm.

(٦) مفكرة الإسلام : أضواء على الخطة السرية لتصدير الثورة الشيعية ، الخميس ٥ صفر ١٤٢٣هـ ١٨ أبريل ٢٠٠٢ http://www.islammemo. com/news/Asia/18 4 .02/7.htm

(٧) رضوان السيد ، احتمالات الصراع الشِّيعي - السُّني في المنطقة العربية ، الأهرام المصرية ، عدد ٢٠٠٦/٩/٩ .

(٨) كان من أبرز هذه التصريحات :

- تصريحات الملك الأردني عبد الله الثاني في أثناء زيارته للولايات المتحدة (ديسمبر عام ٢٠٠٤) ، عندما حذر في تصريح نشرته الواشنطن بوست (٢٠٠٤/١٢/٨) من وصول حكومة موالية لإيران إلى السلطة في بغداد تعمل بالتعاون مع طهران ودمشق لإنشاء هلال يخضع للنفوذ الشيعي يمتد إلى لبنان ويخلُّ بالتوازن القائم مع السُّنة ، مضيفًا أن إيران تجد مصلحتها في إقامة جمهورية إسلامية في العراق ، وهي تموِّل نشاطات خيرية عدة في هذا البلد لتحسين صورتها ، وشجعت أكثر من مليون عراقي على عبور الحدود للتصويت في الانتخابات العامة وفقًا لرغبتها .

- تصريحات وزير الخارجية السعودي ، في كلمته التي ألقاها في نيويورك أمام مجلس العلاقات الخارجية (سبتمبر ٢٠٠٥) ، حيث قال : "إن السياسة الأمريكية في العراق تؤدي عمليًا إلى تقسيم هذا البلد ، وتسليمه لإيران" . وأضاف : "لقد خضنا معًا حربًا لإبعاد إيران عن العراق بعد إخراج العراق من الكويت . والآن فإننا نسلم البلاد كلها لإيران دون مبرر . إن الإيرانيين يذهبون إلى المناطق التي تؤمنها القوات الأمريكية ، ويدفعون أموالاً وينصِّبون حلفاءهم ، وينشئون قوات للشرطة ، ويسلحون الميليشيات هناك ، ويحتمون في أثناء قيامهم بكل هذا بالقوات الأمريكية والبريطانية" .

- تصريحات الرئيس مبارك في حواره مع قناة العربية ٢٠٠٦/٤/٨ حول التأثير الإيراني على الشيعة العرب .

(٩) من بين ما قاله حسن نصر الله :" أنا لا أدعو المملكة العربية السعودية أو مصر أو جامعة الدول العربية فقط إلى التدخل بين لبنان وسوريا ، أنا أدعوهم إلى التدخل

بين اللبنانيين ، لأنه إذا تُرك اللبنانيون لأنفسهم لن يتمكنوا من بناء بلدهم بالعقلية السائدة حاليًا . عقلية العزل والإلغاء والشطب" . (حوار أجرى معه ونشرته صحيفة الحياة اللندنية ، على حلقتين ، عددى ١٧ و ١٨ يناير ٢٠٠٦ .

(١٠) المجموعة الدولية لإدارة الأزمات ، المسألة الشيعية فى المملكة العربية السعودية ، ملخص تنفيذى ٢٠٠٥/٩/١٩ ،

. http://www.crisisgroup. org/home/index.cfm?id=3678&1=6

(١١) وُلِدَتْ في شهر شعبان من السنة الخامسة الهجرية ، ودخلت مصر فى أواخر شهر رجب سنة ٦١ هجرية ، وتوفيت فى منتصف شهر رجب سنة ٦٢ هجرية ، ويتم الاحتفال بمولدها يوم الثلاثاء الأخير من شهر رجب ، وذلك لأن هذا التوقيت يوائم دخولها مصر ، بل ووفاتها .

(١٢) مثل موسوعة المفاهيم الإسلامية العامة الصادرة عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، والجزء الثانى من كتاب (بيان للناس) الصادر عن الأزهر الشريف ، و "فجر الإسلام" للمفكر أحمد أمين ، و "تاريخ المذاهب الإسلامية" للإمام محمد أبو زهرة ، و "إسلام بلا مذاهب" للدكتور مصطفى الشكعة ، و "التيارات الإسلامية المعاصرة" للدكتور محمد عمارة .

(١٣) مثل : الجزء الثالث من كتاب "ضحى الإسلام" للمفكر أحمد أمين ، و "نظرية الإمامة عند الشيعة الإثنا عشرية" للدكتور أحمد محمود صبحى ، و "نشأة التفكير الفلسفى فى الإسلام " للدكتور على سامى النشار ، و "التفكير الفلسفى فى الإسلام" للدكتور عبد الحليم محمود ، و "النظريات السياسية الإسلامية" للدكتور ضياء الدين الريس ، و"الصلة بين التصوف والتشيع" للدكتور كامل مصطفى الشيبى .

(١٤) منها : "أصل الشيعة وأصولها" للشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء ، و"الشيعة والتصحيح" للعلاَّمة الدكتور محسن موسى الموسوى ، و "الشيعة فى مصر" للأستاذ صالح الوردانى .

(١٥) وفق تعبير الشيخ محمد المدنى ، الذى تولى منصب السكرتير العامٍّ لجماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية ، وهو ما أكده الشيخ محمد تقى القمى ، أحد أعلام الشيعة فى التقريب .

(١٦) من علماء الأزهر ورجاله البارزين الذين ارتبطوا بتلك الدعوة الشيخ محمود شلتوت ، والشيخ عبد المجيد سليم ، والشيخ أحمد الشرباصي ، ومن علماء الشيعة الشيخ محمد تقي القمي ، صاحب الدعوة وراعيها في مصر ، والشيخ محمد جواد مغنية إمام القضاء الشرعي الجعفري في لبنان ، والشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء من علماء العراق ، والسيد طالب الحسيني الرفاعي مؤسس جمعية آل البيت في مصر ، وهو من علماء العراق ، وضمّت الجماعة مشايخ من المذاهب السُّنية الأربعة ، بالإضافة إلى الإمامية والزيدية .

(١٧) تم إغلاق جمعية آل البيت بقرار إداري من الحكومة ، وضم المسجد التابع لها لمساجد الحكومة ، وربما كان الوجود غير المصري بالجمعية أحد أسباب هذا الأمر ، وجاء في قرار الوقف أن الجمعية تمثل خطورة على عقائد الناس ووحدة صفوفهم ببث أفكار غريبة تخالف الدين الإسلامي وتؤيد الفكر الشيعي ، وهو ما يعني أن الجمعية ارتكبت المخالفة التي تبيح حلها حسب قانون الجمعيات والمؤسسات الخاصة الذي ينص على أنه يجوز حل الجمعية في حالة إذا ما ارتكبت مخالفة جسيمة للقانون ، أو إذا خالفت النظام العامَّ والآداب . ومع بداية عام ١٩٨١ بدأ القضاء ينظر الدعوى المرفوعة من القائمين بأمر الجمعية ضد الحكومة ، والتي يطالبون فيها بعودة الجمعية ، ووقف تنفيذ قرار الحل ، وأصدر القضاء حكمه في ٢٩ ديسمبر ١٩٨١ بوقف قرار حل جمعية آل البيت لعدم وجود أسباب قانونية كافية ، إلا أن الحكومة المصرية لم تنفذ الحكم إلى الآن (مارس ٢٠٠٧) .

(١٨) اعتُقل الدريني في مارس ٢٠٠٥ بتهمة التواصل مع الزعيم الشيعي مقتدى الصدر .

(١٩) هبة ربيع ، قصة الشيعة في مصر ، موقع إسلام أون لاين ، ٢٠٠٧/٢/٢٦ :

http://www.islamonline.net/servlet/Satellite?c=ArticleA-C&cid=1172500533048&pa genme=Zone- Arabic- ArtCulture%2FACALayout

(٢٠) وكيل المؤسسين قدر عددهم بمليون ونصف : شيعة مصر يطالبون تأسيس حزب سياسي ، والإخوان يؤيدونهم ، قدس برس ، الإثنين ١٩ سبتمبر ٢٠٠٥م ، ١٥ شعبان ١٤٢٦هـ .

(٢١) اعتبر البيان كذلك أن هذا "تصريح أساء إلى ملايين الشيعة فى العالم ، وخالٍ من الموضوعية والمصداقية التى أثبتها أتباع أهل البيت عمومًا من خلال ولائهم ومواقفهم الوطنية" .

وتابع : "الشيعة فى العراق يشكلون بحسب اعتراف السيد مبارك ٦٥٪ من الشعب العراقى ، وقد أثبتوا عبر التاريخ وفى المنعطفات الحادَّة التى مرَّ بها العراق دورهم الريادى فى تشكيل الدولة العراقية ومقارعة الاحتلال البريطانى وغيره عبر مختلف المراحل ومواجهة الديكتاتوريات التى توالت على العراق والتى أخلَّت بالوحدة الوطنية ، ودفعوا ثمنها باهظًا من الدماء الذكية والأرواح الطاهرة وخيرة رجالهم وعلمائهم وكوادرهم دفاعًا عن العراق ووحدته واستقلاله وسلامة أراضيه" .

ودعا البيان "الشعب العربى فى مصر وسائر الأقطار العربية إلى أن يستنكروا هذا التصريح" الذى أعتبره "لم يحترم مشاعر مئات الملايين من الشيعة ، حيث جاءت تصريحات الرئيس المصرى ضارة بدلاً من أن تكون بنَّاءة ومُسْهِمَة فى مواجهة التحديات التى تواجه العراق وشعبه والأمة العربية ، ومحرضة على إثارة أجواء الفرقة والتمزق" .

(٢٢) أضاف البيان : إن الساحة العراقية بما تشهد من أحداث عنف مرعبة تهدد بخطر حرب طائفية مدمِّرة ، فهى فى أمسِّ الحاجة إلى دور عربى منقذ لمساعدة الشعب العراقى على تجاوز المحنة ، والتمسك بوحدته ومقاومة الاحتلال ، وجمهورية مصر العربية بثقلها العربى والدولى واحتضانها مقر جامعة الدول العربية يُتوقع منها دور كبير على هذا الصعيد . إننا نأمل أن يكون التصريح هفوة غير مقصودة وأن تمارس مصر دورها المأمول فى جمع الشمل وحماية المنطقة العربية من الأخطار ، كما نؤكد أن ولاء المواطنين الشيعة بالدرجة الأولى والثانية هو لأوطانهم وشعوبهم وهم جزء لا يتجزأ منها" .

(٢٣) وكالة الأنباء الكويتية ، كونا ، ٢٠٠٦/٤/١١ .

(٢٤) أضاف فضل اللَّه : إننا نسجل على الرئيس المصرى افتقاره إلى الدقة - ربما من خلال عدم وصول التقارير الدقيقة إليه - فى رصد حركة المسلمين الشيعة ، وخصوصاً الشيعة العرب ، فى إخلاصهم لأوطانهم ، وذودهم عنها ، وتقديم الغالى والنفيس فى سبيل قضايا الأمة الكبرى ، وفى طليعتها القضية الفلسطينية التى ظلت حاضرة

فى حركتهم السياسية والجهادية ، وفى ثقافتهم التعبوية بالطريقة الثابتة والأصيلة ، فى الوقت الذى تتكّر فيه الكثيرون لهذه القضية ، بل وعملوا على التحرر منها ، بينما وقفت الجمهورية الإسلامية فى إيران لتدعم الشعب الفلسطينى وانتفاضة بكل ما تستطيع .

قال : إن علاقة المسلمين الشيعة بإيران ، سواء فى جانبها الثقافى أو فى جانبها السياسى ، تنطلق من كونها تمثل قاعدة أصيلة فى مواجهة الاستكبار العالمى ، وفى دعمها للقضايا العربية ، ينبغى أن لا تثير تعقيدات أحد ، وخصوصاً فى الساحة العربية ، كما أن علاقات المسلمين السُّنة بمصر ينبغى أن لا تثير أى تعقيدات ، بل إن المطلوب هو أن تنطلق مصر ببعدها الإفريقى والإسلامى ، لترفد إيران ببعدها الآسيوى والإسلامى ، لتشكل الدولتان العماد الأساسى لتعزيز الوحدة الإسلامية والحفاظ على الكيان الإسلامى كله .

وأضاف : إن الخطورة ، كل الخطورة ، تكمن فى أن يبدأ الخطاب العربى الرسمى أو غير الرسمى فى التركيز على الجانب الطائفى أو المذهبى ، والانسياق وراء الأوضاع التى يعمل المحتل الأمريكى لتعزيزها على حساب الواقع الإسلامى ، وعلى حساب شعوب المنطقة وسلامها وقضاياها الكبرى ، وأن نتناسى الجرائم الكبرى التى ترتكبها إسرائيل يومياً ضد الفلسطينيين ، أو نتعامى عن المخطط الكبير لإسقاط الأمة كلها واحتوائها ، وندخل فى حسابات الوهم التى يبحث فيها هذا الفريق أو ذاك عن النصر الذاتى بعيداً عن قضايا الأمة ومصيرها .

(٢٥) أحمد حسن بكر وعمر القليوبى ، ردود عراقية عنيفة على تصريحات مبارك وتلميحات لأصابع أمريكية ، المصريون ، ٢٠٠٦/٤/٩

(٢٦) الدكتور محمد السعيد عبد المؤمن .

(٢٧) الدكتور عبد اللّه الأشعل .

(٢٨) كان القرضاوى قد أكّد لصحيفة "الوفد" المصرية (عدد ٢٠٠٦/٧/٢٧) على أن المقاومة اللبنانية جهاد شرعى ، وتمثل أشرف مقاومة على الأرض مع شقيقتها بفلسطين ، وأن الشيعة جزء من الأمة الإسلامية و "واجب" على كل مسلم نصرة هذه المقاومة ضد العدو الإسرائيلى .

(٢٩) صبحي مجاهد ، القرضاوي – الاستبداد السياسي يهدد مستقبل الأمة ، إسلام أون لاين . نت ، ٢٠٠٦/٩/١ -http://www.islamonline.net/Arabic/news/2006 . 09/01/04.shtml

(٣٠) أعتبر "نصر الله" متعصبًا لمذهبه ولكنه أفضل من غيره : القرضاوي يحذر من اختراق شيعي لمصر عبر بوابة «المتصوفة» ، العربية نت ، السبت ٢ سبتمبر ٢٠٠٦م ، ١٣ شعبان ١٤٢٧هـ.

http://www.alarabiya.net/Articles/2006/09/02/27111. htm

(٣١) اختتم الدكتور العوا بيانه بالتحذير من فتنة الشقاق بين السُّنة والشيعة قائلاً : إن الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين ، الذي يضم العلماء من المذاهب جميعًا ، ولرئيسه نواب ثلاثة من الشيعة والسُّنة والإباضية ، يؤكد على موقفه الثابت من ضرورة وأد أي فتنة بين المسلمين في مهدها ، ومن ضرورة التقريب بين أهل المذاهب الإسلامية وعلمائها وأتباعها ، ومن ضرورة التعاون بين المسلمين كافة أن يتحدوا في ما اتفقوا عليه وأن يعذر بعضهم بعضًا في ما اختلفوا فيه .

غير أن بيان الدكتور العوا خلا من الإشارة إلى اتهام القرضاوي لقيادات شيعية كبيرة بأنها تسب أصحاب النبيﷺ وتلعن كبار الصحابة ، وكذلك ما نسبه إليهم من أن بعضهم يعتبر القرآن الكريم ناقصًا وأن مصحف فاطمة كان ضعف الموجود الآن (راجع : الجدل يتزايد حول تصريحات القرضاوي في نقابة الصحفيين : العوا يعتذر عن انتقادات القرضاوي للشيعة ويعتبرها "فلتة لسان") ، موقع "المصريون الإلكتروني" ، عدد ٢٠٠٦/٩/٤ .

(٣٢) حول عدم صدور البيان عن الدكتور القرضاوي قال الدكتور العوا : البيان صدر عني لا عن القرضاوي ، لأنني أنا المتحدث الرسمي باسم الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين طبقًا لنظامه الذي يخوِّل ذلك للأمين العامِّ ، وبالتالي صدر هذا الإيضاح من الاتحاد عن كلام قاله رئيسه القرضاوي ، وأثار لبسًا عند بعض الناس ، فأراد أن يوضح الصورة التي لا يمكن أن يوضحها رئيسه حسب النظام المعمول به لأنه ليس متحدثًا باسم الاتحاد .

(٣٣) فراج إسماعيل ، العوا : القرضاوى وافق دون تحفظ على بيان توضيح لكلامه – جدل جديد بشأن الشيعة ومتصوفة مصر ونصر الله ومصحف فاطمة ، العربية نت ، السبت ٢ سبتمبر ٢٠٠٦، ١٣ شعبان ١٤٢٧هـ .

(٣٤) فراج إسماعيل ، العوا : القرضاوى وافق دون تحفظ على بيان توضيح لكلامه – جدل جديد بشأن الشيعة ومتصوفة مصر ونصر الله ومصحف فاطمة ، العربية نت ، السبت ٢ سبتمبر ٢٠٠٦، ١٣ شعبان ١٤٢٧هـ .

(٣٥) صالح الوردانى من مواليد أحد الأحياء الشعبية بالقاهرة ١٩٥٢ ، صدر له أكثر من عشرين كتاباً ، منها : "الحركة الإسلامية فى مصر .. الواقع والتحديات" ، "مذكرات معتقل سياسى" ، "الشيعة فى مصر" الذى عرض من خلاله تاريخ الشيعة فى مصر وقارن بين عقائدهم فى هذا البلد وعقائد السُّنة ، وكذلك كتاب "مصر وإيران .. صراع الأمن والسياسة ، إسلام السُّنة أم إسلام الشيعة" الذى صادره الأزهر بعد صدوره ، وموسوعة "آل البيت التى صدرت منها سبعة أجزاء" ، و "تثبيت الإمامة" ، و"زواج المتعة حلال عند أهل السُّنة" وصادره الأزهر أيضًا واستُدعى بسببه للمثول أمام المحكمة ، و "الخدعة" ، و"رحلتى من السُّنة إلى الشيعة" ، و"دفاع عن الرسول" ، و"مدافع الفقهاء" ، و"التطرف بين فقهاء السلف وفقهاء الخلف» .

(٣٦) عن الدور المذهبى فى خطابه الجديد ، قال : أدعو إلى منهج جديد ينبع من الإسلام بذاتيته ومقوماته الثابتة التى هى مقومات الأديان أساسًا ، وتنبع من القرآن الكريم ، وقال : "المفروض أن يكون هناك إسلام بلا مذاهب ، لكن للأسف كل من يدعونا للإسلام اليوم هم المذهبيون (المنتمون إلى مذهب معين) حتى أولئك الذين يدَّعون أنهم غير مذهبيين وأولهم "التيار السلفى" الذى يدعو إلى "اللامذهبية" ، ورغم ذلك يتبنى منهجًا محدداً من مناهج المسلمين وهو منهج الحنابلة . وأوضح أن "السلف أجنحة كثيرة ، ليست على اتجاه أو منهج أو مذهب واحد" .

وأضاف : أنا لم أعد شيعيًا بمفهوم الشيعة طبعًا ، نعم .. أنا الآن أرفض المرجعيات والطرح السائد الذى يطرحه الشيعة ، وانتقد المراجع والمؤسَّسات والجمهورية الإسلامية .. كل هذا أنا كفرت به حاليًا . كما أنتقد الأخماس ، فأنا أرى أن الأخماس تستثمر من قبل المراجع أو بمعنى أدق من قبل وكلائهم ، فأنا أعتقد أن المراجع الشيعية فى عزلة عن الجمهور وعن الواقع ، والذين يتحركون باسمهم ويعملون

حلقة الوصل هم الوكلاء ، وهم للأسف يحتالون وينصبون باسم المراجع ، ويكذبون عليهم وعلى الجمهور .

وقال : الوكلاء ينفقون أموال الأخماس غالبًا فى دائرة الدعاية إلى المرجع ، وليس لخدمة مذهب آل البيت أو التشيع ، وقد لفت نظرى هذا الإنفاق السفيه على أمور لا تخدم الإسلام والمسلمين وإنما تخدم أشخاصًا ، ومذاهب المراجع . وأعتقد أن "آل البيت" هم الصفوة التى هى ركيزة الإسلام بعد القرآن ، ولكنى أرى للأسف الشديد أن السُّنة والشيعة لم يحسنوا التعبير عنهم ، وأن كليهما أساء إليهم .

وقال : "أنا أنتقد الشيعة والسُّنة أيضًا . لقد أصبحت حاليًا خارج الساحتين السُّنية والشيعية ، ولم أعد أعترف بأى منهما . أنا أعترف فقط بالقرآن الكريم وآل البيت ، مع التأكيد على أن هناك فرقًا بين الشيعة والتشيُّع ، كما هو الفرق بين الإسلام والمسلمين ... فالتشيُّع كمنهج هو منهج حق وتعبير حقيقى عن الدين ، لكن الشيعة شيء آخر .. هم جمهور ومجتمع يملك كل المقومات والسلبيات والتناقضات السائدة فى أى مجتمع ، والصراع السائد بين السُّنة والشيعة هو صراع تناقضات قائم على تناقضات الشيعة وليس تناقضات التشيع ، فالمذاهب تاريخيًا خضعت للسياسة وألاعيبها والحكام منذ بداية نشأتها إلى الآن . الجماعات الإسلامية نفسها هى عبارة عن مذاهب ، وقد انتشرت هذه الجماعات بواسطة السياسة التى كانت وراء نشأتها ، وأنا عايشت ذلك وعاصرته وشاهد عليه .

(٣٧) فراج إسماعيل : انتقد المراجع والأخماس والحوازات والجمهورية الإسلامية : مفكر التشيع بمصر يفجر مفاجأة ويعلن تركه المذهب الشيعى ، العربية نت ، الثلاثاء ٣١ أكتوبر ٢٠٠٦م ، ٩ شوال ١٤٢٧هـ .

http://www.alarbiya.net/Articlep.aspx?P=28702

(٣٨) الدكتور "أحمد راسم النفيس" الأستاذ المساعد بكلية الطب جامعة المنصورة ، كان عضوًا فى جماعة الإخوان المسلمين حتى عام ١٩٨٥ ، ثم انفصل عنها واتجه نحو التشيع .

(٣٩) الانتقادات الموجهة إلى محمد الدرينى بأنه نصَّب نفسه زعيمًا للشيعة ازدادت اشتعالا بعد أن استضافته قناة "دبى" الفضائية فى البرنامج الذى يقدمه الصحفى السعودى

المعروف داود الشريان وتحدث فيه عن مشكلات الشيعة فى مصر . راجع : فراج إسماعيل ، زادها اشتعالاً حوار الصحفى السعودى داود الشريان : أزمة بين شيعة مصر حول الزعامة والمرجعية واجتذاب تدخلات خارجية ، العربية نت ، الثلاثاء ٩ مايو ٢٠٠٦م ، ١١ ربيع الثانى ١٤٢٧هـ .

(٤٠) ورد اسمه فى تحقيق نشرته مجلة آخر ساعة المصرية ، عن الشيعة المصريين ، وقالت إنه يُعد المرجعية الدينية والثقافية لهم . وكان لافتًا أن المجلة "الحكومية" تحدثت عن الشيعة فى مصر كأمر واقع لم يعد مرفوضًا من الدولة ، مُقِرَّةً بوجود تشيع من داخل بعض الحركات الإسلامية خصوصًا من جماعة الإخوان المسلمين وأسمتهم "الإخوان المتشيعين" .

(٤١) هددت المستشارة الدكتورة نهى الزينى ، رئيس الجلسة ، بالانسحاب من الندوة بعد أن فقدت السيطرة على النظام ، واعترض عدد من الحضور على عدم إعطائهم الفرصة للحديث من مقدم الندوة الصحفى أحمد السيوفى ، وكانت الزينى تمثل أحد عضوى مناقشة الكتاب ، بمشاركة الإعلامى اللبنانى فيصل عبد الستار .

واعتبرت نهى الزينى أن الكتاب يأتى فى إطاره العام كمحاولة لرأب الصدع بين السُّنة والشيعة . وفى مناقشتها للكتاب ، حذرت الزينى الكاتب والشيعة من الوقوع فى سب الصحابة ، واعتبرت هذه النقطة مفصلية لنجاح أى حوار بين السنة والشيعة ، كما اتهمت المؤلف بما وصفته بأنه سب وقذف للصحابى المغيرة بن شعبة ، والطعن فى براءته من تهمة الزنا على عهد الخليفة الثانى عمر بن الخطاب ، وقالت إن الكاتب قام بانتزاع رواية تاريخية فى كتب الفقه من سياقها واستنبط حكمًا يدين أحد الصحابة . من جانبه نفى راسم النفيس اتهامات نهى الزينى له بسب الصحابى ، وأكد أنه أورد واقعة تاريخية مثبتة فى كتاب تاريخ الطبرى ، ونفى أن يكون من منهج الشيعة سب الصحابة أو احتقارهم .

وفور فتح باب المناقشة سادت حالة من الهرج الشديد والتدافع لطلب الحصول على الكلمة ، وأمام إصرار المنصة على حصر المناقشة فى الكتاب ، اعترض عدد من الحضور على عدم المساواة فى التحدث وتوجيه الأسئلة ، وانتهى الأمر بتحرشات بين الحضور من الشيعة ومشايخ من الأزهر وجماعة أنصار للسُّنة المحمدية ، الذين آثروا الانسحاب ، اعتراضًا على طريقة إدارة الحوار ، وحدثت مناوشات بالأيدى بين

الطرفين (راجع : على زلط ، اشتباكات بالأيدى خلال أول مناقشة علنية لكتاب عن الشيعة ، المصرى اليوم ، القاهرة ، عدد ٢٠/١١/٢٠٠٦) .

من جانبه نشر الدكتور أحمد راسم النفيس ، مقالاً بعنوان : "ندوة وليست معركة !!" نشرته شبكة النبأ المعلوماتية ، يوم الأحد ٣/١٢/٢٠٠٦ ، رداً على ما نشرته صحيفة المصرى اليوم ، من بين ما جاء فيه : يوم ٢٠ نوفمبر طالعتنا صحيفة (المصرى اليوم) بخبر زائف عن الندوة التي عقدت فى مقر (مكتبة الشروق الدولية) بوسط القاهرة عن كتاب (الشيعة والتشيع لأهل البيت) لمؤلفه كاتب هذه السطور ... الجريدة المشار إليها كتبت ما يلى : (اشتباكات بالأيدى خلال أول مناقشة علنية لكتاب عن الشيعة) . وأضاف : من أراد الكلام كان مضطراً إلى الاستئذان من مدير الندوة الذى أفسح المجال كاملا للإخوة الوهابيين للإفصاح عن آرائهم المعروفة سلفًا (فى مذهب أهل البيت لا فى الكتاب) فأى منهم لم يقرأ الكتاب وهو ليس مستعداً لسماع وجهة نظر مخالفة فهم وحدهم أصحاب الحق والحقيقة وهم وحدهم المدافعون عن الإسلام ولا حاجة بنا إلى توضيح الواضح !! ومع ذلك فقد فشل هؤلاء فى تحقيق مرادهم لسبب أساسى هو الحضور الكثيف للجمهور المصرى المعتدل الباحث عن الحقيقة والمحب للوحدة بين المسلمين والذى لم يسمح لهم بتطوير مهامهم القتالية إلى ما هو أكثر من الصوت العالى فاكتفى القوم ببعض الصراخ ولم يحدث أى نوع من الاشتباك ولا حتى على المستوى اللفظى ، فقد نجح مديرو الندوة فى إدارتها بصورة ديمقراطية أتاحت لهؤلاء وغيرهم من الحضور أن يدلوا بآرائهم ، إلا أن الفسحة الزمنية المحدودة وكثرة عدد طالبى الحديث لم تكن تسمح بأكثر مما سمحت به" .

(٤٢) فى أول رد فعل على إعلان الشيعة نية إنشاء حزب ، قال مهدى عاكف المرشد العامُ لجماعة الإخوان المسلمين للصحيفة ذاتها : "إن من حق الشيعة تأسيس حزب سياسى يعبِّر عن أفكارهم وطموحاتهم السياسية" ، مؤكداً "حق أية جماعة فى تأسيس حزب سياسى لها ، ما دام لا تتعارض أفكاره مع مبادئ الدستور والقواعد القانونية والشرعية المعمول بها" .

(٤٣) وكيل المؤسِّسين قدر عددهم بمليون ونصف : شيعة مصر يطلبون تأسيس حزب سياسى .. والإخوان يؤيدونهم ، قدس برس ، الإثنين ١٩ سبتمبر ٢٠٠٥م ١٥ شعبان ١٤٢٦هـ .

(٤٤) فى هذا الإطار كشف الشيخ محمود عاشور وكيل الأزهر الأسبق عن وجود اتصالات مع شخصيات إيرانية لبحث إعادة إنشاء وإحياء لجنة التقريب بين المذاهب بالأزهر ، وأضاف أنه يتم تكثيف الاتصالات حاليًا بين علماء الأزهر والشيخ عبد اللّه القمى ، ابن الشيخ تقى الدين القمى مقرر لجنة التقريب بين المذاهب فى عهد الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر الأسبق والشيخ آية اللّه التسخيرى المفكر الإسلامى الإيرانى .

وأضاف عاشور : ما زالت الاتصالات تجرى حتى الآن لإنشاء لجنة التقريب بين المذاهب ، وسيتم كل شيء بمعرفة مسئولى الأزهر ، وعلى رأسهم الدكتور محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهر .

وحول إمكانية مشاركة بعض المتشيعين المصريين فى اللجنة قال : نرحب بوجود هذه الشخصيات فى اللجنة التى سيكون غالبيتها من علماء الأزهر الشريف ، للقضاء على الاختلافات بين المسلمين ، والتقريب بين أتباع المذاهب الإسلامية .

ومن جانبه أكّد الدكتور عبد المعطى بيومى عضو مجمع البحوث الإسلامية أنه استقبل الشيخ عبد اللّه القمى فى القاهرة مؤخرًا ، لبحث إعادة إنشاء لجنة التقريب بين المذاهب ، مشددًا على ضرورة تنحية الخلافات السياسية عن التقريب بين المذاهب ، وأشار بيومى إلى ضرورة التركيز على وحدة الأمة الإسلامية ولا تكون للسُّنى أو الشيعى أطماع على حساب الآخر (راجع : أحمد البحيرى ، اتصالات أزهرية - إيرانية لإحياء لجنة التقريب بين السُّنة والشيعة ، صحيفة المصرى اليوم ، القاهرة ، عدد الإثنين ٢٠٠٦/١١/٢٠) .

(٤٥) محمد رشيد ، طالب بحظر طباعة ونشر مجلة "آل البيت" : تقرير لمجمع البحوث الإسلامية يحذر من "مخططات" نشر التشيُّع بين المصريين ، موقع "المصريون" الإلكترونى ، عدد ٢٠٠٧/٣/٢٣ .

(٤٦) فى تطور خطير ولافت للنظر .. صحيفة أيمن نور تصدر ملحقًا خاصًا بأم المؤمنين والمبشرين بالجنة ، المصريون ، عدد ٢٠٠٦/١٠/٤ .

(٤٧) للكاتب أشرف عبد المقصود ، عدد ٢٠٠٦/١٠/٧ .

(٤٨) أشرف عبد المقصود ، المال الشيعى يخترق الصحافة المصرية ، صحيفة "المصريون" الإلكترونية ، عدد ٢٠٠٦/١٠/٧ .

(٤٩) كمال حبيب .

(٥٠) الدكتور ضياء رشوان .

(٥١) الدكتور على البنان .

(٥٢) الدكتور سيد عبد الخالق ، راجع : السيد أبو داود ، مستقبل الفكر الشيعى فى مصر ، موقع البينة على شبكة الإنترنت .

http://www.albainah.net/index. aspx? function-Item&id=4587

(٥٣) الدكتور محمد مجدى مرجان ، مصر وإيران والرباط الحضارى ، الأهرام المصرية ، عدد ٤٣٦١٢ ، الأربعاء ٢٠٠٦/٥/٣ .

(٥٤) إيمان محمد وحازم مصطفى ، أمريكا تصحح مسارها بصدام سنى شيعى ، إسلام أون لاين : نت ، ٢٠٠٧/٢/٢٥ .

http://www.islamonlie. net/servlet/Satellite?c= Article A- C&cid= 1172072111853& pagename= Zone- Aravic- News%2 FNWA- . Layout

المراجعة اللغوية : محمود عبد الرازق

الإشـراف الفنــى : رانـدة عبـد الكريم



يحتوى هذا الكتاب على عدد من المقالات والأبحاث التى تتناول العلاقات المصرية الإيرانية منذ العصور القديمة حتى العصر الحديث، مروراً بالعصور الوسطى. وفى هذا السياق يتناول الكتاب العلاقات المصرية الإيرانية اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا، مشيراً إلى فترات ازدهار هذه العلاقات وأسباب هذا الازدهار ونتائجه، وكذلك إلى فترات تدهور هذه العلاقات وأسباب هذا التدهور ونتائجه.



الغلاف / رائدة عبد الكريم